أعطِنا، ربِّ، قبلَ كلِّ عطاءٍ

أن نحطّ التفاتةً في سناكَ

كلُّ ما دونَ وجهِكَ الجمّ وهمٌ

أعطِنا، ربِّ، أعطِنا أن نراكَ

سعيد عقل

شهيد تحرير السود الأمريكيّين

مارتن لوثر كينغ

١٩٢٩ - ١٩٦٨

سلسلة النوابغ

١٥

مارتن لوثر كينغ

شهيد تحرير السود الأمريكيّين

أديب مصلح

٢٠٢٣

طبعة أولى

٢٠٢٣

* * *

حقوق الطبع محفوظة للمؤلّف

الإهداء

إلى الذين، تشبُّهًا بالمخلِّص

يموتون كي يحيا إخوةٌ لهم،

بحرّيّةٍ وكرامةٍ،

ويخلصوا...!

تقــديم

المتروپوليت جاورجيوس خوّام

قرأت مقتطفاتٍ، خَطّها عددٌ من الكتّاب، في حياة القسّ مارتن كينغ، تحدّث فيها واضعوها عن منهج حركته، وعن إيمانه الثابت بواجب التصدّي للظلم، والجهاد في سبيل العدالة الاجتماعيّة، عبر سبيل اللاعنف الفاعل والملتزم؛ لكنّي وجدت، في كتاب الأستاذ أديب مصلح، عرضًا مفصّلاً لحياة الزعيم الروحيّ مارتن كينغ، ملهم حركة الجهاد السلميّ، والمصلح الصنديد، الذي يليق به لقب الثائر الحكيم. عرف هذا الرجل كيف يخترق، بجرأةٍ، وصراحةٍ، جدران القمع، والتفرقة العنصريّة، وكيف يحتكم إلى القوانين، لكي يجعل نصوصها، في خدمة الإنسان.

لم أقع، بالحقيقة، في المكتبة العربيّة، من قبل، على كتاب سيرةٍ، تناول فيه مؤلّفه حياة القسّ كينغ، بالتفصيل الروائيّ، والوصف الدقيق، والتوثيق المحكم، وبلغةٍ عربيّةٍ جزلةٍ، تخلو من المشتكى واللوم، كما وجدت في الكتاب، الذي بذل أستاذنا الجليل أديب مصلح الوقت، في إعداد هذا المصنّف. بكلّ يقينٍ، ولكن بكلّ صدقٍ، أقول إنّ كتاب الأستاذ مصلح هذا، في تدوين سيرة القسّ مارتن لوثر كينغ جوهرةٌ، يمكن، بارتياحٍ، الفخر بوضعها، على رفوف المكتبات، حيث يحتلّ مكانه الطبيعيّ.

قصّة العدالة الاجتماعيّة تضرب جذورها بعيدًا في عمق التاريخ، تاريخ البشريّة، وتنشب أظافرها الحادّة في عجينة الضمير الإنسانيّ، قديمه وحديثه. وهي قصّة البؤس، الذي يغرق فيه الأفراد، كما المؤسّسات، والمجتمعات، والدول، العظمى منها والصغرى، معًا، على حدٍّ سواء. فلا غرابة، إذا انكبّت الكنيسة على معالجة الموضوع، في كلّ ظرفٍ ومكانٍ، ولدى هذا النظام، أو عند تلك الأنظومة، مستلهمةً نصوص الإنجيل، ومستقيةً تعاليمها من روحها. فالبؤس، إمّا يولد فيه المرء، وإمّا يصيبه، بعد إهمالٍ مستديمٍ، وإمّا يهيمن روحًا على روحه الإنسانيّة. ما يجمع بين هذه الثلاثة هو الذلّ!

أجل. الذلّ، ذلّ الإنسان. فالعوز المادّيّ مصيرٌ مشؤومٌ، وحكمٌ جائرٌ، وإرهاقٌ غاصبٌ، يقبض على الفكر، ويعتصر القلب، ويرمي بالروح الحضيض. العوز المادّيّ ذلٌّ، لا ينحصر وهقه بمن يصيبه، فردًا كان، أم عائلةً، أم مجتمعًا بأسره، أم دولةً. إنّما يرتدّ شرّه، أيضًا، على الحضارة، المحلّيّة، والدوليّة، وينقل إليها ثقل ظلّه. يرافق العوز المادّيّ الجريمة، ويسير جنبًا إلى جنبٍ مع الانحلال، ويشكّل تربةً خصبةً، في عينَي المستغلّين، ويشلّ القدرة على النهوض، نحو مجتمعٍ متطوّرٍ.

لقد استطاع القسّ مارتن كينغ، بنظره الثاقب، أن يشاهد طيف الذلّ هذا، الذي أخضع المجتمعُ الأمريكيّ له، عنوةً، وإصرارًا، جحافلَ من أبناء الشعب، بسبب لون بشرتهم، التي خلقها الله. تمكّن من فحص العاهة الاجتماعيّة المستشرية ضررًا، منذ قرون، ومن كتابة الوصفة الطبّيّة المناسبة لها، ومن بثّها في نفوس مجتمعه.

الإفلاس هو عوزٌ، أيضًا! هو عوزٌ مدقعٌ، يُخشى! الإفلاس المادّيّ، كالإفلاس الروحيّ، والأخلاقيّ، والذهنيّ، يعني فقدان القدرة الشرائيّة، إذا كان مادّيًّا،

وانعدام الارتباط بسيّدٍ على الحياة، إذا كان روحيًّا، وفكّ الارتباط برادعٍ مسلكيٍّ، إذا كان أخلاقيًّا، وخلوًّا من الفهم، إذا كان ذهنيًّا. وهو ذلٌّ للجبلة البشريّة، لا تكاد قوّةٌ تقوى أن تنتفض على هيمنته. إنّ الكرامة البشريّة تأبى الذلّ. وامتيازها هو إباؤها. أمّا الإفلاس، فيعني قهر الطبيعة البشريّة، وإرغامها على قبول ما ليس فيها، ولها. وقد عقل القسّ مارتن كينغ، أيضًا، هذا الجانب من النظرة إلى الإنسان، عمومًا، ومن العمل الشاقّ، من أجل تحرير الإنسان الأسود البشرة، في أمريكا، خصوصًا. كافح كفاحًا عنيدًا، واستبسل، حتّى الرمق الأخير، في سبيل الكرامة البشريّة، دفاعًا عن مكانتها المفقودة، أو المسلوبة، بعبارةٍ أدقّ، لأنّه عدّ الفصل، بين إنسانٍ، وإنسانٍ آخر، يعيشان كلاهما، في مجتمعٍ واحدٍ، تحت مظلّة قانونٍ واحدٍ، إهانةً، ومذلّةً.

ولكنّ ثمّة ما هو شرّ مستطيرٌ، في موضوع الكلام على البؤس. العوز بؤسٌ، كما قلنا؛ والإفلاس، كذلك بؤسٌ. والبؤس الثاني أبهظ عبئًا من الأوّل، على كاهل الإنسان، بسبب بعض المسؤوليّة الملقاة، في ناحيةٍ معيّنةٍ، على مَن يصيبه الإفلاس. كلاهما وصبٌ، إنسانيٌّ، واجتماعيٌّ، وأخلاقيٌّ. وكلاهما ظاهرة تفرقةٍ، في قلب المجتمع، تسعى الأنظمة، ومؤسّسات البرّ، إلى تدارك أثرهما. لكنّ بؤس التصلّب في الغيّ، والإصرار على ملازمته، والمضيّ قدمًا في الاستكانة له، رغم افتضاح سوئه، وكشف ضرره، والإضاءة على الإثم، الذي يبذره، إنّما هو عين الأذى، الذي يطيح، بتصميمٍ، وعنادٍ، بالإنسان، والمجتمع، والوطن، والحضارة الإنسانيّة. وقد وعى القسّ كينغ هذه الحقيقة الصارخة، ورفع عقرة صوته، تكرارًا، حاثًّا على التفطّن لها، على امتداد المقاطعات الأمريكيّة، في الجنوب، والشمال، وفي سائر النواحي. كان مناضلاً وطنيًّا صادقًا، ليس من إخلاصه بشيءٍ حماة البلاد أنفسهم.

كم نتمنّى لقرّاء الكتاب، الذي صرف الأستاذ الكبير أديب مصلح في إعداده الجهد، والموهبة، والوقت، بسخاءٍ حريصٍ، أن يطلّوا، من نوافذه العديدة، على العمق الروحيّ الملتزم، الذي تميّزت به روح القسّ مارتن لوثر كينغ. لقد سعى، فنال. وجاهد، فكسب. وناضل، فغنم.

+ جاورجيوس خوّام
متروبوليت أبرشيّة اللاذقيّة وطرطوس وتوابعهما
للروم الملكيّين الكاثوليك

صافيتا، ٢١ شباط ٢٠٢٣

من يسوع إلى غاندي... إلى مارتن لوثر كينغ

الأب الياس زحلاوي

يصعب عليّ أن أصف حالة الفرح التي انتابتني، إذ كنتُ أطالع سيرة القسّيس مارتن لوثر كينغ الأميركي، ومجموعة ما اختار له المؤلّف من أقوالٍ وخطبٍ مأثورةٍ! وقد أَلِفتُ تلك الحالة، كلّما أُتيح لي أن أقرأ ما كان يصدر عن هذا الكاتب والمفكّر الاستثنائيّ، حتّى من مقالاتٍ وجيزةٍ. وإنّي لعلى يقينٍ من أنّ الكثيرين ممّن قرأوا له حتى السِير الضخمة، مثل سيرة غاندي، وسيرة الأمّ تيريزا، والقدّيس "فنسان دو پول"، وفرنسيس الأسيزيّ، وسواهم من القدّيسين الذين رصّعوا تاريخ البشريّة، بنوعيّة حضورهم وتأثيرهم الدائم والفعّال، لم يجْفَلوا من حجم المؤلّفات التي خصّهم بها، بقدر ما التهموها التهامًا، لأنّها أحدثت في الكثيرين ممّن صارحوني بذلك، تحوّلاً جذريًّا، غيّر مجرى حياتهم.

ولقد كانت سيرة القسّيس مارتن لوثر كينغ بالنسبة إليّ، أشبه بفيلمٍ سينمائيٍّ، تتعاقب المشاهد فيه، بين أضواءٍ باهرةٍ ومفاجئةٍ، وعتماتٍ قاتمةٍ، في حيويّةٍ أتقنت الجمع بين واقعيّةٍ تكاد تكون مرئيّةً، بل ملموسةً، ومثاليّةٍ مستحيلةٍ، جعلت يسوع وغاندي يتجلّيان معًا في كلّ تحدٍّ، بل في كلّ انتكاسةٍ، عاشهما هذا القسّيس الأميركيّ الشابّ!

وإنّ لفي مسيرته السريعة، واللاهثة، والوضّاءة، ما يذكّر حقًّا بما كان من تحوّلٍ استثنائيٍّ في سيرة مَن ذكرت، ممّن تصدّى لرواية حياتهم الغنيّة، مؤلّفنا أديب مصلح، على ما بين حياة قسّيسنا الأسود وحياتهم، من فارقٍ زمنيٍّ من حيث

العمر، لأنّه كان أصغرهم سنًّا، ولقد كان مع أحدهم، وهو فرنسيس الأسيزيّ، أدناهم من عمر مَن استقوا منه كلّهم، الحبّ والنور والقوّة، وهو يسوع، ذاك المثال الأعظم في تاريخ البشريّة جمعاء، إذ إنّ فرنسيس الأسيزيّ مات، وهو في الرابعة والأربعين.

وما تصدّى له هذا القسّيس الأسود الشابّ، في نظرةٍ كلّيّةٍ، من مظالم عامّةٍ وراسخةٍ، اتّسمت بما يكاد يكون شرعيّةً عمليّةً، بحكم تقادمها مئات السنوات، وانتشارها الواسع على مدى المجتمعات الأميركيّة كلّها، ولا سيما في الجنوب منها، لم يكن أحدٌ ليجرؤ على التفكير بالتصدّي لجزءٍ يسيرٍ منه، إلاّ في محاولاتٍ فرديّةٍ، أو جماعيّةٍ محدودةٍ مكانًا وزمانًا، وأبدًا في مسعًى يتّسم بعنفٍ إجرائيٍّ حصرًا، كان ينتهي إلى مزيدٍ من عنفٍ مؤسّساتيٍّ، وأحقادٍ متناميةٍ، ومتنابذةٍ! ففي مثل هذا النطاق، تندرج مثلاً حركةٌ كان لها، لفترةٍ وجيزةٍ، صولةٌ وجولةٌ، تحت اسم "القوّة السوداء".

كلّ ذلك كان قائمًا في طول الولايات المتّحدة وعرضها، مع أنّ حربًا عاتيةً كانت قد قامت فيها، من أجل وضع حدٍّ نهائيٍّ، لمظالم التفرقة العنصريّة، استطالت عدّة سنواتٍ، وكادت أن تفصل شمالها عن جنوبها!

وما فشلت الحرب في تحقيقه، صمّم قسّيسٌ أسود شابٌّ، بعد أقلّ من مائة عامٍ، على إنجازه!

إلاّ أنّه قرّر أن يتصدّى له بأسلوبٍ جديدٍ، أراده خاليًا من كلّ عنفٍ، حتى لو كان عنفًا في الفكر والشعور. بل أراده مسيحيًّا وإنسانيًّا صرفًا، إذ أسنده إلى إنجيل يسوع، لا سيما في عظته على الجبل، وفي دعوته الفريدة إلى محبّة الأعداء والصلاة لأجلهم، في صدقٍ ومحبّةٍ ورجاءٍ! وقد اتّخذ له من المهاتما غاندي، قدوةً استثنائيّةً وتاريخيّةً، أثبتت جدوى مثل هذه الثورة السلميّة، في طول الهند وعرضها، خلال تصدّيها لأعتى إمبراطوريّةٍ عرفها التاريخ، وهي الإمبراطوريّة البريطانيّة!

وكان من القسّيس مارتن لوثر كينغ أن أطلق، وسط اندهاش الكثيرين وخشيتهم، من كنيسته الصغيرة، مع بعضٍ من معاونيه القساوسة، ومؤمنيه السود، حركةً شاءها لاعنيفةً، في جوهرها وأسلوبها وتطبيقاتها، وتطوّراتها المختلفة واللاحقة، من صلواتٍ وترانيم، وتجمّعاتٍ، وخطبٍ، وتظاهراتٍ، وشعاراتٍ، وممارساتٍ، ومبادراتٍ، ونشراتٍ، ومطالب مكتوبةٍ... أجل شاءها لاعنيفةً في كلّ ذلك، ومن ثمّ في كلّ ما تعرّض له، هو ومعاونوه، ومؤيّدوه، والمئات، بل الآلاف ممّن استجابوا لنداءاته، وتعاونوا معه، في مختلف المدن والأرياف الأميركيّة، من إجراءاتٍ تعسّفيّةٍ، تُرجمت في تهديداتٍ صريحةٍ، ومضايقاتٍ متواصلةٍ، ومن ثمّ في اعتداءاتٍ جسديّةٍ، بل وتفجيراتٍ طالت بيوتًا وكنائس، وتسبّبت أحيانًا في مقتل الكثيرين!

ولقد ظلّ أبدًا لاعنيفًا!... على ما عانى شخصيًّا من إحباطٍ متكرّرٍ، كاد أحيانًا، أن يحمله على يأسٍ، ما كان لينقذه منه إلاّ يقينه المطلق بوجود الله معه، والصلاة الدائمة إليه!

ولقد كان له، في نهاية المطاف، ما أراد له الله أن يكون! وإنّ ما حقّقه من نجاحٍ حاسمٍ، داخل الولايات المتّحدة وخارجها، لم يسبق لأحدٍ، حتّى من البيض، أن حظيَ بمثله أو بما يقاربه، وهو لّما يبلغ التاسعة والثلاثين من العمر! وإنّ لمن أبرز هذه النجاحات، كان تأييد الكثيرين من البيض له، من مختلف الأوساط والأعمار، بل من مختلف الكنائس ومسؤوليها، وانضمام الكثيرين منهم علنًا، إلى نشاطات حركته، ومساعيها المختلفة. وكان من أبرز مؤيّديه، جون كينيدي، حتى قبل أن يصبح رئيسًا للبلاد! ولقد كُرِّم!... كُرِّم داخل الولايات المتّحدة وخارجها، على نطاقٍ رسميٍّ وشعبيٍّ، كما كُرِّم في الهند، وطن غاندي، وفي النروج عندما نال جائزة نوبل للسلام، وفي سواهما من بلدانٍ كثيرةٍ!

وهنا، هنا بالذات، ثمّة سؤالٌ أكثر من خطيرٍ، يطرح نفسه: كيف تسنّى لهذا القسّيس الأسود الشابّ، أن يكتنز روحًا على هذا القدر من الحبّ والصدق والجرأة، بحيث استطاع أن يجنّد نفسه بالكلّية، من أجل القيام بما كان يبدو للجميع، مغامرةً مستحيلةً، حتّى إنّ أحدًا من جميع مَن سبقوه طوال مئات السنوات، في تسنّم مسؤوليّاتٍ، عليا أو دنيا، في جميع كنائس البيض، لم يولِها شيئًا من التفكير؟ هل تراه حظي برؤيا ما، أشعلت فيه مثل هذه النار المُحبّة والجريئة، دون أن يبوح بذلك لأحدٍ من الناس؟ أم هي ثمرة اختمارٍ استثنائيٍّ وصادقٍ، لألمٍ دفينٍ، وحبٍّ قهّارٍ، وتطلّعٍ عنيدٍ، انصهرت فيها كلّها آلام أبناء جلدته، فصعّدها توقًا إنسانيًّا، وصلاةً تشحنه بطاقةٍ جيّاشةٍ، لا تُقهر، خصوصًا في المواجهات الحاسمة ولحظات اليأس العابرة؟

وإني لأتساءل وأسأل!

وأقذف هذين التساؤل والسؤال، في وجه كلّ مسؤولٍ كنسيٍّ اليوم، ولا سيما في الغرب، وسط عالمٍ يدمّر ذاته بسرعةٍ مرعبةٍ، دون أن يسمع أيّ صوتٍ مسيحيٍّ جريءٍ، يدعو إلى احترام الله في كلّ إنسانٍ على وجه الأرض!

ولَكَم هو رائعٌ، أن يتحفنا مؤلّفنا، وهو في الثانية والتسعين، بمزيدٍ من هذه "النوابغ" الإنسانيّة والمسيحيّة، في زمنٍ بائسٍ، لم تستطع فيه حتى الزلازل المدمّرة، أن تحرّر كنائس يسوع في الغرب والشرق، من صمتها الغامض، وسط عالمٍ تائهٍ ومتوحّشٍ، يحتاج أوّلاً وأخيرًا، إلى يسوع!

دمشق في ٢٠٢٣/٢/٢٤

تمهيد

كنتُ قد استهللتُ سلسلة "النوابغ" بسيرة المهاتما غاندي الذي بدأ حياته العلنيّة مقاومًا التفرقة العنصريّة في أفريقيا الجنوبيّة، والإذلال المنهجيّ الذي كان المستعمرون يُخضِعون له أبناء البلاد الأصليّين، وجميع الملوّنين، ومنهم عددٌ غفيرٌ من الهنود العاملين هناك.

هذه المقاومة البطوليّة حوّلته روحيًّا، وأكسبته هالةَ قداسةٍ، وتأثيرًا طاغيًا، وأعادته إلى الهند، موطنِه الأصليّ، حيث قاد معركةً مجيدةً على جبهتَيْن: جبهةٍ خارجيّةٍ ضدّ المستعمر البريطانيّ، الذي كان يسلب خيراتِ بلادِه، حارمًا سكّانها من ثرواتهم، وحرّيّتهم، كي يظلّوا راسفين في أغلال الفقر، والجهل، والمرض، ومعركةً داخليّةً ضدّ تقاليد دهريّةٍ باليةٍ، كانت تحكم على فئةٍ عريضةٍ من المواطنين بالنبذ والحرمان، وتعدّ لمسَهم ومعاشرتهم نجاسةً.

وفي هذا العدد الخامس عشر من سلسلة "النوابغ" يُسعدني أن أقدّم سيرةَ بطلٍ مقاومٍ آخر، "مهاتما" آخر، هو القسّ الأميركيّ الأسود "مارتن لوثر كينغ"، الذي ثار على الغبن الذي كان يُلحِقُه بملايين إخوته، داكني البشرة، عنصريّون بيضٌ، افتقروا إلى أدنى عناصر الوجدان الإنسانيّ، ومارسوا، بصَلَفٍ ووحشيّةٍ، أدهى ألوان الإذلال، والقتل، والتفرقة، بحقّ إخوةٍ لهم في الوطن، لمجرّد كون بشرتهم داكنةً، فيما نفوسهم ناصعةٌ، وكان قامعوهم بيضَ البشرة، قاتمي الأرواح.

على غرار غاندي قاد مارتن لوثر كينغ كفاحه البطوليّ، بسلاح المحبّة واللاعنف، وأفلح في لمّ شمل ملايين السود الذين انضووا إلى مبادئه النضاليّة، وكافحوا في سبيل حرّيّتهم وكرامتهم ببسالةٍ وجدوى مدهشتَيْن.

سُئِل غاندي، يومًا، عمّا يمكن إضافته إلى خطبة يسوع على الجبل، فأجاب: "وهل يمكن أن يُضاف شيءٌ إلى خطاب من قال: "أحبّوا أعداءَكم"؟

ومارتن لوثر كينغ أقرّ:

"أنا استقيتُ ثورتي من إنسانٍ يُدعى يسوع، جليليٍّ قدّيسٍ، كُرِّس لبلسمة القلوب المحطّمة".

غاندي ومارتن لوثر كينغ تلميذا مدرسة "عظة الجبل".

كلاهما يستأهلان التطويبات. كلاهما رائعان.

البيئة والنشأة

العنصريّة في الولايات المتّحدة

العنصريّة هي الآفة التي شابت وأفسدت السياسة الأميركيّة منذ نشأة تلك البلاد، في مطلع القرن السابع عشر، مع وصول روّاد المستعمرين البريطانيّين والبرتغاليّين إلى ڤرجينيا، عام ١٦٠٧، بأفواج عبيدٍ أفريقيّين، سُخِّروا في زراعة التبغ، ثمّ في زراعة القطن. وعلى جهودهم المجّانيّة بنى الأميركيّون ثرواتهم وبلدهم.

ولطالما غرب عن ضمير الأميركيّين أنّ الزنوج هم الذين بجهودهم المرهقة شادوا أميركا وكوّنوا ثروات الأميركيّين، وأنّ الشهيد الأوّل الذي سقط على ساحة حرب استقلال أميركا، كان عبدًا يحمل اسم "كريسپوس أتّاكس" (Crispus Attacks)، الذي دأبت كتب التاريخ الأميركيّة على إغفال اسمه.

وظلّ الأميركيّون ينظرون بفوقيّةٍ صَلِفَةٍ، وبعنجهيّةٍ وقِحةٍ إلى أحفاد أولئك العبيد، الذين حصلوا على الجنسيّة الأميركيّة، مثل جميع الغرباء الذين توافدوا من كلّ بقاع الدنيا إلى العالم الجديد. وتخيّلوا أنّ لهم حقّ الاستمرار في استخدامهم، واستصغارهم، وإهانتهم، وإشعارهم بدونيّتهم.

وساهمت في تكريس هذا الوضع وترسيخه السلطات والمحاكم المحلّيّة ولا سيّما في الولايات الأميركيّة الجنوبيّة، مستندةً إلى القوانين الجائرة واللاإنسانيّة التي عُرِفت بقوانين "جيم كراو" (Jim Crow)، والتي فتحت المجال لفظاعاتٍ مريعةٍ.

ففي تلك الولايات مُنع السود من مخالطة البيض في المرافق العامّة: المسارح، والحدائق، والمكتبات، وحافلات النقل العامّ، والقطارات والمراحيض، ولكأنّ السود مصابون بأمراضٍ معديةٍ، مع أنّ السود كانوا هم الذين يُعدّون الطعام في منازل معظم البيض، وينظّفون ثيابهم، وأسرّتهم، ويربّون أطفالهم.

وحُظِر على الأبيض أن يدعو الأسودَ بلقب "سيّد" أو "سيّدة"، بل كان عليه الاكتفاء بقوله: "يا هذا"، وكأنّه شيءٌ لا قيمة له، أو كأنْ يدعوه "يا ولد"، أو "يا بنت"، أيًّا كان عمر المخاطَب، حتّى إذا كان شيخًا ابيضّت لُمّته. وبالمقابل كان يُفرَض على الأسود أن يخاطب الولد الأبيض بقوله "يا سيّدي"، وحتّى الفتاة الصغيرة البيضاء بقوله "يا سيّدتي".

كلّ أسود، في نظر البيض، كان قزمًا كسيحًا. وإذا سار أحدهم منتصبًا، مرفوع الرأس، عدّوه متكبّرًا، صَلِفًا، وإذا تجرّأ وأعلن أنّ له حقوقًا عرَّض ذاته للزوال.

كانت البراءة مضمونةً للأبيض المغتصب، أمّا الأسود المتّهم بالتحرُّش بفتاةٍ سوداء، ولو ظلمًا وافتئاتًا، فمصيره الشنق على غصن شجرةٍ، حيث تصبح، غالبًا، جثّته دريئةً للمتدرّبين على إطلاق الرصاص والصيد.

وحرص البيض على ترسيخ شعور السود، منذ صغرهم، بوضعهم الدونيّ. ففي المخازن التي يرتادونها، عليهم انتظار أن ينال جميع الأولاد البيض مبتغاهم، قبل التقدّم بطلباتهم. وإذا استفسروا والديهم، يومًا، عن سبب هذه التفرقة، فالجواب عمومًا هو: "هذا هو الوضع الراهن، ولا حولَ لنا ولا قوّة في تغييره. ولكن ثقوا بأنّكم لستم أدنى قيمةً من أيّ أبيض".

وأُقصِيَ الأولاد السود عن ارتياد مدارس يتعلّم فيها أولادٌ بيضٌ، فحُرِموا من علمٍ جيّدٍ يؤهّلهم لتولّي وظائف رفيعةٍ، أو أعمالٍ تؤتي أجرًا مجزيًا، وأُبقوا راسفين في قيود الجهل والفقر، والاضطرار إلى خدمة البيض في أعمالٍ وضيعةٍ متدنّية الأجر.

وكانت التفرقة العرقيّة في ميدان التعليم هي الفضيحة الأشدّ صَدْمًا. فمدارس الطلاّب البيض فسيحةٌ صحّيّةٌ، ولكلّ صفٍّ منها قاعته الخاصّة، وهي مجهّزةٌ،

وتحتوي على مختبراتٍ ومكتباتٍ حافلةٍ بأفضل المراجع، والكتب الدراسيّة تُوزّع مجّانًا على الطلاّب، في حين كان على الطلاّب السود الفقراء دفع ثمن الكتب المدرسيّة، وكان مئاتٌ منهم يُحشَرون في قاعةٍ واحدةٍ لا مكتبة فيها، ولا أجهزة تعليمٍ واختبارٍ.

وغالبًا ما كان يغصّ الطلاّب السود، عندما تمرّ بهم حافلاتٌ توصل أترابهم البيض الفرحين الضاحكين إلى مدارسهم، وتغطّيهم تلك الحافلات بسُحُب الغبار، أو برشقات وحلٍ في الشتاء، وهم يجتازون كيلومتراتٍ جيئةً إلى مدارسهم، وعودةً منها.

والأمّهات الواعيات هنّ اللواتي كنّ يرسّخْنَ في أذهان أبنائهنّ السود أنّ التعليم هو الوسيلة المثلى لاستقلالهم وتحرّرهم، ولحصولهم على ما يرغبون فيه.

وربّما وُجدت مدارس قبلت في صفوفها طلاّبًا سودًا، وادّعت الدمج، معارضةً الفصل العرقيّ؛ غير أنّ أذهان المعلّمين فيها لم تكن، دائمًا، متحرّرةً من النظرة العنصريّة.

وقد أوجز الكاتب الأسود "دو بوا" (W. E. Du Bois) حال السود الأميركيّين بقوله:

«على كلّ أميركيٍّ أسود أن يعيش عيشةً مزدوجةً، بصفته أسود وبصفته أميركيًا... لا ريب أنّ ذلك يُضعضع ثقته بنفسه، ولا ينمّي فيه سوى وعيٍ أليمٍ لذاته، وإدراكٍ وبيلٍ لهويّته».

وحُظِر على السود السكن في أبنيةٍ يسكنها بيضٌ، حتّى إذا كان بناؤها مموّلاً من قِبَل الدولة، وأُجبروا على التكدّس في أكواخٍ زريّةٍ تفتقر إلى مقوّمات الصحّة والراحة الأساسيّة.

ودأبت وسائل النقل المشترك على إشباعهم إهاناتٍ، وعلى تذكيرهم، كلّ يومٍ، وبلا رحمةٍ، أنّهم من طبقةٍ دنيا. ومع أنّ تلك الوسائل كانت تستدرّ جُلَّ وارداتها من السود، لأنّ معظمهم عمّالٌ يقصدون، صباحًا، أماكن عملهم البعيدة، ويعودون منها مساءً، فقد خصّصت لهم – عملاً بقوانين الفصل العنصريّ – مقاعد الحافلات الخلفيّة، وحظرت عليهم الجلوس في الأماكن المخصّصة للبيض حتّى إذا كانت خاليةً، والمقاعد الخلفيّة مشغولةً بكاملها. وفضلاً عن ذلك كانت تقضي على كلّ راكبٍ أسود جالسٍ في المكان المخصّص له أن يُخليه لراكبٍ أبيض، صعد إلى الحافلة، ولم يجد له مكانًا في الأماكن المخصّصة للبيض.

وحدَث، غالبًا، أنّ عاملةً مسنّةً مُرهَقةً، في مساء يومِ عملٍ مُنهكٍ، أو أنّ امرأةً حاملاً، لم تستطع أو لم ترضَ إخلاء مقعدها لشابٍّ أبيض صعد حديثًا إلى الحافلة، ولم يجد له مقعدًا، فحُكِم عليها بالسجن عدّة أشهرٍ، وبدفع غراماتٍ باهظةٍ.

ولم تنجُ من هذه المعاملات المهينة، حتّى الفئة الضئيلة من السود التي نجحت في تحطيم طوق الجهل والفقر، ونال أفرادٌ منها شهاداتٍ عليا، والتي ابتنت مساكن لائقةً، وأقامت تجاراتٍ رابحةً. فكانت المتاجر الكبرى ترحّب بمشتريات هؤلاء، ومع ذلك، يمتنع عمّالها عن تقديم الطعام والشراب لهم، في زوايا تلك المتاجر، المعدّة لتقديم الطعام والشراب لزبائنها.

كان الرئيس أبراهام لينكولن قد أعدّ، عام ١٨٦٠ قرارًا تاريخيًّا جاء فيه: "لا عبوديّة، ولا إكراه على الخدمة القسريّة، في الولايات المتّحدة".

غير أنّ الولايات الجنوبيّة الأميركيّة رفضت هذا القرار الجريء. وبقصد منع إصداره شنّت حربًا أهليّةً، سُمّيت "حرب الانفصال"، ودامت حتّى عام ١٨٦٥، فلم يُعلَن قرار إلغاء العبوديّة إلاّ بعد اغتيال الرئيس لينكولن.

غير أنّ العنصريّة المتجذّرة لدى سلطات الولايات الجنوبيّة، حوّلت ذلك القرار إلى شيكٍ بلا رصيدٍ، وأفرغته من مفاعيله، واستمرّت في اعتبار كلّ صاحب بشرةٍ سوداء عبدًا يستحقّ الازدراء، واستغلال طاقاته.

وحاول عدّة رؤساء أميريكيّين إصلاح هذا الخلل بقوانين فيديراليّةٍ، بيد أنّ السلطات المحلّيّة الجنوبيّة، مستقويةً بنُوّابها وممثّليها في الكونغرس، تمكّنت من إدامة هذا الوضع الشاذّ.

وانبرى قادةٌ سودٌ أبطالٌ لتحرير شعبهم من هذا الظلم، ولرفع الضيم عن كواهلهم، وإعادة حقوقهم الطبيعيّة في الحرّيّة والكرامة، وكان أبرزهم مارتن لوثر كينغ.

نشأةٌ أعدّته لحياة نضالٍ

يوم ١٩٢٩/١/١٥، أبصر النور مارتن لوثر كينغ. وذاك الذي سيدوّي صوته في شتّى أقطار المعمورة، وُلد صامتًا، ولم يُسمَع له بكاءٌ مثل سائر الأطفال الذين يواجهون الحياة بالصراخ، إلى أن أوسعته القابلة ضرباتٍ على مؤخّرته فأسمع صوته.

وحرص والده القسّ مايك كينغ على تسميته باسمه، فأطلق عليه مايك كينغ الصغير (.Jr) تمييزًا عن اسم والده مايك كينغ الكبير (.Sr). غير أنّ القسّ، إثر زيارة ألمانيا، غيّر اسمه واسم ابنه من مايك إلى مارتن لوثر كينغ، وعُرِف اسم الفتى طيلة صغره ومراهقته بـــ م. ل. كينغ (M. L. King).

والده كان سليل أُسرة عبيدٍ من جنوب الولايات المتّحدة الأميركيّة، وبدأ حياته أجيرًا في مزرعةٍ تخصّ مصرفيًّا أبيض، في قريةٍ بولاية جورجيا. فكان يقود المحراث الذي يجرُّه بغلٌ. ولكنّ الطموح وانتفاضة الكرامة والعصاميّة التي كانت تفور في نفسه، جعلته يسأم حياة ذلٍّ واستعبادٍ لا آفاق لها، فاستقال من عمله، وهاجر إلى أتلانتا عاصمة الولاية.

وفي طريقه إلى أتلانتا، معلّقًا فردَتَيْ حذائه حول عنقه، توقّف أمام منزل مستخدمه السابق، ووعد نفسه، بقَسَمٍ، ألاّ يكون من بعدُ، عبدًا لأحدٍ، وألاّ يسير وراء بغلٍ، وأن يبتني لنفسه ولأُسرته بيتًا أكبر من بيت مستخدمه، وأن يؤسّس مصرفًا مثل مصرفه. وقد جهد ونجح في تحقيق كلّ ما أقسم عليه، ووعد نفسه به.

وفضلاً عن طموحه المادّيّ، كانت دعواتٌ روحيّةٌ تطرق باب نفسه. ولكنّه بسبب فقر ذويه، وكثرة عدد إخوته، وابتلاء والده بالإدمان على الكحول، لم يكن قد حظي إلاّ بتعليمٍ بدائيٍّ، مع أنّه كان متوهّج الفكر، منيع البنية، ورياضيًّا

ماهرًا، وذا إرادةٍ فولاذيّةٍ. فعمل، نهارًا، مساعد ميكانيكيٍّ، وفي المساء كان يقصد مدرسةً، وعوّض عمَّا افتقر إليه من تعليمٍ. وسيطرت عليه رغبةٌ في الوعظ، وأظهر، في هذا الميدان، فصاحةً نابعةً من إيمانٍ راسخٍ، ومن رغبةٍ مضطرمةٍ في خدمة شعبه. وبعد بلوغه مرحلةً مقبولةً من العلم تولّى رعاية كنيستَيْن معمدانيّتَيْن صغيرتين في ضواحي أتلانتا، وكان يعظ في إحداهما، كلَّ أحدٍ.

وتابع كينغ الأب دروسًا مسائيّةً من أجل إكمال تعليمه الثانويّ. ثمّ انتسب، عام ١٩٢٦ إلى كلّيّةٍ خاصّةٍ بالسود، حيث نال دبلومًا في اللاهوت. وأثبت استقلاليّته، ورباطة جأشه، ومهارته في مجال الأعمال التجاريّة.

والتقى القسَّ "آدم دانييل وليمز" (Adam Daniel Williams) الذي كان، منذ ثلاثين سنةً، راعي كنيسة "إيبينيز" (Ebenez) في الحيّ الأسود الراقي في أتلانتا. وتميّز القسّ "وليمز" المذكور بمكافحته العنيدة للعنصريّة، وبمطالبته الملحاح بحصول السود على كامل حقوقهم المدنيّة. وكان من مؤسّسي "الاتّحاد الوطنيّ لتقدّم الملوّنين" المعروف بـــ .N.A.A.C.P. وبالإجمال كان من نخبة السود في أتلانتا، فصيحًا، جريئًا، مقدامًا، لا يخاف من تدابير الفصل العرقيّ المحلّيّة.

وكان له ابنةٌ وحيدةٌ تُدعى "ألبرتا"، تابعت دراستها في أرقى مدارس أتلانتا التي كانت تقبل، في صفوفها، بيضًا وسودًا على السواء. وإثر نيلها شهاداتٍ جامعيّةً عليا، عملت مدرّسةً، وتميّزت بتعليمها، وأتقنت الموسيقى.

والتقاها مارتن كينغ فتحابّا وتزوّجا، وما لبث القسّ وليمز أن عَيّن صهرَه مساعدًا له في رعاية كنيسة "إيبينيز". وعام ١٩٣١، بعد إلقاء القسّ وليمز عظته الأخيرة، احتفالاً بمرور سبعٍ وثلاثين سنةً على رعايته لتلك الكنيسة، قضت على حياته، بغتةً، نوبةٌ قلبيّةٌ، وخلفه صهرُه مارتن كينغ، الذي سكن مع حماته وزوجته في بيت حميه المتوفّى، حيث أنجب مع زوجته ثلاثة أبناء هم كريستينا، ومارتن لوثر الابن، وألفريد دانيل.

وانطلق القسّ مارتن كينغ الأب في مشروع بناءٍ طموحٍ، فجدّد كنيسة "إيبينيز" تجديدًا كلّيًّا، ووسّعها، ورفع عدد مرتاديها من ستّ مئةٍ إلى عدّة آلافٍ، وزوّدها بستّ جوقاتٍ.

ومع سهره اليقظ والدائب على رعيّته الكنسيّة، وعلى أُسرته، لم ينقطع عن متابعة دراساته العليا، فيما كان أبناؤه يكبرون ويترعرعون إلى أن حصل على دكتورا في اللاهوت من جامعة في أتلانتا.

وفي سعيه المحموم إلى محو أيّام العبوديّة، والبؤس، والوضاعة، وإلى تذوّق طعم الاحترام والرفاه والقدرة، وتنفيذًا للقسم الذي ألزم نفسه به، يوم غادر القرية التي عمل فيها أجيرًا في مزرعة مصرفيٍّ أبيض، أصبح مدير مصرفٍ، وجنى أرباحًا، وأشاد شركاتٍ، وانضمّ إلى فئة البورجوازيّين السود في أتلانتا.

ومع ذلك بقي ديدنه الكفاح في سبيل حقوق السود، وانضمّ إلى مجلس إدارة "الاتحاد الوطنيّ لتقدّم أصحاب البشرة الملوّنة" المعروف بـــ NAACP، الذي كان قد أسّسه حموه القسّ ويليمز.

وسرعان ما أضحى لسان حال السود في أتلانتا، ومن أشجع المدافعين عن حقوقهم، وناضل ببسالةٍ من أجل تحقيق المساواة في رواتب المعلّمين البيض والسود؛ واعترض، بشدّةٍ، على العراقيل التي كانت تُقام من أجل منع تسجيل السود على لوائح الانتخابات العامّة الوطنيّة، مثل إكراههم على دفع رسومٍ لا قِبَل لهم على أدائها، وإخضاعهم إلى فحص القراءة والكتابة. وشُتِمَ، وأُهينَ، ولم يُبالِ وسُجِّل اسمه على لوائح الانتخابات، ثمّ نظّم، عام ١٩٣٦ مسيرة احتجاجٍ على هذه العراقيل، واقتاد فيها مئات السود، ووُصِفت تلك المسيرة، حينئذٍ بمنقطعة النظير.

ومع يُسرِه المادّيّ النسبيّ، لم يتظاهر مارتن لوثر كينغ الأب، يومًا، بالبحبوحة، بل عاش مع أسرته حياة الاكتفاء والقناعة، لا بذخَ فيها ولا عَوَز، وكانت صلاته اليوميّة تقول: "يا ربّ، لا تسمح بأن يعاني أبنائي ما عانيتُه أنا من ضيقٍ".

وبفضل حسن إدارته أبعد عن أسرته شبح الجوع والإملاق، ولم يحرم صغاره من مكافآتٍ أُسبوعيّةٍ متواضعةٍ تتيح لهم ابتياع طيّباتٍ يشتهونها، وكان حريصًا على إكرامهم مقابل أدائهم واجباتهم أداءً جيّدًا.

ومثل الآباء والمربّين، في ذلك العهد، كان القسّ كينغ يمارس عقاباتٍ قاسيةً، لم ينجُ منها مارتن الصغير. وكانت تلك العقابات بليغة الأثر على نفسه، توقظ لديه شعورًا باهظًا بالخطأ، وفي الآن عينه كان يستنكر طريقتها. ولكنّه كان يتلقّاها بهدوءٍ بطوليٍّ. وقد اعترف والده أنّه كان يتلقّى العقاب واقفًا، رافع الرأس، ساكنًا، وقد تسيل دموعه حتّى الأرض، ولكنّه لا يتلفّظ بكلمةٍ. ولم تكن جدّته تحتمل هذا المشهد، فتنتحي في غرفةٍ وتطلق لدموعها وتأوّهاتها العنان. وما أن يدير القسّ ظهره حتّى تأتي بحفيدها وتسكب عليه عزاءها. ولا عجب إنْ نشأَت علاقات مودّةٍ وطيدةٍ بين مارتن الفتى وجدّته.

عَلاماتٌ لافتةٌ في صبا مارتن كينغ الصغير

لمس فيه ذووه نبوغًا باكرًا، ومؤهّلاتٍ فريدةً، وإدراكًا لما كان يستغلق على سواه. فغالبًا ما حرّض والده أفراد أُسرته، تفاديًا للتبذير، على أن يصنع كلٌّ منهم كلّ احتياجاته بنفسه. ولكنّ مارتن الصغير اعترض مبيّنًا أنّ ذلك الأسلوب قد يُلحق الأذى بالذين احترفوا خدماتٍ في مجالاتٍ مختلفةٍ مثل الخياطة، والإطعام والحلاقة، وما إلى ذلك، ويحرمهم رزق عيشهم.

وباح والده بأنّ مارتن الصغير، قبل أن يعرف القراءة، كان يهوى إحاطة ذاته بالكتب، ويسعد بوجودها حوله. وكان ينعم بذاكرةٍ خارقةٍ. وفي سنّ السادسة كان يُذهل الحضور بتلاوة مقاطع طويلةٍ من الإنجيل غيبًا، وينشد تراتيل رائعةً تقول: "أريد أن أتشبّه، أكثر فأكثر، بيسوع".

ومنذ سنّ العاشرة كَلِفَ بالقراءة، وبالعبارات الجزلة، وبالخطابات البليغة، وقال لوالده: "عندما أكبر، ستكون لي، أيضًا، أقوالٌ مدوّيةٌ".

ومن المؤكّد أنّ والدته قد ورّثته قوّتها الهادئة، ومَرَحها، ورقّة مشاعرها، والتزامها الأخلاقيّ الصارم، وأمتعته مثلما أمتعت الجموع بمواهبها الموسيقيّة الرفيعة.

ومع كلّ مواهبه لم يحِد الفتى مارتن عن تواضعه السحيق.

مارتن والقضيّة العرقيّة

ويروي مارتن كينغ الابن، في سيرته الذاتيّة، أنّ حَدَثَيْن وَسَما صباه، وتركا أثرًا بليغًا على مستقبله. الحدث الأوّل كان وفاة جدّته، التي كانت تؤثره بمحبّتها، والتي كان، هو، يحبّها حبًّا جمًّا. ولم يُطِقِ الشعور بنهايتها، بل ترسّخ لديه الإيمان بخلود نفس الصالحين.

أمّا الحدث الثاني الذي دمغ أعماق نفسه بميسمٍ ناريٍّ، فكان ما عليه احتماله بسبب سواد بشرته، وعواقبه الموجعة مدى حياته كلّها. فهو كان، منذ سنّ الثالثة، قد عقد علاقة صداقةٍ مع صبيٍّ أبيض مجايلٍ له، وظلاّ مدى ثلاث سنواتٍ يلعبان معًا يوميًّا، بحرّيّةٍ، ولا يفترقان. وكان لوالد الصبيّ الأبيض حانوتٌ مقابل منزل ذوي مارتن. ولكن لّما بلغا السادسة سُجِّل كلٌّ منهما في مدرسةٍ، عملاً بقوانين الفصل العرقيّ المفروضة من قِبَل السلطات المحلّيّة. ومنذئذٍ تراخت روابط الصداقة بينهما بفعل الفراق، ثمّ ما لبثت أن بُترت بعنفٍ، يوم بلّغه رفيقه الأبيض أنّ والده منعه من مقابلته، أو اللعب معه والتحدّث إليه. وكانت صدمته صاعقةً. وعلى مائدة العشاء، في ذلك اليوم، حاول استكشاف سرّ ذلك التحوّل المباغت، وعلم أنّ سببه القضيّة العرقيّة، وأنّ وصمة سواد بشرته في مجتمعٍ أكثريّتُه من البيض المتعجرفين، ستواكبه على امتداد حياته.

وذات يومٍ كان، مع والدته، في متجرٍ، ومرّت بقربه سيّدةٌ بيضاء وصفعته صفعةً مدوّيةً، وألحقت صفعتها بشتيمة "الزنجيّ القذر". ولّما أعلم أُمّه بذلك كانت السيّدة البيضاء قد توارت.

وللمرّة الأولى استمع من ذويه إلى رواياتٍ مفجعةٍ عن المآسي المريعة التي طالما حلّت بآبائهم وجدودهم وبهم وبجيرانهم السود، وعن الإهانات التي تكبّدوها. وقد هزّت هذه القضيّة كيانه هزًّا عنيفًا، وكانت ردّة فعله الأولى بأن يبغض كلّ إنسانٍ أبيض. ومع أنّ والديه ذكّراه بأنّ واجبه محبّة الجميع، متخطّيًا مشاعر النفور، فهو ما انفكّ يتساءل كيف له أن يحبّ قومًا يبغضونه، وكانوا سبب بتر علاقته مع رفيق صباه. ولسنين طويلةٍ لم تفارقه تلك التساؤلات.

ومنذئذٍ، أعلن عداءه للفصل العرقيّ، الذي رأى فيه ظلمًا جسيمًا لا يُطاق، ووطّن العزم على مكافحته. ودعمه في هذا العزم، موقف والده الأبيّ والعنيد في كرامته. فقد استصحبه والده، يومًا، إلى متجر أحذيةٍ في وسط المدينة، وجلسا، معًا، على أوّل مقعدٍ خالٍ، وما لبث أن جاءهما عاملٌ أبيض، وقال لهما:

– "سيسعدني أن أخدمكما بعد فترةٍ قصيرةٍ، ولكن عليكما الآن أن تنتقلا من هنا وتجلسا على المقاعد الموجودة في طرف المتجر".

واعترض والده:

– "هذه المقاعد جيّدةٌ، ونحن مرتاحان هنا، ولا داعي لانتقالنا إلى مقاعد أخرى".

– "أنا آسف، ومع ذلك لا بدّ من انتقالكما إلى حيث أشرت لكما كي أخدمكما".

فردّ الوالد بحزمٍ:

– "أو بِعْنا أحذيةً ونحن جالسان هنا، أو لا نشتري شيئًا".

وفي الحال، أمسك بيد صغيره وخرجا، وسمعه الصبيّ يتمتم:

"قد أضطرّ إلى معاناة هذا النظام الكريه طويلاً، ولكنّي لن أقبله أبدًا".

وفي نوبةٍ أخرى برهن له والده عن رفضه التنازل عن كرامته، وتوجيهه الصفعات لصَلَف السلطات البيضاء. فذات يومٍ إذ كان يقود سيّارته، ارتكب، سهوًا، مخالفة سيرٍ، فأوقفه شرطيٌّ، وقال له:

– "يا صبيّ، توقّف على اليمين، وأعطني رخصة سوقك".

فردّ عليه القسّ مارتن كينغ الأب:

– ""دَعْني أوضح: إن كنت تخاطب ابني الصغير، حَقَّ لك أن تدعوه "صبيًّا"؛ أمّا إذا أصررت على اعتباري، أنا، صبيًّا، فلن أردّ عليك".

وذهل الشرطيّ لسماع رجلٍ أسود يردّ عليه بهذه اللهجة، وارتبك، ودوّن المخالفة بيدٍ مرتجفةٍ، وسارع إلى الفرار بعيدًا.

بمثل هذه الأمثال الحيّة تعلّم مارتن الابن من والده مقارعة كبرياء البيض، والوقوف في وجه ظلمهم. ولطالما خَبَر بنفسه ألم المحظورات المفروضة على أمثاله من السود، إذ لم يكن يحقّ له ارتياد حديقةٍ عامّةٍ أو مكتبةٍ عامّةٍ، ولا استخدام مسبحٍ أو مرحاضٍ عامَّيْن، ولم يستطع تناول طعامٍ أو شرابٍ في زوايا المتاجر الكبرى المخصّصة لهذه الغاية.

ثمّ لّما تابع دراسته الثانويّة في مدرسةٍ بعيدةٍ، كان يستقلّ من أجل الوصول إليها حافلةً، وكان يؤلمه اضطراره إلى الجلوس على المقاعد الخلفيّة أو الوقوف طيلة المشوار، إن لم يعثر على مقعدٍ خلفيٍّ، حتّى إذا كانت المقاعد الأماميّة المخصّصة للبيض خاليةً. ولطالما حلم بالجلوس في المقعد الأوّل بجانب السائق، وبيوم تحقيق هذا الحلم.

وفي سنّ الرابعة عشرة، قصد مع أستاذته مدينةً في ولاية جورجيا، من أجل المشاركة في مسابقة فصاحةٍ. ومن سخريّة القدر أنّ موضوع المسابقة كان: "الإنسان الأسود والدستور". وهو، في خطابه، قال متوجّهًا إلى الرئيس روزڤلت:

«- يستحيل أن تقوم في الولايات المتّحدة الأميركيّة ديمقراطيّةٌ مستنيرةٌ طالما تعيش فئةٌ عظمى من شعبنا في الجهل. ويستحيل أن تكون لدينا أُمّةٌ سليمةٌ طالما يفتقر عُشر سكّاننا إلى تغذيةٍ صحيحةٍ، ومبتلين بميكروباتٍ لا تعترف بالحدود العنصريّة، ولا تخضع لقوانين "جيم كراو". ولن نكون مسيحيّين حقيقيّين، طالما خالفنا تعليم يسوع الأساسيّ، وقاعدته الذهبيّة المحبّة الأخويّة. ولن تزدهر بلادنا طالما بقيت نسبةٌ كبيرةٌ من السكّان عاجزةً عن ابتياع الموادّ الضروريّة. نحن مستعدّون للذود عن ديمقراطيّتنا في مواجهة الهجمات الخارجيّة، ولكن فلنتأكّد أنّنا هنا، على أرضنا، نتيح فُرَصًا عادلةً ومتساويةً للجميع».

لقد فاز مارتن الفتى بالجائزة الأولى في هذه المسابقة، وامتلأ صدره حماسًا وتفاؤلاً. ولكن سرعان ما تبخّر هذان الحماس والتفاؤل في طريق عودته إلى أتلانتا. فقد أُرغم هو ومعلّمته على إخلاء مقعديهما لراكبَيْن أبيضَيْن، وأكملا رحلة العودة وقوفًا على مسافة مئةٍ وثلاثين كيلومترًا. ولزمته انتفاضةٌ روحيّةٌ كبرى كي تطرد حنقه، وتحول دون إضماره حقدًا سحيقًا للبيض.

ولم تكن تلك الخيبة الصادمة هي الفريدة، بل زخرت حياته بالعشرات من أمثالها، ولكنّه مع كلّ ما عاناه منها، كان حريصًا على التأكيد بأنّ أميركا هي ابنة أبراهام لينكولن وإنجيل يسوع المسيح، وعليها أن تمحو كلّ ما يناقض هذه البنوّة وهذا الإنجيل، وكلّ ما يشوّههما.

وقد خطر لمارتن كينغ الابن، في لحظاتٍ من مراهقته، أن يحيد عن درب والده وجدّه، وأن ينهج درب المحاماة أو الطبّ، وأن يحيا حياةً متحرّرةً من قيود التزمّت المتشدّد الذي كان يحرّم أساليب التسلية والفرح. وفي الآن عينه نزع إلى رفض التفسير الحرفيّ للكتاب المقدّس، والدعوة إلى العمل بروحه ووفقًا لمقتضيات الوقت

الراهن. ومن جانبٍ آخر لم يُطِق العبادات التي تُعبّر عن ذاتها بحركاتٍ صاخبةٍ، وأشار إلى هذه النزعة بقوله:

– لو كان لدينا من الحماس الدينيّ في قلوبنا بقدر ما في سيقاننا وأرجلنا، لغيّرنا العالم".

ولطالما ندّد بجهل بعض القساوسة والوعّاظ، وطالبهم بأن يكونوا مفكّرين مقتنعين لكي يستطيعوا نقل رسالة الإنجيل إلى الآخرين.

وقد أوجز مارتز كينغ فترة نشأته، بقوله:

«لقد ترعرعتُ في جوّ مقتٍ للفصل العنصريّ، ولكلّ ما يؤتيه هذا الفصل من قهرٍ وهمجيّةٍ. شاهدتُ بعينيّ وحشيّة الشرطة حيال السود، والمظالم التي كانت ترتكبها المحاكم بحقّهم. وما زلت أذكر سيطرة منظمّة "كو كلاكس كلان" على البيض، وإكراههم على إبقاء السود راسفين في قيود العبوديّة. ولكم من مشاهد وحشيّةٍ، تكدّست في ذاكرتي، ودَمَغتْ شخصيّتي!»

ولم تغِب عن ناظريه المظالم الاقتصاديّة التي واكبت المظالم الاجتماعيّة مواكبةَ أختٍ توأمٍ. فمع أنّه عاش في أُسرةٍ ميسورةٍ، شاهد بوجعٍ معاناةَ رفاقٍ له، والإملاق الذي كان يتخبّط في لجّته جيرانٌ له. وكان قد خالف رغبة والده، وعَمِلَ، أثناء عطلَتَيْن صيفيّتَيْن في مصانع تستخدم عمّالاً من اللونَيْن، وتبيّن كيف يقع ظلم أرباب العمل على الأبيض الفقير مثلما يقع على الأسود، وتبيّن وجوه الظلم في المجتمع.

وهاله تباين التعامل بين ولايةٍ أميركيّة وأخرى. فقبل مباشرته دراسته الجامعيّة، وبغية جمع بعض مالٍ يُضيفه إلى مخصّصات أُسرته، عمل في حقل تبغٍ، في ولاية "كونّيكتيكوت"، حيث طاب له أن يتناول غداءه في المطعم الذي اختاره. ولكنّه لمّا عاد إلى أتلانتا شقّت عليه العودة إلى مرارة الفصل العرقيّ. ولم يفهم لماذا أُتيح له

الجلوس في أيّة مقطورةٍ في القطار الذي استقلّه من نيويورك إلى واشنطن، وفي عاصمة بلاده اضطرّ إلى السفر في مقطورات مخصَّصةٍ للسود. وكانت صدمته جارحةً، عندما أراد تناول الطعام في القطار، فاقتيد إلى موقعٍ خالٍ وأسبل عاملٌ أمامه ستارًا، كي يعزله عن سائر الركّاب.

في هذا الجوّ المتوتّر، والحافل بالجَيَشان الفكريّ انتسب إلى معهد "مورهَوْس" في أتلانتا للدراسات العليا. وفيما كان والده يتوقّع أن يثبّت هذا الانتساب اندماج مصير الابن بمصير الأب كان ذلك الانتساب، في الواقع، سبب مزيدٍ من التحرّر الفكريّ للشابّ، ولإعدادٍ أمثل لنشر رسالة يسوع الحقّة. فبين جدران ذلك المعهد، أدرك مارتن الابن وقد تزوّد بالنقد العلميّ والفلسفة، رسالة الإنسان المسيحيّ، في القسم الثاني من القرن العشرين، رسالةً تتقيّد بجوهر رسالة الإنجيل، وتُعنى بالإنسان.

ولادة وَلَعِه بالخدمة

في سنّ الخامسة عشرة انتسب مارتن كينغ الابن إلى جامعة "مورهَوْس" في أتلانتا التي كان قد تخرّج منها كلٌّ من والده وجدّه لأُمّه. وكانت بداية دراسته فيها صعبةً لأنّه لم يكن قد تابع بانتظامٍ كلّ مراحل سنوات دراسته الثانويّة. غير أنّه، منذ الوهلة الأولى، راق له جوّ الحرّيّة الفكريّة الذي كان يسودها. فبما أنّ تلك الجامعة لم تكن تتلقّى دعمًا من الدولة، فقد تحرّرت من كلّ قيدٍ على التفكير والتعبير، وكانت منابرها متاحةً لكلّ مفكّرٍ يودّ التحدّث عن آفة العنصريّة في الولايات المتّحدة الأميريكيّة.

وقد أثاره، منذ أيّامه الجامعيّة الأولى، كتاب "هنري ثورو" (Henry Thoreau)، الداعي إلى العصيان المدنيّ، لأسبابٍ أخلاقيّةٍ. وكان "ثورو" نفسه قد رفض دفع الضرائب لحكومة ولاية "إنكلترا الجديدة"، لأنّها كانت تسعى إلى ترسيخ العبوديّة في المكسيك، وآثر الإقامة في السجن على دفع الضرائب لدولةٍ لاأخلاقيّةٍ.

ومنذئذٍ تبنّى مارتن كينغ الابن، مبدأ رفض التعاون مع الشرّ والظلم، وكان ذلك أساس دعوته إلى مخالفة قوانين الفصل العنصريّ المفروضة، في معظم المدن الأميريكيّة.

ومنذ وجوده في الجامعة شرع يتعاون مع المنظّمات التي تستهدف جعل العدالة الاجتماعيّة واقعًا. وسرّه أن التقى شبّانًا بيضًا تطوّعوا للتعاون معه في هذا المضمار. وقد أسهم هذا الحدث في تفتير نار حقده على البيض عمومًا. وانتابه شعورٌ بأنّه قد شرع يلعب دوره في تقويض العوائق الناهضة في مواجهة ممارسة السود لكامل حقوقهم الطبيعيّة.

وهو، بتأثير والديه، كان مؤمنًا بأنّ رسالته في الدنيا هي خدمة المحتاجين. ولكنّه لم يكن قد اكتشف، بعدُ، السبيل الأمثل لأداء هذه الخدمة.

وقد أسهمت دراسته الجامعيّة في توسيع الهوّة بين التعاليم الدينيّة التي كان يتلقّاها في مدارس الأحد، والعلوم التي تلقّاها في الجامعة. ومثل شبّانٍ كثُرٍ من أترابه تساءل عن وسيلة توفيق العلم مع الدين. وقد توسّم أملاً في بلوغ هذا التوفيق من خلال مثال القسّيسَيْن اللذَيْن كانا أستاذَيْه، واللذين جمعا، على تناغمٍ، عمقَ العلم، وسلامة التديّن "الأصيل"، المنفتح. ورأى فيهما مثالاً يُحتذى. وتيقّن متأثّرًا بمثال والده الجريء، بمسؤوليّته عن خدمة مواطنيه بصفته قسّيسًا فانتسب إلى إكليريكيّة "كروزر" (CROZER).

في إكليريكيّة "كروزر" (CROZER)

لّما دخل إكليريكيّة "كروزر" في مدينة "شيستر"، بولاية "پنسلڤانيا"، عام ١٩٤٨، وبما أنّ معظم طلاّب تلك الإكليريكيّة كانوا من البيض، فقد حرص على تصحيح الصورة الشوهاء التي طالما وُصِف بها السود: تخلّفٌ عن المواعيد، ضحكٌ صاخبٌ، قذارةٌ، فوضويّةٌ. فدأب على الالتزام بالمواعيد التزامًا بلغ مرحلة الهوَس. واصطنع وجهًا عابسًا مريعًا، وسهر على أناقة ملبسه، وعلى ترتيب غرفته ترتيبًا لا يشوبه عيبٌ.

وأتاحت له تلك المرحلة التحرّر من هيمنة والده، الذي ما انفكّ يعاقبه بالضرب حتّى سنّ الرابعة عشرة، ويحظر عليه ارتياد النوادي، والرقص، ويفرض عليه تزمّته الفكريّ.

فترأّس ناديًا اجتماعيًّا، ومجلس الطلبة، وجوقة إنشادٍ، وانضمّ إلى "الاتّحاد الوطنيّ لتقدّم الملوّنين .N.A.A.C.P.

ولم يكن يتحرّج من ارتياد النوادي، ومغازلة الفتيات الجميلات، ومن مراقصتهنّ. وخلافًا لرغبة والده، عمل أثناء عُطَلِه الصيفيّة، مُستخدَمًا، أو موظّفًا، أو عاملاً زراعيًّا في حقول تبغٍ وقطنٍ، أو في شركة خطوطٍ حديديّةٍ، أو حمّالاً في شركة تصنع فرش أسرّةٍ. وفي العديد من هذه الشركات التي كان بعضها يخصّ بيضًا، عمل مع عمّالٍ بيضٍ، ونجم عن ذلك تخفيف غلواء حقده للبيض.

ومن جانبٍ آخر استغرق في دراسة النظريّات اللاهوتيّة التي تتناول الأوضاع الاجتماعيّة، والأخلاقية، بدءًا بنظريّات أفلاطون وأرسطو حتّى "جون ستيوارت ميلّ" (J. S. Mill) و"لوك" (Lucke)، مرورًا بروسّو وهُبْز (Hobbes).

وتهيّأ ليكون المدافع الشجاع عن الإنجيل الاجتماعيّ، وأن يعمل على جبهتَيْن معًا: التأثير على نفوس الأفراد من أجل تغيير مجتمعاتهم، والتأثير على المجتمعات لكي يسهّل تغيير نفوس الأفراد.

وفي سبيل ذلك تعمّق في دراسة الشيوعيّة الماركسيّة، وتبنّى بعض نظريّاتها الاجتماعيّة، مثل السعي إلى إيجاد مجتمعٍ خالٍ من الطبقات، ولكنّه، تبيّن أنّ الشيوعيّة، في الواقع، خلقت طبقاتٍ جديدةً، وحفلت سجلاّتها بالمظالم الاجتماعيّة، والجرائم الأخلاقيّة.

ورفض تفسير الشيوعيّة للتاريخ تفسيرًا ماديًّا نافيًا وجود الله، ورفض، أيضًا، مبدأ استعمال أساليب لاأخلاقيّةٍ من أجل ما ترى فيه الدولة مصلحةً لها، مثلما رفض توتاليتاريّة الشيوعيّة وجعل الدول هي الغاية والإنسان هو الوسيلة، وبالتالي إلغاء الحرّيّة الشخصيّة كلّما تعارضت مع مصلحة الدولة.

وكان إيمانه الذي لم يحِد عنه أبدًا هو أنّ الإنسان، في ذاته، الغاية، لأنّه ابن الله، ولأنّه لم يُصنَع من أجل الدولة، بل إنّ الدولة وُجِدت من أجله.

وبالمقابل استنكر مارتن كينغ اتّساع الهوّة بين الثروة الفائضة والفقر المُذلّ، ودعا إلى توزيعٍ أكثر عدالةً للثروات الوطنيّة. وعبّر عن خشيته من أن يؤدّي التفاخر بالازدهار الاقتصاديّ إلى جعل النجاح المادّيّ هو غاية حياة الفرد.

وانتهى إلى استخلاص أنّ الرأسماليّة لم تتبيّن إيجابيّة المبادرات الجماعيّة، والشيوعيّة لم تدرك إيجابيّة المبادرات الفرديّة. لم تفهم الرأسماليّة أنّ الحياة ظاهرةٌ اجتماعيّةٌ، ولم تتبيّن الشيوعيّة أنّ الحياة هي ظاهرةٌ فرديّةٌ وشخصيّةٌ، وأنّ ملكوت الله لا يمكن بناؤه على أيٍّ منهما، بل على الجيّد في كلٍّ منهما. وأيقن أنّه إذا مارس المسيحيّون مسيحيّتهم حقًّا، لانتفت الحاجة إلى كلٍّ منهما.

وبالإجمال كانت دراسته في إكليريكيّة "كروزر" محاولة إيجاد توازنٍ فكريٍّ بين تيّاراتٍ متباينةٍ، وسعيًا إلى التنسيق بين تقاليد لاهوتيّةٍ مختلفةٍ. وكانت تمزّقًا بين الكَلَف بالبحث الفلسفيّ، وتلبية دعوةٍ إلى خدمةٍ ساميةٍ؛ وكانت حربًا نفسيّةً داخليّةً بين تقليدٍ أُسرويٍّ، راسخ الجذور، وتأكيدٍ للذّات واستقلالها.

وقد أسهمت مطالعاته لنظريّات لاهوتيّين تقدّميّين، كانوا يوصَفون "بالليبيراليّين"، في تحريره من تزمّت والده وجدّه الفكريّ، وفي الآن عينه، حمَته من الانجراف إلى يساريّةٍ متطرّفةٍ، أو إلى إيمانٍ مطلقٍ بقدرات العقل، وإغفال قدرة الخطيئة على طمس رؤية العقل وإصابته بالعمى، وإيهامه بتبرير الشرّ.

ومنذئذٍ، دوّن برنامج مستقبله، فكتب:

«منذ كنتُ شابًّا، وكانت معظم أيّام حياتي ما زالت أمامي، وطّنتُ العزْمَ على تكريس حياتي لأمرٍ خالدٍ مُطلَقٍ، وليس لآلهةٍ تظهر اليوم، وتختفي غدًا. قرّرت تكريسها لإله الأمس واليوم، وكلّ وقتٍ.

"إنّي أربأ بنفسي بأن أخدم تلك الآلهة القزمة التي قد يقضي عليها العهد النوويّ، وأضع إيماني في الله الذي أمدّنا بأزره منذ بدء الأزمنة، والذي يمثّل رجاءنا للسنين القادمة. إذا شئنا المضيّ قُدُمًا، فعلينا العودة إلى الوراء، والتقاء هذا الله عينه الذي يقتضي ولاءَنا المطلق.

"وعلينا إعادة اكتشاف القِيَم الثمينة، أي كلّ واقعٍ يقوم على أُسُسٍ أخلاقيّةٍ، ويخضع لسلطةٍ روحيّةٍ».

وقد أثبتت نتائج دراسته في الإكليريكيّة تفوّقه الفكريّ. وربّما أغراه ذلك بإظهار غنى معلوماته، فألقى عظاتٍ في كنائس شعبيّةٍ بولاية جورجيا، وحفلت تلك العظات باللاهوت والفلسفة التي لم ينفذ حرفٌ منها إلى أذهان حضورٍ أُمّيٍّ بسيطٍ.

وبما أنّه كان، في هذه الأثناء، قد سيمَ راعيًا، على يد والده وأحد أساتذته في الإكليريكيّة، فكان عليه إعادة النظر في أسلوب وعظه. ولا سيّما أنّه كان موقنًا بعظمة شأن الوعظ، ومدركًا أنّ الوعظ قد يكون مجديًا، وقد يكون ضارًّا، وأنّ الوعظ الجيّد ليس هو ما يُدهش ببلاغته وعلمه، بل هو الذي يؤثّر بقدرته على توجيه النفوس التوجيه الصحيح. ولم يغرب عن باله أنّ ذلك لا يتيسّر إلاّ للواعظ الذي يشارك الناس قضاياهم وهمومهم، ولا يتيه في ضباب النظريّات، بل يستعين باللاهوت كي يُنير دروب أيّامهم، مقدّمًا لهم الفكر العميق، بأسلوبٍ بسيطٍ يفهمه أبسط مستمعٍ. وكانت قد ترسّخت لديه، باكرًا، عقيدة أنّ كلّ واعظٍ حريصٍ على نفوس رعيّته ولا يهتمّ بمآسي سكّان الأكواخ التي قد تدفعهم إلى الكفر والجريمة، إنّما هو يعظ بدينٍ يحتضر، ومصيره الموت.

وجديرٌ بالتنويه أنّه أُعجب بمعظم لاهوت توما الأكوينيّ ومن نظريّاته التي تبنّاها: "إمكان اكتشاف الله بالعقل الخاضع للإيمان، وحقّ كلّ إنسانٍ عصيان القوانين البشريّة التي تخالف مقتضيات العدل والمحبّة والحقّ التي أودعها الخالق في نفسه". وقد استقى، أيضًا، الكثير من لاهوت القدّيس أوغسطينُس.

منارةٌ أضاءت طريقَه: غاندي واللاعنف

في غمرة بحثه عن سبيلٍ يمكّن السود من استعادة حقوقهم وكرامتهم، ووسط اصطراع النظريّات في ذهنه، أشعّ عليه نورٌ بدّد أكوام الضباب الذي كان يحجب عنه الرؤية.

ففي يوم أحدٍ قصد مدينة فيلادلفيا كي يستمع إلى محاضرةٍ قدّمها رئيس جامعة "هَوَرْد" (Howard)، الذي كان عائدًا لتوّه من الهند. وتناولت محاضرته سيرة المهاتما غاندي وكفاحه اللاعنيف من أجل التحرّر من الاستعمار البريطانيّ، ومبادئه في الحياة. وكان تأثير هذه المحاضرة على نفس مارتن كينغ الابن من العمق، بحيث سارع إلى ابتياع كلّ ما توفّر له من كتبٍ عن المهاتما غاندي. وسرعان ما فُتِن بحملات مقاومة غاندي اللاعنيفة للمستعمرين، ولا سيّما حملة الملح التي نظّمها. وأخذت بذهنه كلّ مأخذٍ، تعاليمُ غاندي عن "الساتياغراها" أي "قوّة الحقيقة" أو "قوّة المحبّة".

قبل تمثّله تعاليم غاندي، كانت تساوره شكوكٌ في صلاحيّة تعاليم "عظة يسوع على الجبل" الداعية إلى محبّةٍ شاملةٍ لا تستثني الأعداء، في الصراعات المجتمعيّة والقانونيّة الدوليّة، وكان يظنّ أنّها قد تكون صالحةً، فقط في العلاقات بين الأفراد. غير أنّ اطّلاعه على كفاح غاندي أثبت فداحة خطئه في هذا المجال.

وخلافًا لما كان يعلّمه اللاهوتيّ الأميركيّ "راينهولد نيبوهر" (Reinhold Niebuhr)، الذي أُعجِب مارتن بكتاباته، أثناء دراسته الجامعيّة، آمن أنّ اللاعنف ليس استسلامًا للشرّ، وليس موقفًا سلبيًّا حياله، بل هو مقاومةٌ صلبةٌ له خاليةٌ من العنف. فقد قاوم غاندي الشرّ، بمثل صلابة العنيفين ومنعتهم، ولكن مستعينًا

بالمحبّة، عوضًا عن الحقد، وبالاقتناع أنّ تحمُّل العنف هو خيرٌ من ممارسته، لأنّ العنف يولّد العنف والحقد، في حين أنّ اللاعنف الذي تلهمه المحبّة، يولّد لدى الخصم، خجلاً، وتحوُّلاً وتغييرًا.

وكتب مارتن كينغ الابن في هذا السياق: "ربّما كان غاندي الشخصيّة الأولى في التاريخ، التي استطاعت الترقّي بمبادئ المحبّة التي علّمها يسوع، من مجرّد نطاق العلاقات بين الأفراد إلى مستوى قوّةٍ اجتماعيّةٍ قديرةٍ، وفاعلةٍ على مساحةٍ رحبةٍ". فالمحبّة، في نظر غاندي وسيلةٌ جبّارةٌ للتحوّل الاجتماعيّ. وبفضل إدراك كينغ للشأن الجسيم الذي أولاه للاّعنف اكتشف الأسلوب الذي كان يبحث عنه، من أجل تحقيق إصلاحٍ اجتماعيٍّ.

وقد تذوّق من اكتشافه اللاعنف الغانديّ، مُتعةً فكريّةً لم يتذوّق لها مثيلاً، خلال دراسته لنظريّات العديد من الفلاسفة الآخرين. ومنذئذٍ استغرق في تعرّف شخصيّة غاندي عن كثبٍ، ودأب على التمثّل بصراعه مع ذاته، حتّى إحكام السيطرة عليها، وعلى أهوائها ونزواتها، وشهواتها، وعلى سورات غضبها، تسهيلاً لتوجيه كلّ طاقاته نحو خدمة الهدف الذي وطّن العزم على تحقيقه.

وظلّ يراوده حلم معرفة غاندي معرفةً واقعيّةً مُثلى، فقام بزيارة موطن غاندي، حالما توفّرت له الظروف المؤاتية لتلك الزيارة.

ربّما كان نضال الرجلَيْن ضدّ التفرقة العرقيّة هو الذي قرّبهما فكريًّا وروحيًّا، فقبل شنّ غاندي حربه على الاستعمار البريطانيّ، كان قد شنّ حربًا على التفرقة العرقيّة التي كان المستعمرون البيض المهيمنون يفرضونها على سكّان أفريقيا الجنوبيّة، وعلى كلّ ملوّنٍ، والتي لم ينجُ غاندي نفسه من اضطهادها.

وكان من البدَهيّ أن يتساءل مارتن كينغ: بما أنّ أُسلوب اللاعنف قد مكّن الشعب الهنديّ، بقيادة غاندي، من قهر جبروت الاستعمار البريطانيّ، فلمَ لا تُفلِح هذه الممارسة عينها في تحرير سود أميركا من المظالم الحالّة بهم، انتهاكًا للقوانين الفيديراليّة، ولوصايا الله؟

ومن المحقّق أنّ عاملاً منيعًا آخر قد عقد أواصر متينةً بينهما، هو إيمان كليهما، الوطيد، بعِظة يسوع على الجبل.

هذا التقارب الروحيّ بين مارتن كينغ وغاندي شجّع الأميريكيّين السود على معرفة غاندي، فقام رُعاةٌ سودٌ بترجمة أقواله، وبنشر سيرته، حتّى عدّ سودٌ كثُرٌ أنّهم إخوةٌ لمنبوذي الهند، الذين كافح غاندي في سبيل تحريرهم، وإلغاء نظام الطبقات الذي كان يُعدّ تقليدًا مقدّسًا، والذي كان يهمّشهم، ويحرمهم كرامتهم. وقد سعى غاندي إلى استعادتهم كرامتهم الإنسانيّة، وإلى دمجهم بالمجتمع بلا تمييزٍ، وكان هو البادئ بهذا الدمج متخطّيًا رفض زوجته وأتباعه. ولكم من أميركيٍّ أسود رأى في مارتن كينغ صورةً لغاندي!

وقد طلب المفكّر الأميركيّ المناضل من أجل حقوق السود "دو بوا" (W. E. B. Du Bois) من غاندي أن يرسل له مقالاً كي ينشره في صحيفته "الأزمة"، واكتفى غاندي بإرسال ملاحظة جاء فيها: "لا يخجلنّ الاثنا عشر مليون أسود بكونهم أحفاد عبيد. فالعار ليس أن يكون المرء عبدًا، بل أن يكون صاحب عبيدٍ".

وعام ١٩٣٢ كتب "دوبوا" نفسه:

«ليس من يستطيع إجراء معجزاتٍ اليوم سوى المهاتما غاندي. فهو عندما يمتنع عن التغذّي، يحبس أنفاس ثلاث مئة مليون هنديٍّ، والإمبراطوريّة البريطانيّة بأكملها...

"أميركا لا ترى في غاندي سوى مزحةٍ، والمزحة الحقيقيّة هي أميركا.»

دراسته الجامعيّة رسّخت نزعته الغانديّة

حزيران ١٩٥١ أنهى مارتن كينغ دراسته الثانويّة بنجاحٍ باهرٍ، في معهد كروزر، وتلا، باسم زملائه، خطاب الوداع، ومُنح مبلغ ألفٍ وثلاث مئة دولارٍ من أجل متابعة دراسته الجامعيّة. ثمّ أمضى وقتًا قصيرًا مع والده وَوَعظ في كنيسة "إيبينيز". وراودته الرغبة في تعليم مادّة الدين، جامعيًّا، والتعليم الجامعيّ يقتضي أبحاثًا ومقالاتٍ تُقرّها الهيئة الأكاديميّة. ودبلوم دكتورا. وهو، مدفوعًا برغبته في التحرّر من هيمنة والده الفكريّة والمادّيّة، ومن جوّ الجنوب العنصريّ اختار جامعة لاهوت بوسطن. فهو، أثناء دراسته في معهد كروزر كان قد أُعجب بكتابات أستاذٍ يدرّس في تلك الجامعة، وتاق إلى التتلمذ على يده. وكان أحد أساتذته المقرّبين إلى فكره وقلبه، خرِّيجَ جامعة بوسطن، فزوّده بالمعلومات التي تسهّل إقامته ودراسته فيها.

وكان والده قد أهداه مكافأةً على نجاحه في المعهد سيّارة شيڤروليه خضراء، فأودع فيها حقائبه ويمّم شطر بوسطن.

وفي جامعة لاهوت بوسطن طوّر لاهوته الخاصّ المختلف عن لاهوت والده المتزمّت والمغلَق، ولكنّه لم ينأَ عن جوهر الإنجيل، وكتب: "لا حاجة بنا إلى لاهوتٍ كي نعلم أنّ المحبّة هي قاعدة حياةٍ لا يمكن مخالفتها، والنجاة من عواقب تلك المخالفة. فالله هو حضورٌ عطوفٌ في كلّ إنسانٍ".

وتابع فصولاً دراسيّةً في هارڤارد حيث اطّلع على الفلاسفة الوجوديّين أمثال "كيركيغارد" و"هايدغر"، و"سارتر"...

وقد هيّأت له جامعة بوسطن ساحةً لنشر مفهوم اللاعنف، ولا سيّما أنّ عميد الجامعة ومعظم أساتذتها كانوا من دعاة السلام. وكان اثنان من أساتذته، في تلك

الجامعة قد زارا الهند والتقيا غاندي وتناقشا في جعل المحبّة التي بشّر بها يسوع أداة تحرّرٍ للهنود من الاستعمار البريطانيّ ولفئة المنبوذين، وللسود الأميركيّين من مظالم البيض المتطرّفين.

وبالإجمال لم تكن مبادئ اللاعنف الغانديّ غريبةً عن مفكّرين سودٍ أميركيّين. ففي عام ١٩٣٦ كان الأستاذ الجامعيّ القسّ "هاورد ثورمان" قد التقى في الهند غاندي، وتنبّأ هذا الأخير أنّ تجربة اللاعنف في آسيا وأفريقيا وأميركا، ستنتشر عالميًّا، وستوفّر للشعوب المضطهَدة التحرّر واستعادة الحقوق والكرامة المسلوبة. وكان غاندي قد أكّد لمناضلٍ أميركيٍّ أسود آخر أنّ الأميركيّين السود سينالون حقوقهم إذا هم جعلوا من اللاعنف سلاحهم، وأداة نضالهم.

ولم يغِب، قطّ، عن بال مارتن كينغ أنّ ممارسة اللاعنف ممارسةً صحيحةً تقتضي ضبط النفس ضبطًا محكمًا، وإيثار تحمّل العنف على ممارسته، فعلى اللاعنف والانضباط أن يسيرا يدًا بيدٍ، ولا يحقّقان غايتهما إلاّ بالتكاتف.

ورأى مارتن كينغ أنّ تلازم اللاعنف والساتياغراها هو صدًى لدعوة المناضل الأكبر، القدّيس بولس، الذي أكّد أنّ المحبّة (الأغابي) تكتسب قلب الخصم، وتقضي على نزعات الحقد والكراهية فيه.

واستخلص مارتن كينغ من تعاليم غاندي أنّ "اللاعنف ليس عزوفًا عن مقارعة الشرّ، بل هو المقاومة الأشدّ حزمًا. وهو أوفر جدوى من شريعة الردّ بالمثل، وشريعة السنّ بالسنّ". وكان غاندي يرفض حتّى فكرة وجود خصمٍ أو عدوٍّ. ولطالما أكّد أنّ سلاح اللاعنف لا يمتشقه إلاّ الأقوياء روحيًّا، الذين يقاومون، في ذواتهم، عطش الحقد والاثّئار. ولطالما اهتدى مارتن كينغ بقول غاندي: "لقد تخلّيتُ عن العنف يومَ تحرّرتُ من جبني. كافحوا ولكن لا تكرهوا".

اللاعنف، إذن، هو صراعٌ مستمرٌّ مع الذات، ومبدأٌ أخلاقيٌّ يقتضي الامّحاء الذاتيّ، ورفض نيّة إنزال الألم بالآخرين، لأيّ سببٍ. إنّه حربٌ بسلاح المحبّة والألم الطوعيّ.

وما انفكّ إيمان مارتن كينغ يترسّخ، يومًا فيومًا، بأنّ الكفاح بسلاح المحبّة هو السبيل إلى قيامة الفصح.

وجديرٌ بالتنويه أنّ المفكّر الأسود، والمناضل، القسّ "هاورد ثورمان" وهو من أوائل المتّصلين مباشرةً بغاندي، كانت تربطه أواصر صداقةٍ بذوي مارتن كينغ، فأغدق عليه المساعدات العلميّة والماديّة، ولطالما رحّب به على مائدته، وأنفقا ساعاتٍ من تبادل الآراء والرؤى.

وبالإجمال، اندرجت فترة دراسة مارتن كينغ الجامعيّة بنجاحٍ، واستحقّ تقدير أساتذته، وشرع في إعداد أطروحته. وقد أوجز هو تلك الفترة بقوله:

«عام ١٩٥٤ أنهيت تثقيفي الرسميّ، وفي أثنائه واجهت تيّاراتٍ فكريّةً متباينةً زوّدتني بفلسفةٍ اجتماعيّةٍ إيجابيّةٍ، كان أبرز بنودها أنّ اللاعنف هو سلاح المقموعين الأوفر جدوى، في سعيهم إلى الحصول على العدالة الاجتماعيّة. ولكن قناعاتي في هذا المضمار ما زالت ذهنيّةً، ولم أكن قد وطّنتُ العزم على استخدامها في عملٍ اجتماعيٍّ فعليٍّ».

مع أنّ مارتن كينغ كان مفكّرًا جادًّا، وتشغله، في المقام الأوّل القضايا الدينيّة، إلاّ أنّه لم يهمل نزعته إلى التمتّع بالحياة الاجتماعيّة، وسرعان ما أمسى صورةً للشابّ المتديّن العاشق للجميلات، في بوسطن. وكان الحيّ الذي يقطنه حافلاً بالبارات والنوادي، والمطاعم، وأماكن الرقص. وكان يسكنه اليقين بأنّ القسّ الصالح، في نظر الرعايا الجنوبيّة ينبغي أن يكون "ربّ أُسرةٍ" يهوى الاندماج في الحياة الاجتماعيّة.

وكان قد سبق له، أثناء دراسته في معهد كروزر، أن تعلّق بفتاةٍ بيضاء بادلته الحبّ، بخفيةٍ عن ذويها. وخشيةً من تطوّر علاقتهما إلى مرحلة اللاعودة، حذّر مارتن كينغ أصدقاؤه من مخاطر تلك العلاقة على رسالته الراعويّة، ولا سيّما في الجنوب العنصريّ. ومن جانبٍ آخر، لّما تناهى أمر تلك العلاقة إلى ذوي الفتاة، سارعوا إلى نفيها بعيدًا عن المدينة.

في هذه الأثناء كان والده قد اختار له فتاةً من معارفه في أتلانتا. ولكنّ مارتن الابن كان حريصًا على انتقاء شريكة حياته بنفسه. وكان قد التقى العديد من الفتيات، ولكن لم يشدّه إلى أيّةٍ منهنّ ميلٌ خاصٌّ، ولا قناعةٌ.

غير أنّ العناية الإلهيّة – التي غالبًا ما ندعوها صدفةً – جمعته بفتاةٍ تعشق الموسيقى تدعى "كوريتّا سكوتّ" (Coretta Scott). وهي ابنة مزارعٍ في مدينة "ماريون" القريبة من أتلانتا، تجلّت مواهبها الموسيقيّة باكرًا، وحصلت على منحةٍ دراسيّةٍ من أجل إكمال تأهيلها موسيقيًّا، في كونسرڤاتوار (المعهد الموسيقي) بمدينة بوسطن.

والدها كان عصاميًّا، محبًّا للآخرين، مستعدًّا دائمًا للخدمة. وقد نجح في تأسيس شركة نقلٍ صغيرةٍ، ومحطّة وقودٍ، ومؤسّسةٍ لتربية الدواجن، متحدّيًا تعدّيات منافسيه البيض الذين أوسعوه إهاناتٍ وأذًى.

أمّا والدتها فكانت أعمق روحانيّةً، وتفانيًا في سبيل أبنائها وأسرتها، وهي التي بثّت في نفس ابنتها كوريتّا، بمثالها وتعليمها، القِيَم الأخلاقيّة والروحيّة.

وفي بوسطن التقى مارتن كينغ الابن بكوريتّا سكوتّ التي فتنته بجمالها ورقّتها، وهدوئها، وحدّة ذكائها. واعترف مارتن كينغ أنّه كان قد التقى العديد من الفتيات،

من قبل، ولكنّه لم يشعر باندفاعٍ جارفٍ إلى أيّةٍ منهنّ، مثلما شعر حيال كوريتّا. وساهمت سيّدةٌ صديقةٌ لكليهما في تقريبهما. فاتّفقا على لقاءٍ. والغريب أنّها، في هذا اللقاء الأوّل، لم تأتِ على ذكر هوايتها الموسيقيّة، بل تحدّثت عن العدالة الاجتماعيّة، والآفة العرقيّة في أميركا، واتّضح انتسابها إلى جمعيّاتٍ تُعنى بهذه القضايا.

بعد ساعةٍ من تبادل الآراء، اعترف مارتن لكوريتّا: "أرى أنّك تملكين كلّ الصفات التي أتمنّاها في امرأةٍ، وعلينا أن نتزوّج ذات يومٍ".

يومها التقى الجوهرة التي حلم بها، مناضلةً ملتزمةً، وزوجةً تقاسمه همومه وتطلّعاته، مستعدّةً تلقائيًّا لمؤازرته. وفي ذلك اليوم عينه باح لوالدته: "كوريتّا ستكون زوجتي".

زواجهما عُقِد، يوم ١٨ حزيران ١٩٥٣، فوق مرج حديقة ذوي كوريتّا في مدينة "ماريون". وقد باركه مارتن كينغ الأب وقسّيسٌ آخر. وبعد سنين من عيشهما معًا ونضالهما المشترك، أوجز مارتن كينغ الابن مزايا وجود كوريتّا الثمين إلى جانبه، منذ يوم زواجهما الأوّل، فكتب:

«إنّ تفانيها هو، لي، منبع عزاءٍ دائمٍ، يساعدني على تخطّي كلّ الصعاب. ففي أشدّ اللحظات حَرَجًا وخطورةً، لم تفقد صوابها، ولم يستبدّ بها الهلَع. لقد أثبتت، طوال كفاحنا، أنّها أقوى منّي. لا ريب أنّ مخاوف تنتابها بشأني، ولكنّها لم تدع، قطّ، هذه المخاوف تعرقل نشاطي... في أحلك الحالات زوّدتني، دائمًا، بنور الأمل. وإنّي موقنٌ بأنّه لو لم تكن إلى جانبي امرأةٌ جريئةٌ وقويّةٌ، باردة الأعصاب، مثل كوريتّا، لما قويتُ على تخطّي محن حركة النضال، والتوتّرات الناجمة عنها».

لقد أدركت كوريتّا عظمة شأن النضال الذي كان يقوده زوجها، وأبدت إرادةً مدهشةً في التضحية من أجله.

لم تكن تطيق بعاده شبه الدائم عن البيت. وكان اهتمامها بأطفالهما الأربعة يقيّدها، غالبًا، في المترل. ولكن، حالما كانت تنعم بلحظة راحةٍ، كانت تسارع إلى تقديم الدعم له.

كانت بين حينٍ وآخر تلبّي مواهبها الموسيقيّة وتقدّم حفلاتٍ. ولكنّها كانت تعدّ نفسها، في المقام الأوّل، زوجة قسٍّ مناضلٍ، وأُمّ أربعة أطفالٍ. وكانت، بذكائها وعطفها، تعوّض عن غيابه المتمادي عن المترل، وبعاده عن أبنائه.

الجزء الثاني

القسّ المناضـــل

راعي كنيسة "ديكستر" في مونتغومري

بعد سنواتٍ طويلةٍ من الدراسة الجادّة، ظفر مارتن كينغ الابن بدبلوم دكتورا، وبقي عليه أن يدبّج أُطروحته. وفي هذه الأثناء كان عليه أن يعمل من أجل إعالة أُسرته الفتيّة. وتنازعَتْه رغبتان متباينتان: التعليم الجامعيّ، أو الرعاية الروحيّة. وعُرِضت عليه، في مجال التدريس، ثلاثة مناصب، وطُلِب منه في مجال الرعاية، رعاية كنيستَيْن إحداهما في "مسّاتشوسيتس" وأُخرى في ولاية نيويورك. وفيما هو كان يقلّب الرأي بين هذه الخيارات، وردته رسالةٌ من ممثّلي كنيسة "ديكستر" المعمدانيّة في مدينة مونتغومري، أحاطوه علمًا بخلوّ منصب راعيها، وبرغبتهم في سماع عظةٍ له، ذات يوم أحدٍ. ووعدهم بتلبية رغبتهم في مطلع السنة. وكنيسة "ديكستر" هذه كانت تنعم بتاريخٍ مجيدٍ، وسبق أن تولّى رعايتها قسّيسون عظامٌ. وكانت طاقات الرعاية فيها رحبةً.

وبعد ظهر يوم سبتٍ من شهر كانون الثاني ١٩٥٤، يمّم شطر مونتغومري وانتهى إليها بعد أربع ساعاتٍ. كان قد سبق له أن مرّ بها مرورًا خاطفًا، ولكنّه، في هذه النوبة توقّف فيها بضعة أيّامٍ، وعلم أنّها إحدى أعرق المدن الأميركيّة، وأنّها تُعَدّ مهد الاتّحاد الفيديراليّ، حيث رُفِع العَلَم الفيديراليّ الأوّل، إثر حرب الانفصال، (أو الحرب الأهليّة)، وفيها أقسَمَ "جيفرسون داڤيس" اليمين، بصفته رئيس الولايات الجنوبيّة المنضمّة إلى الاتّحاد الفيديراليّ. أمّا كنيسة "ديكستر"، المبنيّة بالآجرّ، أثناء عهد إعادة الإعمار الذي عقب الحرب الأهليّة، على مقربةٍ من وسط المدينة، فكانت تطلّ من إحدى زواياها، على الكاپيتول الرائع.

بُعَيْد وصوله اقتاده صديقٌ إلى تلك الكنيسة التي كان عليه أن يعتلي منبرها في اليوم التالي. ومع أنّ مارتن الابن كان قد اعتاد الوعظ، مدى أربع سنواتٍ، في كنيسة "إيبينيز" في أتلانتا، بصفته معاونًا لوالده، غير أنّ قلقًا اعتراه في هذه النوبة، وخالجه انطباعٌ بأنّه يؤدّي امتحانًا. واحتار في اختيار الأسلوب الكفيل بإقناع جمهوره واجتذابه، وأخيرًا قرّر أن ينسى مارتن كينغ، ويدع الله يتكلّم بلسانه، ونام تلك الليلة مرتاحًا.

ويوم الأحد، عند الساعة الحادية عشرة، اكتظّت الكنيسة، وكان موضوع عظته "الأبعاد الثلاثة لحياةٍ كاملةٍ". واستمع إليها الحضور بانتباهٍ ومتعةٍ.

وبعد ظهر ذلك اليوم، استوضحته لجنة الكنيسة هل يرضى تولّي رعايتها، في حال اتّخذوا قرارًا بهذا الشأن. فوعد بدراسة الأمر، وبالصلاة التماسًا لمشيئة الله. وغادر إلى أتلانتا، ومنها طار إلى بوسطن.

وبعد مضيّ شهرٍ استلم رسالةً مضمونةً من مونتغومري تؤكّد إجماع المسؤولين عن كنيسة "ديكستر" على تعيينه راعيًا لها. هذا النبأ أسعده للوهلة الأولى، ولكنّه سرعان ما أيقظ حيرته بين التعليم الجامعيّ، والرعاية الروحيّة، وبين رعاية إحدى الكنيستين المعروض عليه رعايتهما في ولايتَيْن شماليّتَيْن، أو رعاية كنيسةٍ في الجنوب حيث الفصل العنصريّ مستشرٍ وشرسٌ، وبالتالي تعريض ذاته وأُسرته للمخاطر.

وناقش في الأمر زوجته، التي وقعت، هي أيضًا، في براثن حيرةٍ ممضّةٍ. فأيّة مصلحةٍ لها في هجر الشمال حيث تتوفّر معاهد تمكّنها من إكمال تأهيلها الموسيقيّ، وممارسة مواهبها، فضلاً عن وجود مدارس جيّدةٍ لأبنائهما، وجوّ عيشٍ أوفر أمانًا.

صراعٌ نفسيٌّ حادٌّ خرج منه الواجب الأخلاقيّ منتصرًا. فقد اتّفق الزوجان على أنّ خدمتهما في الجنوب ستكون أوفر جدوى لمواطنيهم، وأبناء جلدتهم المضطهَدين. اعتزما، إذن، العودة إلى الجنوب، ولو لبضع سنواتٍ. فالجنوب هو موطنهما، والواجب يفرض عليهما السعي إلى تحسين أوضاعه، ومشاركة إخوانهم هناك بعض ما حصلوا عليه من علمٍ وانفتاحٍ، والمساهمة في تقويض قوانين "جيم كراو" المتشدّدة والوحشيّة.

تردّدت "كوريتّا" طويلاً، في العودة إلى جحيم الجنوب، وعنصريّته المتوحّشة، واضطرارها إلى العزوف عن الغناء والموسيقى، والتزامها المكوث في المنزل والعناية بتربية الأطفال، وفق التقاليد المفروضة على زوجة قسٍّ. غير أنّ إعجابها برجولة مارتن ساعدها على الإطاحة بكلّ هذه المخاوف. واعترفت: "لقد جعلني مارتن أشعر، أنّني امرأةٌ لأنّه كان، دائمًا، رجلاً حقًّا".

وكان مارتن كينغ يمنّي نفسه بإكمال أطروحته خلال الأشهر الأولى من رعايته لكنيسة "ديكستر"، والاستمرار في هذه الرعاية بضع سنواتٍ، ثمّ العودة إلى إرضاء رغبته في التدريس الجامعيّ. ولكن، حسب القول الشائع: "الإنسان يخطّط، والله ينفّذ" حسب ما يراه الأنسب.

ظاهريًّا بدت عودتهما إلى الجنوب ضربًا من الجنون، ولكنّها كانت، في الواقع، إيذانًا بعهدٍ جديدٍ لهما، ولمونتغومري، ولولاية ألاباما، ولجميع السود الأميركيّين، وللعالم أجمع.

ففي تلك الفترة، كانت المحكمة العليا الفيديراليّة قد أصدرت قرارًا ينصّ على أنّ لكلّ مواطنٍ أميركيٍّ، أيًّا كان لونه أو دينه، حقوقًا لا يمكن انتزاعها منه. ومن ثمّ كان هذا القرار إدانةً مبدئيّةً للتمييز العنصريّ بكلّ أشكاله. وقد نفّذته جزئيًّا،

بعض ولايات الشمال الأميركيّ. غير أنّ معظم ولايات الجنوب، ومنها ولاية ألاباما، حرصت على تجاهله، وعلى عنادها في تطبيق قوانين "جيم كراو" الموغلة في تشدّدها ووحشيّتها، وعنفها الإجراميّ.

ولكنّ وجود مارتن كينغ الابن في مونتغومري، أثبت أنّه كان محرّك تغييراتٍ عميقةٍ شاملةٍ.

في عظته الأولى، بصفته راعيًا، قال:

«إنّني أعي حدودي، في كلّ لحظةٍ، وأتبيّن أنّ شمس المعرفة الشاملة لم تغمرني قطّ، وأنّني لم أتعمّد في مياه القدرة الإلهيّة. أتيتكم بصفة خادمٍ للمسيح، موقنًا بخضوعي لنعمته من أجل أداء واجبي حيال هذه الرعيّة. ويعترينـي الشعور بأنّي دُعيتُ للتبشير، ولقيادة شعب الله».

ثمّ ما لبث أن استعاد نبرته النبويّة، فأردف:

«إنّ مباشرتي رعاية كنيسة ديكستر، في هذه الساعة الحاسمة من تاريخ العالم، مُثْقلةٌ بالمغزى. فعلينا، بطريقةٍ ما، أن نقدّم لجيلنا جوابًا. وعلى ديكستر، وعلى سائر الرعايا أن تكتشف أسلوبًا كي ترقى برجالٍ ونساءٍ جيلٍ منحطٍّ، إلى قمّة السلام والخلاص».

في هذه الأثناء كانت زوجته، كوريتّا، إعدادًا لإقامتهما في منطقةٍ غالبيّة سكّانها من السود، قد طافت في المدينة، وشاهدت الحافلات العامّة، ومقاعدها الأماميّة المخصّصة للبيض شبه خاويةٍ، فيما المقاعد الخلفيّة المخصّصة للسود مكتظّةٌ، والعديد من الركّاب واقفون. هالها ذلك المشهد، ولكنّها توسّمت فيه فُرَص تضحياتٍ وتفانٍ في خدمة الربّ.

وقد رحّبت الرعيّة بهما ووفّرت لهما ما يحتاجان إليه في إقامتهما.

ومنذ مباشرته رسالته، عقد القسّ الشابّ العزمَ على إحداث تغييرٍ في ذهنيّة الرعيّة، التي كانت تُعَدّ "جورب حريرٍ"، ولا تؤمّها سوى الطبقة الميسورة من السود. فسعى إلى قلب هذا الوضع رأسًا على عقبٍ، وجعل رعيّته بؤرةً اجتماعيّةً منفتحةً على كلّ الطبقات، تعيش التكافل والتضامن، في وحدةٍ يرعاها الله ويباركها. فقد كان يؤمن أنّ كلّ كنيسةٍ تحابي طبقةً معيّنةً تفقد القوّة الروحيّة، وتعجز عن تلبية طلب الربّ في أن يأتي إليه كلّ راغبٍ فيه، وتتحوّل إلى نادٍ، يصطبغ بلونٍ دينيٍّ باهتٍ.

وخلال أشهر رعايته الثلاثة الأولى، قرن إكمال أطروحته التي كان يخصّص لها ثلاث ساعاتٍ صباحًا، وثلاث ساعاتٍ ليلاً، وينصرف، في أثناء النهار إلى مهمّات الرعاية. وكان يقف يومًا، من كلّ أسبوعٍ على زيارة المرضى والمقعدين ومشاركتهم الصلاة.

في مطلع شهر نيسان ١٩٥٤ انتقل إلى دار الرعيّة المعدّة له ولأُسرته، وجهد في عقد علاقات صداقةٍ مع أبناء الرعيّة، التي تمّ تنصيبه رسميًّا عليها في نهاية شهر تشرين الأوّل، وتولّى هذا التنصيب والده الذي قدم من أتلانتا في موكبٍ ضمّ أكثر من مئة مؤمنٍ من رعيّة "إيبينيز"، وقد جاؤوا مثقلين بالهدايا، وعواطف التشجيع.

ومنذئذٍ، نشط في معالجة القضايا الاجتماعيّة الشائكة، بدءًا بحثّ جميع أبناء رعيّته على تسجيل أسمائهم في لوائح الانتخابات العامّة، وعلى دعم مؤسّسة "الاتّحاد الوطنيّ من أجل تقدّم الملوّنين" (NAACP)، وعلى عقد جلسات نقاشٍ وتبادل آراء في ما يتعلّق بقضايا السود. وكان حريصًا على تحذيرهم من الانزلاق إلى بغض البيض، مؤكّدًا أنّ محامين بيضًا يناضلون بشراسةٍ في سبيل تحقيق المساواة بين البيض والسود، وأنّ منهم رجال دين بيضًا، ومذكّرًا بأنّ "الاتّحاد الوطنيّ لتقدّم الملوّنين" أسّسه بيضٌ وما برحوا يدعمونه ماديًّا وحقوقيًّا، في الولايات الشماليّة والولايات الجنوبيّة، على السواء.

وقد انضمّ مارتن كينغ إلى مجلس إدارة "الاتّحاد الوطنيّ لتقدّم الملوّنين"، وبعد فترةٍ وجيزةٍ انضمّ إلى "مجلس ألاباما للعلاقات الإنسانيّة" الرافض لكلّ تمييزٍ عرقيٍّ، والذي يسعى إلى تحقيق هذا الهدف عبر أساليب الثقافة. وبعد مضيّ بضعة أشهرٍ على انتسابه إليه، انتُخب نائبَ رئيسٍ له. وقد سهّل له ذلك المجلس اللاعرقيّ إمكانيّة التواصل مع جميع الأعراق.

ولئن رأى البعض تناقضًا بين انتسابه إلى الاتّحاد الوطنيّ المؤمن بأنّ القضاء هو السبيل إلى تحقيق المساواة، وإلى مجلس ألاباما الذي ينتهج درب الثقافة سبيلاً إلى الهدف عينه، غير أنّ مارتن كينغ كان يرى أنّ السبيلَيْن متكاملان، وأنّ الخير هو في تكاتفهما.

صدمةٌ، وتنظيمٌ، وإصـــلاحٌ

باشر مارتن كينغ رسالته في مونتغومري بدراسة أوضاع المدينة الاجتماعيّة. ومنذ الوهلة الأولى، صَدَمه التباين الفاضح بين أحوال السبع مئة ألف شخصٍ أبيض، والخمسين ألف مواطنٍ أسود.

فمتوسّط دخل البيض هو ضعف متوسّط دخل السود. وفيما ٩٤% من مساكن البيض تحتوي ماءً جاريًا ومراحيض، تفتقر ٣١% من مساكن السود إلى هذه الضروريّات. ومع أنّ محكمة البلاد الفيديراليّة العليا، قد أصدرت قراراتٍ تمنع الفصل العرقيّ في مختلف المرافق العامّة، فقد تجاهلت سلطات مونتغومري تلك القرارات، وظلّ البيض والسود يسيرون في طريقَيْن متوازيَيْن يتعذّر تلاقيهما.

فلأبناء البيض مدارسُهم ولأبناء السود مدارسُهم والبوْن شاسعٌ بين هذه وتلك.

وإذا رغب ولدان صديقان أحدهما أبيض والآخر أسود استقلال سيّارة تكسي، وكان سائقها أبيض فهو يُصعِد الصبيّ الأبيض، وينطلق ويضطرّ الصبيّ الأسود إلى انتظار دور تكسي يقودها سائقٌ أسود. وحتّى إذا رغبا في استقلال حافلة نقلٍ مشتركٍ، فكلاهما يصعدان من الباب الأماميّ، ويدفعان ثمن تذاكرهما، ويجلس الولد الأبيض على مقعد في مقدّمة الحافلة، أمّا الولد الأسود فيترل ويصعد ثانيةً من الباب الخلفيّ، ويجلس على مقعدٍ خلفيٍّ، وإذا كانت كلّ المقاعد الخلفيّة مشغولةً، وتوجد مقاعد أماميّةٌ خاويةٌ، فعليه أن يظلّ واقفًا.

وكان السود الراغبون في تسجيل أسمائهم على لوائح الانتخابات العامّة، سواءٌ لترشيح ذواتهم، أو من أجل انتخاب مرشّحين متزّهين من التعصّب العرقيّ، يلاقون

عراقيل جمّةً، تحول دون تسجيلهم. فبناءً على تعليمات الرؤساء، كان الموظّفون المكلّفون بهذا التسجيل يسرفون في المماطلة، ولا يقبلون تسجيل اسم مواطنٍ أسود إلاّ بعد الفراغ من تسجيل جميع البيض، طالبي التسجيل. وبالتالي كان مئات السود يحضرون إلى مكاتب التسجيل باكرًا، وفي انتهاء مهلة التسجيل، في آخر النهار، لم يكن قد سُجِّل سوى نحو خمسة عشر فردًا منهم.

وفضلاً عن ذلك، كان يُفرَض على كلّ راغبٍ في ترشيح نفسه، الإجابة على مجموعةٍ من الأسئلة، ويُطلَب منه إعادة الإجابة عليها، مرّةً إثر مرّةٍ حتّى يسأم ويعزف عن التسجيل.

هذه الآفات ومثيلاتها الكثيرة من المظالم الاجتماعيّة، وضعها مارتن كينغ في أولويّات اهتماماته، إلى جانب الرعاية الروحيّة. وعكف على وضع برنامجٍ لمواجهتها. فوسّع رقعة النشاطات الراعويّة، وابتدع العديد من اللجان الجديدة، منها:

- لجنة بثّ روحٍ جديدٍ في التعليم الدينيّ.
- لجنة الخدمة الاجتماعيّة.
- لجنة تأمين مِنَحٍ للطلاّب.
- لجنةٌ ثقافيّةٌ تدعم المواهب الفتيّة.
- لجنةٌ لمساعدة المواطنين السود على تسجيل أسمائهم في اللوائح الانتخابيّة العامّة.
- وسواها...

وربّما تساءل القسّ الشابّ عن مدى تقبّل الرعيّة لهذه التجديدات غير المألوفة. غير أنّ الرعيّة أدهشته بإجماعها على الترحيب بها، وأظهرت له أخلص النوايا والرغبة في التعاون. وبرهنت اللجان جميعها عن تقدّمٍ مذهلٍ ومتواترٍ. وسرعان ما ازداد عدد أفراد الرعيّة.

وفيما كان عدد أسماء السود المسجّلين على لوائح الانتخابات العامّة، في العقد السابق، لا يتخطّى الألفين، ارتقى في عهد مارتن كينغ إلى خمسين ألفًا. وهو لم يكفّ عن حضّ أبناء رعيّته على التسجيل بكثافةٍ، مستعينًا بشخصيّاتٍ تمتلك خبرةً في هذا المضمار. وصدرت بإشرافٍ منه نشرةٌ أسبوعيّةٌ تبيّن مستجدّات القضايا الاجتماعيّة والسياسيّة الكبرى التي تهمّ المواطنين السود. وقد أسهمت هذه المبادرات مساهمةً فعّالةً في حصول السود على حقوقهم تدريجيًّا. وأخذت تبرز أسماء رجالٍ سودٍ احتلّوا مراكز نفوذٍ مرموقةً. وسرعان ما حذت رعايا أخرى حذوَ رعيّة ديكستر، وانضمّت إلى "الاتّحاد الوطنيّ لتقدّم الملوّنين".

كان مارتن كينغ عضوًا في مجلس إدارة كلٍّ من "المؤتمر الوطنيّ لتقدّم الملوّنين" وفي "مجلس ألاباما للعلاقات الإنسانيّة"، اِنطلق من مبدأ "جميع البشر وُلدوا متساوين أمام الله". وأقرّ أنّ لكلّ مواطنٍ الحقّ في الانتفاع من جميع الفُرص المتاحة، ولا يجوز لأحدٍ الحدّ من هذا الحقّ. فسمحت له، تلك العضويّة الثنائيّة، الاطّلاع عن كثبٍ على المظالم التي كانت ترتكبها المحاكم المحلّيّة.

ففي هذه الأثناء كانت قد هزّت المجتمع قضيّة شابٍّ موسيقيٍّ أسود في السادسة عشرة من سنيه، اتّهم، بهتانًا، وكيدًا، باغتصاب فتاةٍ سوداء، فقُضي عليه بالإعدام، ورغم معارضة المحكمة العليا لهذا الحكم، تمّ إعدامه. وفي الآن عينه أقامت عشرات أُسر السود دعاوى على شبّانٍ بيضٍ اغتصبوا، جهارًا، فتياتٍ سوداواتٍ، فأُوقِف قلّةٌ من المتّهمين، أيّامًا معدوداتٍ، ثمّ أُطلِق سراحهم إثر محاكماتٍ هزليّةٍ. وتجلّى مدى استهتار محاكم البيض المحلّيّة بالعدالة.

ومن جانبٍ آخر لاحظ مارتن لوثر كينغ، لدى جماعة السود ثغراتٍ لا بدّ من ردمها، وعيوبًا تستلزم إصلاحًا. فلا وحدة ولا تجانسَ بين قادتهم. ومع أنّ هدفًا واحدًا كان يجمعهم، كانت أنانيّاتهم تحول دون قدرتهم على النهوض بعملٍ مشتركٍ.

وقد ضاعفت حدّة هذه الفرقة لامبالاة المفكّرين السود حيال معاناة أبناء جلدهم، وغيابهم عن الاجتماعات الهادفة إلى إصلاح ذات البَيْن في ما بينهم، وإلى توحيدهم. ولكأنّ أولئك المفكّرين كانوا راضين عن الوضع الراهن.

وزاد الطين بلّةً تخاذلُ العديد من القساوسة السود. صحيحٌ أنّ قلّةً منهم برهنوا عن اندفاعٍ في الدفاع عن القضايا الاجتماعيّة، وحقوق رعاياهم المسلوبة، وفي استنكار التدابير التي تُذِلّهم؛ غير أنّ عددًا وفيرًا منهم كانوا يأبون تلطيخ أيديهم بما كانوا يعدّونه شؤونًا مادّيّةً، بذريعة أنّ مهمّتهم هي التبشير بالإنجيل، لا غير، مثبتين أنّ فهمهم للإنجيل ناقصٌ وضيّق الأفق.

والأنكى أنّ السواد الأعظم من السود الأميركيّين كانوا مستسلمين لقدَرهم الغاشم، ومستكينين له. وكان سَلَف مارتن كينغ في رعاية كنيسة ديكستر قد روى له أنّه استقلّ، ذات يومٍ، باصًا، وجلس على مقعدٍ في الجزء الأماميّ المخصّص للبيض، فأمره السائق بالانتقال إلى الخلف، فرفض وآثر مغادرة الباص بعد استعادة ثمن تذكرته. وقبل نزوله من الباص التفت إلى الركاب السود الجالسين على المقاعد الخلفيّة، وأهاب بمن أراد أن يغادر الباص تضامنًا معه، وتعبيرًا عن احتجاجٍ، ولكن لم يتحرّك أحدٌ منهم. ولّما عاتب، لاحقًا، أفرادًا منهم، آخذًا عليهم جبنَهم، أجابوه أنّه استحقّ ما حلّ به لأنّه خالف النظام العامّ. وكان عذرهم الأساسيّ أنّهم يعملون لدى بيضٍ، ويخشون فقدان وظائفهم، إذا تمرّدوا، علنًا، على نظام الفصل العنصريّ.

كان الفصل العنصريّ، إذن، قد ولّد لدى السود شعورًا مكتومًا بالغضب والضيق، فقد كانوا موقنين أنّهم يستحقّون وضعًا أوفر عدالةً، ومع ذلك، كان النظام المفروض عليهم قد ولّد لديهم مركّب نقصٍ نخَرَ نفوسَهم، وأودى بهم إلى فقدان احترامهم لذواتهم، فاستسلموا، مُكرَهين، لواقعٍ ترفضه نفوسهم.

وبالإجمال لم يقتصر نظام الفصل العرقيّ على تدمير أجسادهم وإجهادها، بل أفضى إلى تدمير نفسيّاتهم.

السقم الثلاثيّ الذي لحظه مارتن كينغ، في فُرقة القادة السود الخرقاء، ولامبالاة المثقّفين، وسلبيّة الجموع، كان يُفقِد الأمل بإحداث تغييرٍ، وفي الآن عينه، رسّخ يقينه بضرورة توعيةٍ فوريّةٍ ومؤثّرةٍ.

وبتأثير وجوده في مونتغومري، شرع يظهر للعيان استياءٌ دفينٌ، سعّر ناره رجالٌ مقدامون، انطلقوا، ببسالةٍ، يوقظون وعي الجماهير. تكلّموا جهارًا، في حين صمت الآخرون جبنًا؛ وأبدوا مواقف جريئةً، في حين كبتها آخرون خوفًا وتحفّظًا. وكان أحد هؤلاء البواسل قسًّا ضمّن عظاته، يوم الأحد، تنديدًا قاسيًا بجبن أصحاب الشهادات الجامعيّة العليا التي تفرض على حامليها احترام ذواتهم، مؤكّدًا أنّ تسوياتهم الخسيسة، وخضوعهم للظلم، يعني أنّهم لا يستحقّون العدلَ.

حتّى عام ١٩٥٤ كان السلم يبدو مخيّمًا على مدينة مونتغومري، وكان ثمن هذا السلام استعباد قسطٍ واسعٍ من سكّانها بسبب سواد بشرتهم. غير أنّ ثورةً كمينةً كانت تتهيّأ للانفجار.

وقد عاتب رجلٌ أسود، يومًا، مارتن لوثر كينغ، قائلاً: "لطالما عِشنا مع محيطنا في تناغمٍ، فلمَ أنت وأصدقاؤك تُفسِدونه؟" فأجابه القسّ: "يا سيّدي، أنتم لم تعهدوا، قطّ، سلامًا حقًّا في مونتغومري. بل تمتّعتم بضربٍ من السلم السلبيّ، حيث يخضع الإنسان الأسود، غالبًا، لواقع دونيّته. وهذا ليس سلامًا. فليس السلام مجرّد عدم وجود توتّر، بل هو وجود العدل. وإنّما التوتّر الذي نشعر به في هذه المدينة هو توتّرٌ ضروريٌّ، ينشأ يوم يثور المقموعون، ويهبّون لاكتساب سلامٍ إيجابيٍّ دائمٍ". واستشهد مارتن كينغ بقول يسوع: "لم آتِ كي أُلقيَ سلامًا بل

سيفًا". فمن المؤكّد أنّ الربّ لم يعنِ سيفًا مادّيًّا". بل كان يعني: "لم آتِ كي أرسّخ السلام التقليديّ السلبيّ، القائم على سلبيّةٍ مميتةٍ، بل إنّي جئتُ كي أنتفض على هذا النمط من السلام. وحيثما وُجدتُ، سينشب خلافٌ بين القديم البالي والجديد البنّاء، وسينتفض العدل على الظلم. جئتُ كي أُحِلّ سلامًا إيجابيًّا يتمثّل في سيادة العدل، والحبّ، وملكوت الله". السلام الذي كان باسطًا سلطانه في مونتغومري كان، إذن، خاليًا من أيّ طابعٍ مسيحيٍّ، وكان سلامًا وثنيًّا باهظ الثمن.

وكانت حافلات النقل العامّ هي الشاهد الأبلغ على الظلم الذي يرسف في قيوده مواطنون سودٌ. وفيه يتذوّقون، كلّ يومٍ، مرارة ذلّ الفصل العرقيّ.

فلم يكن يُسمَح لسائقٍ أسود أن يقود حافلةً. وقلّما وُجد سائقون بيضٌ مهذّبون، بل كان معظم السائقين البيض يُنتَخَبون من أكثر خلق الله فظاظةً وسفاهةً، وممّن لا يتحرّجون من مخاطبة الركّاب السود بعباراتٍ مسفّةٍ، واصفينهم بالزنوج (النيغرو) القذرين، وبالأبقار السوداء، أو القرَدَة السوداء. وكان على الراكب الأسود أن يدفع للسائق ثمن تذكرته عند الباب الأماميّ والنزول ثمّ الصعود من الباب الخلفيّ. وكان بعض السائقين، إمعانًا، في السفالة وانعدام الأخلاق، يسارعون إلى الانطلاق قبل تمكن الراكب الذي دفع ثمن تذكرته من الصعود.

وحتّى إذا كان المكان الخلفيّ المخصّص للسود مكتظًّا، والمقاعد المخصّصة للبيض خاليةً، كان الركّاب السود الذين لم يجدوا مقعدًا خاليًا في الجزء الخلفيّ المخصّص لهم، يُكرَهون على البقاء واقفين إلى جانب مقاعد البيض الخاوية. ولكن إذا لم يجد راكبٌ أبيض مقعدًا خاويًا في القسم المخصّص للبيض، فكان يحقّ له إزاحة أيّ راكبٍ أسود من المكان المخصّص للسود، واحتلال مكانه.

وبُعَيْد وصول مارتن كينغ إلى مونتغومري، اتّفق أنّ راكبًا أبيض أمر طالبةً سوداء في الخامسة عشرة أن تخلي له مكانها، فرفضت. واستُدعيت الشرطة التي أكرهت الفتاة على مغادرة الباص، مكبّلة اليدين، وسُجنت.

هذه الفضيحة سعّرت غضب السود الدفين، وأيقظت كرامتهم المسلوبة. وأُلّفت لجنةٌ من السود مهمّتها مقابلة مدير خطوط الحافلات في المدينة ومطالبته بالحفاظ على حقوق كلّ فئةٍ من المواطنين بمقاعدها، وإلزام السائقين بالتزام احترام الجميع سواسيةً. وكان كينغ أحد أعضاء هذه اللجنة التي قابلت، أيضًا، قائد الشرطة للغرض عينه. ووعد كلٌّ من مدير الحافلات وقائد الشرطة، بإصلاح التجاوزات ووضع حدٍّ لها. ولكنّ وعودهما كانت نفاقًا، وهباءً منثورًا، واستمرّت الأوضاع على سوئها.

وحدَثَ حينئذٍ، تحوّلٌ جوهريٌّ، وانفجر الغضب الذي طالما كبَتَه السود وحلّت عندهم الجرأة والشعور بالكرامة محلّ التخاذل والخوف، وقرّر خمسون ألف مواطنٍ أسود، في مونتغومري، مقاطعة الحافلات واستخدام أقدامهم عوضًا عن استقلال وسائل نقلٍ يوسَعون فيها مهانةً وإذلالاً.

ما لبث أن جرى حَدَثٌ دعم هذا القرار، وسرّع تنفيذه.

توقيفٌ حاسمٌ

في اليوم الأوّل من شهر كانون الأوّل، عام ١٩٥٥ ، كانت خيّاطةٌ سوداء، تدعى "روزا باركس"، عائدةً إلى بيتها، إثر يوم عملٍ شاقٍّ، قضته، منتصبةً على قدمَيها، في متجرٍ، يقع في مونتغومري، وكانت تجلس على مقعدٍ، في الصفّ الأوّل، المخصَّص للسود، خلف القسم المخصّص للبيض، والمكتظّ بالركّاب. وإذ بسائق الباص يأمرها والركّاب الثلاثة الجالسين بالقرب منها، بإخلاء أماكنهم كي يجلس عليها راكبٌ أبيض، صعد في تلك اللحظة إلى الحافلة، ولم يجد له مكانًا في قسم البيض. وامتثل الركّاب الثلاثة الجالسون بالقرب من السيّدة روزا لطلب السائق، أمّا هي فرفضت، إذ لم يوجد أيّ مكانٍ خالٍ في الحافلة التي كانت تقوم برحلتها الأخيرة بين الضاحية والمدينة.

وأُلقي القبض على السيّدة روزا. وأشاع البيض أنّه قد زُرِعت في هذا المكان بقصد إحداث بلبلةٍ، بحجّة أنّها عملت، سابقًا، سكرتيرةً للمؤتمر الوطنيّ لتقدّم الملوّنين، وأسهبوا في تأكيد هذا الاتّهام، بحيث صدّقه عددٌ من الصحافيّين الذين تقاطروا من شتّى الولايات لتغطية الحدث. وأوحى مختلقو اتّهامها، بأنّ رفضها إخلاء مقعدها كان يستهدف دعم مشروع مقاطعة الحافلات الملتزمة بالفصل العرقيّ.

والواقع أنّ رفضها لم يكن إلاّ تعبيرًا عن ضيقها ممّا تتحمّله، يوميًّا، من تعبٍ وإذلالٍ، في سبيل إطعام أولادها. لم يكن رفضها استجابةً لتوجيه أيّة مؤسّسةٍ أو جماعةٍ، ولم يكن له دافعٌ سوى ضيق ذرعها بتراكم إهانات الماضي، ونشدانها الكرامة والحرّيّة، وتطلّعها إلى مستقبلٍ يليق بإنسانيّتها وأولادها. كانت ضحيّة روح عصرها، ممزّقةً بين قوى التاريخ وقوى القدَر. وكانت معدّةً للدور البطوليّ الذي أسنده إليها

التاريخ، فقد كانت فاتنة الخَلق، سامية الخُلُق، مشرقةً، تتكلّم بهدوءٍ، محتفظةً، دائمًا، بسيطرتها على ذاتها. وفضلاً عن ذلك كانت راسخة الاقتناع بصواب قضيّة السود، فاستأهلت أن تكون أكثر السود استحقاقًا للاحترام.

حدث ذلك مساء يوم خميسٍ، وسارع زعيمٌ أسود يُدعى أ. د. نيكسون فدفع كفالة لأجل إخلاء سبيلها. ولكن ما عتّم أن شاع نبأ اعتقالها، وناقشه المجلس السياسيّ النسائيّ، وإثر مداولاتٍ هاتفيّةٍ كثيفةٍ، قرّر المجلس مقاطعة السود لحافلات النقل العامّ.

وصباح اليوم التالي اتّصل الزعيم نيكسون المذكور أعلاه بمارتن كينغ وبلا مقدّماتٍ، روى له ما حدث مساء الأمس، وانتهى إلى القول: "أعتقد أنّ الأوان قد حان لكي نقاطع الحافلات. فهذه المقاطعة وحدها كفيلةٌ بأن تظهر للبيض تصميمنا على رفض المهانة، بعد الآن".

وبُلِّغ هذا القرار إلى القسّ الشابّ "رالف أبيرناتي" (R. Abernaty) الذي سيصبح أحد أقرب معاوني مارتن كينغ، وتبادل ثلاثتهم الآراء في أساليب تنفيذ الإضراب. وفي مساء ذلك اليوم عينه، بُلِّغ جميع قساوسة مونتغومري فحوى هذا القرار وطُلِب منهم تعميمه على رعاياهم، وبُلِّغت به، أيضًا، التجمّعات المدنيّة في المدينة.

وقبل ظهر ذلك اليوم كان نبأ توقيف "روزا پاركس"، قد شاع في المدينة كلّها، وانطلقت الهواتف ترنّ بلا انقطاعٍ، وانبرى متطوّعون لطباعة منشوراتٍ تدعو إلى مقاطعة شركة الحافلات المحلّيّة، ووزّعوا هذه المنشورات على جماعات السود.

ولّما دنا موعد الاجتماع، كان مارتن يتساءل، قلقًا، عن عدد المستجيبين للدعوة، ولكنّ مفاجأةً عذبةً سرعان ما بدّدت قلقه. فمع البرد القارس الذي ساد

تلك الليلة الشتويّة، كان جميع المسؤولين قد احتلّوا أماكنهم. نحو أربعين شخصيّةً تمثّل معظم طبقات الجماعات السوداء، التأموا في صالة كنيسته الكبرى، ولحظ بينهم أطبّاء، ومحامين، وموظّفين، ورؤساء نقاباتٍ، ورجال دينٍ. ولم يغِب أيّ ممثّلٍ عن فئةٍ سوداء.

وأسعدته، في المقام الأوّل، كثافة حضور رجال دينٍ، طالما أحزنه تخاذلهم، وعزوفهم عن الاهتمام بحقوق رعاياهم المدنيّة. وحينئذٍ، اعتراه إحساسٌ بأنّ أمرًا جللاً سيحدث، وأنّ السود سينتقلون، أخيرًا، من مرحلة الأقوال إلى مرحلة الأفعال. وقد تعهّد جميع القساوسة، بلا اعتراضٍ ولا استفسارٍ، بدعوة رعاياهم إلى مقاطعة الحافلات العامّة، في كنائسهم، يوم الأحد التالي.

كان مقرّرًا أن يبدأ الإضراب عن استقلال الحافلات، يوم الإثنين، وأن يُعقَد اجتماعٌ في كنيسةٍ فسيحةٍ، مساء ذلك اليوم، من أجل الاتّفاق على مدّة الإضراب، والتدابير اللاحقة. وتألّفت، لهذه الغاية، لجنةٌ أصدرت البيان التالي:

«لا تستقلّوا الحافلات يوم الإثنين، الخامس من كانون الأوّل، فقد اعتُقِلت امرأةٌ سوداء لأنّها رفضت التنازل عن مقعدها من أجل إجلاس راكبٍ أبيض. استعيضوا عن الحافلات بسيّارات تكسي عموميّةٍ، أو اطلبوا من سائقٍ مارٍّ إيصالكم إلى هدفكم، أو استخدموا أقدامكم بقدر استطاعتكم، واحضروا الاجتماع الذي سيُعقَد، عند الساعة السابعة من مساء الإثنين في كنيسة "هوت ستريت" المعمدانيّة، حيث ستتلقّون التعليمات».

وتسهيلاً لتنفيذ الإضراب المقرّر، طلب المسؤولون السود من شركات تكسياتٍ يمتلكها سودٌ، نقل السود المضربين عن استقلال الحافلات، بأسعار الحافلات.

وبعد توازُع المسؤولين السود المهمّات، وفيما كانت الساعة تشير إلى منتصف الليل، توقّع كلٌّ منهم الاستيقاظ على فجرٍ واعدٍ جديدٍ.

منذ صباح اليوم التالي، وُزّعت آلاف المنشورات الداعية إلى مقاطعة الحافلات. وأبدت جميع شركات التكسي التي يمتلكها سودٌ حماسًا واندفاعًا، وتضحياتٍ، مرتضيةً نقل العمّال السود إلى عملهم وإعادتهم مساءً إلى منازلهم بمثل سعر بطاقات الحافلات.

وحدث ما أطلع جميع السود، مجّانًا، على واجب مقاطعة الحافلات. فقد تلقّت سيّدةٌ سوداء تعمل خادمةً في منزل سيّدةٍ بيضاء، منشورًا، لم تفهم محتواه، فسألت موظّفتها أن تفسّره لها. وسارعت هذه إلى نقل محتواه لصحيفةٍ محلّيّةٍ واسعة الانتشار، بقصد إحاطة البيض علمًا بالمؤامرة التي كان السود يحيكونها لهم. وجعلت الصحيفة من ذلك المنشور عنوانها الرئيس البارز، فقدّمت، من حيث لم تقصد، خدمةً جُلّى للسود الذين لم يكونوا قد علموا، بعد، بالدعوة إلى الإضراب.

وفي مساء يوم الأحد المُثقَل بالتعب، طالع مارتن كينغ مقالاً في صحيفةٍ، قارن فيه كاتبُه بين مقاطعة السود للحافلات العامّة، والأساليب اللاشرعيّة التي يلجأ إليها البيض من أجل مخالفة القوانين القاضية بالاندماج، وإنهاء الفصل العرقيّ. وتساءل كاتب المقال هل المقاطعة تتوافق مع تعاليم الإنجيل، وهل هي وسيلةٌ سليمةٌ، أخلاقيًّا، حتّى إذا أفضت إلى نتائج حميدةٍ؟!

سؤالٌ ضميريٌّ حادٌّ استحوذ على ذهن مارتن كينغ، وانتهى به إلى اليقين بأنّ أساليب البيض تعمد إلى تجويع السود، وإفقارهم، بغية إخضاعهم لظلمهم. أمّا العمل الذي كان يقوده مع رفاقه فخطأه الوحيد هو تسميته بالمقاطعة، فالمقاطعة

هي ضربٌ من الضغط الاقتصاديّ الهادف إلى إيذاء الغير، بغية إخضاعه لنوايا أنانيّةٍ. أمّا هو ورفاقه فكانوا يبتغون دفع مضطهِديهم على الإقلاع عن مخالفة القوانين الفيديراليّة، والكفّ عن الاحتقار والإهانة لشطرٍ عريضٍ من مواطنيهم، والرجوع بهم إلى ممارساتٍ عادلةٍ.

وترسّخ لديه اليقين بأنّ استمرار السود في الخضوع لممارسات البيض اللاأخلاقيّة، والمخالفة للقوانين، هو مساهمةٌ في الشرّ، وأنّ ما يقومون به ليس سوى إعلان عزمهم على رفضهم الاستمرار في الخضوع لنظامٍ شرّيرٍ فاسدٍ، فارتضاء الشرّ عملٌ سلبيٌّ لا يقلّ وزْرًا عن ارتكاب الشرّ. ومن يرى الشرّ ولا يعترض عليه، يساهم فيه. والمظلوم الذي يستكين لظالمه صامتًا يوفّر له مبرّرًا للاستمرار في ظلمه. وعندئذٍ، قرّر استبدال لفظة "المقاطعة" بعبارة "اللاتعاون".

اليوم الكبير: ١٩٥٥/١٢/٥

أمام منزل مارتن كينغ، كان موقف حافلاتٍ، فتمكّن هو وزوجته من مراقبة الحدَث عن قربٍ. استيقظا باكرًا، ووقفا يراقبان. وفي الساعة السادسة، توقّف باصٌ اعتاد نقل عمّالٍ سودٍ إلى أماكن عملهم، وكان يأتي، كلّ يومٍ مكتظًّا بالركّاب، فإذ به خالٍ تمامًا من أيّ راكبٍ. وتلته حافلةٌ أخرى، على المنوال عينه. وكانت الحافلة الثالثة تقلّ راكبَيْن أبيضَيْن، لا غير.

نجاح الخطّة بدا تامًّا، ولكأنّه تمّ بمعجزةٍ. وكان فرح الزوجَيْن كينغ عارمًا.

وهكذا مضى النهار كلّه. وحتّى في عزّ وقت الازدحام، وقت عودة العمّال والخدَم إلى بيوتهم، لم يمتطِ راكبٌ أسود حافلةً عامّةً، وحتّى الطلاّب السود عادوا من مدارسهم، مشيًا على أقدامهم، وهم يُنشدون، واستعان بعضٌ منهم بسائق تكسي أسود مارٍّ. واستعادت بعض عربات خيلٍ قديمة ظهورها.

وغصّت الأرصفة بالذاهبين إلى عملهم مجتازين، أحيانًا، ثمانية عشر كيلومترًا، ثمّ عائدين منها مساءً، مجتازين المسافة عينها، ومنهم من كانوا قد تخطّوا مرحلة الشباب، ومع ذلك كانوا يفخرون بما يتحمّلونه دفاعًا عن حقوقهم وكرامتهم، فلا شيء أعظم من التضحية والتألّم في سبيل الحقّ والكرامة.

وكان شبّانٌ طائشون يسخرون بسائقي الباصات الخاوية ويسألونهم مستهزئين: "ألا ركّابٌ اليوم؟". فغدت كلّ حافلةٍ تعبر في حيٍّ يقطنه سودٌ، يرافقها شرطيّان درّاجان، لأنّ شركة الحافلات ادّعت أنّ السود ألّفوا، في أحيائهم، عصاباتٍ، تمنع الركّاب، بالقوّة، من استقلال حافلاتهم. ولكنّ الشرطة لم تعثر على أيّة عصابةٍ من هذا النوع المزعوم.

في هذه الأثناء صدر حكمٌ يُدين السيّدة "روزا پاركس"، التي استأنفت الحكم، واستند الاستئناف على بطلان نظام الفصل العرقيّ ولاشرعيّته.

وارتأى قادة السود تنظيم حركة تنسيقٍ بين جماعات السود المختلفة. فقد كانوا كلّهم مذهولين حيال نجاح الإضراب، ولكنّهم ما انفكّوا يتساءلون عمّا يجب فعله، بعد ذلك. واقترح أحدهم تكليف مارتن لوثر كينغ برئاسة لجنةٍ تتابع الحملة، فلاقى هذا الاقتراح تأييدًا حماسيًّا من الحاضرين، وفي الحال انتُخِب كينغ رئيسًا لتلك اللجنة بالإجماع. وهو، في غمرة الاندفاع العامّ، قَبِل المنصب، ولم يهب نفسه فسحة رَوْز مسؤوليّة هذا القبول، مع أنّه كان قد رفض، قبل أسابيع، منصب رئاسة "الاتّحاد الوطنيّ لتقدّم الملوّنين"، لأسبابٍ شخصيّةٍ وراعويّةٍ. ومع ذلك فوجئ بترحيب زوجته بقبوله هذا المنصب، الذي رأت فيه واجبًا وطنيًّا.

وبسرعةٍ تألّف مكتب اللجنة، ضامًّا قساوسةً بارزين، وأساتذةً جامعيّين، ومعلّمين، ورجال أعمالٍ، وحقوقيّين. واتّخذت اللجنة اسم "الاتّحاد من أجل تقدّم مونتغومري" (MIA). وقرّر مكتبها متابعة اللاتعاون مع شركة الحافلات، إلى أن تتحقّق مطالب أساسيّةٌ، أكبّت لجنةٌ خاصّةٌ على تحديدها.

وهرع مارتن كينغ إلى منزله كي يُعِدّ الخطاب الذي عليه إلقاؤه بعد قليلٍ، وكان يَعُدّه من أخطر خطاباته شأنًا في تلك المرحلة. ولم يكن له متّسعٌ لإعداده سوى عشرين دقيقةً، في حين كان يخصّص من أجل إعداد عظته الأسبوعيّة لا أقلّ من خمس عشرة ساعةً. ولم يغرب عن باله الجمهور المضطرم حماسًا، الذي يواجه مرحلةً مصيريّةً، وتحدوه إرادةٌ طاغيةٌ في انتزاع حرّيّته وكرامته من مواطنين له سلبوهما منه ظلمًا وافتئاتًا. ولم يغِبْ عن ذهنه العديد من الصحافيّين الذين سيكونون حاضرين، ومتأهّبين لتسجيل كلّ كلمةٍ من كلماته كي ينشروها على

امتداد الولايات المتّحدة. هذه الخواطر والهواجس التهمت خمسًا من الدقائق العشرين المتاحة له. وطفق الخوف يهيمن عليه، ويشيع الظلام في ذهنه. ولكنّه لم يفقد إيمانه الوطيد بقدرة الله على مؤازرته، واستغرق في الصلاة مستلهمًا الروح القدس، وملتمسًا منه هدوء النفس، وعدم التخلّي عنه في الوقت الذي كان في أشدّ حاجةٍ إلى هذا الدعم.

ولّما قارب اكتمال موادّ خطابه في ذهنه، أوشكت خاطرةٌ طارئةٌ محيّرةٌ تجمّده، تمثّلت في القَرن بين إبقاء جذوة الحماس الجماهيريّ مضطرمةً، والدعوة إلى نبذ الحقد والكراهية والالتزام بمبادئ المحبّة المسيحيّة، وبالإجمال الجمع بين الدعوة إلى النضال الجريء والالتزام بالاعتدال وضبط النفس. وانتهى إلى قرار جمع المتناقضات وتذكير مستمعيه بأنّ نضالهم هو تأكيد حقِّ كلّ إنسانٍ بالاحترام، وبأنّ الرضوخ للظلم بلا اعتراضٍ هو خيانةٌ للكرامة الإنسانيّة، ومخالفةٌ لمشيئة الله، مع التذكير، في الآن عينه، بواجب المحبّة المسيحيّة. وكان وقت الاجتماع قد حان، فهرع إلى الكنيسة، ولكنّه لم يستطع الوصول إليها بسيّارته، لأنّ الطرقات كانت مسدودةً بآلاف السيّارات، وبعدّة آلافٍ من الذين اضطرّوا إلى الوقوف خارجًا، بهدوءٍ وسرورٍ. فكانت قد أُعِدّت من أجلهم مكبّرات صوتٍ عديدةٌ، لكيلا يفوتهم شيءٌ ممّا يجري في الكنيسة. فتابع مسيرته إلى الكنيسة، مشيًا، مخترقًا، بمشقّةٍ، أمواج الجموع المحتشدة، فيما كانت، في الجوار، سيّارات الشرطة تروح وتجيء، بلا هوادةٍ، ناشرةً في الأجواء ألوانها المتعدّدة. هذا المنظر رسّخ يقينه بأنّ جماهير السود لم تفقد رجاءها في تغيير مصيرها، والانعتاق من الظلم والإذلال. وتيقّن من نجاح الحملة التي كان يقودها، وتبدّد، لديه، كلّ خوفٍ من الفشل.

بسبب الازدحام الشديد، بدأ الاجتماع، متأخّرًا نصف ساعةٍ عن موعده، بنشيدٍ حماسيٍّ، وبصلاةٍ جماعيّةٍ، ثمّ دعا رئيسُ الاجتماع القسَّ كينغ إلى المنبر،

فاعتلاه وسط تصفيقٍ مدوٍّ. وأشعلت كاميرات التيليفزيون أضواءَها من كلّ صوبٍ، وصمت الجمهور. واستهلّ مارتن كينغ خطابه مذكّرًا بتوقيف السيّدة "روزا باركس" وسجنها، وإدانتها، لأنّها رفضت إخلاء مكانها، في حافلةٍ، كي يجلس عليه راكبٌ أبيض لم يجد له مكانًا في القسم المخصّص للبيض. واسترسل في سرد سلسلة الإهانات التي ما انفكّت تطال المواطنين السود، عند استقلالهم الحافلات العامّة، التي تمارس الفصل العرقيّ، مُخالفةً القوانين الفيديراليّة، وخلص إلى قول: "يحين وقتٌ يضيق المرء ذرعًا. وقد اجتمعنا هنا، هذا المساء، لكي نقول لمن طالما أوسعونا الآلام، أنّنا مللنا، مللنا النبذ والتحقير، مللنا العيش تحت جزمة القمع الذي لا عهد له برحمةٍ". هذه العبارات قابلتها عاصفة تصفيقٍ حادّةٌ. واستأنف مارتن كينغ: "واجبنا أن نعترض، فليس لدينا سوى الاعتراض سبيلٌ. مدى سنين طويلةٍ، برهنّا عن صبرٍ منقطع النظير، بحيث خُيِّل إلى إخوتنا البيض أنّنا راضون بمصيرنا، وها نحن نعلن، هذا المساء، رفضنا الرضوخ لنظامٍ يُكرهنا على قبول أقلّ من حقّنا الأساسيّ، بالعدل والحرّيّة".

وسارع الخطيب إلى تبيان المبرّرات الأخلاقيّة والحقوقيّة لعمل السود، معلنًا: "إحدى ميّزات الديمقراطيّة الرائعة هي منحها للمواطن حقّ الاعتراض، من أجل إحقاق الحقّ". وأشار إلى أنّ اعتراضات مجالس المواطنين البيض ومنظّماتهم الإرهابيّة المتطرّفة تستهدف استمرار الظلم في المجتمع، في حين أنّ السود يعترضون كي يسود العدل. أساليب البيض تفضي إلى العنف والبلبلة. وفيما السود يأبون إحراق الصلبان، وتنظيم عصاباتٍ هائجةٍ تنتشل البيض من أسرّتهم، وتنكّل بهم، ولا يبتغون ممارسة التهديد والترهيب، بل تحدوهم أسمى مبادئ العدل والنظام".

ثمّ دعا إلى التزام الحذر، والامتناع عن إكراه أيّ شخصٍ على مقاطعة الحافلات، مؤكّدًا: "وسيلتنا هي الإقناع، وليس الإكراه، وشعارنا الوحيد هو:

"فليكن ضميركم هو حكَمكم الوحيد"، وأكّد: "على عملنا ألاّ يستلهم سوى مبادئ المحبّة المسيحيّة. المحبّة هي قاعدة حياتنا. وعلينا ألاّ ننسى قول يسوع الذي ما انفكّ صداه يتردّد عبر القرون: "أحبّوا أعداءَكم، باركوا لاعنيكم، وصلّوا من أجل مضطهِديكم". وما إغفالنا هذه الوصيّة سوى تحويل عملنا إلى فصلٍ تافهٍ من مآسي التاريخ الحافل بالقتام الذي سينعكس علينا. ومع كلّ ما نُسام من تنكيلٍ وبلطجةٍ لا يحقّ لنا أن نستسلم للمرارة والكراهية. ومثلما قال الكاتب الأميركيّ، المدافع عن حقوق الأفريقيّين: "لا تدعوا أحدًا يهوي بكم إلى العنف".

وختم كينغ خطابه بقوله: "إذا نجحتم في التظاهر والاحتجاج بجرأةٍ وكرامةٍ، محتفظين بوفائكم لمبادئ المحبّة المسيحيّة، سيقول مؤرّخو الأجيال المقبلة: "كان، في ذلك الزمان، شعبٌ عظيمٌ، شعبٌ أسود، زوّد الحضارة بمعنًى جديدٍ، وكرامةٍ جديدةٍ. هذا ما ينتظره منّا العالم، وهذه هي المسؤوليّة الملقاة على عاتقنا".

ولّما غادر مارتن كينغ المنبر وسط جمهورٍ يصفّق له، وقوفًا، شكر للربّ تمكينه القرن بين الدعوة إلى العمل الجريء، وإلى الاعتدال، معًا. وتأكّد أنّ خطابه الذي لم يتسنّ له الوقت لإعداده، كان أبعد أثرًا من كلّ الخطابات والعظات التي أنفق ساعاتٍ طوالاً على إعدادها. وثبتت له صحّة نصيحة الواعظين القدامى: "افتح فمك، والربّ يتكلّم". فغالبًا ما يستخدم الله ضعف عباده كي يُظهر عظمة مجده.

ثمّ قدّم رئيس الجلسة السيّدة "روزا باركس"، التي صفّق لها بحرارةٍ جمهورٌ رأى فيها بطلة الحَدَث ورمز آمالهم وتطلّعاتهم.

ثمّ تلا رئيس الجلسة القرارات التي صاغتها لجنةٌ مكلّفةٌ بهذه المهمّة، مشدّدًا على كلّ بندٍ منها. وقد لحظت:

«دعوة السود إلى الامتناع عن استخدام الحافلات ما لم يتلقّوا تأكيدًا من شركة الحافلات على الالتزام بالبنود التالية:

- معاملة السائقين للركّاب السود باحترامٍ ولياقةٍ.
- إمكانيّة جلوس كلّ راكبٍ، وقت صعوده إلى الحافلة، حيث يجد مكانًا خاليًا في الأماكن المخصّصة له. ومتى امتلأت الأماكن المخصّصة للسود يحقّ للراكب الأسود الجلوس في أيّ مكانٍ يجده خاليًا، حتّى في المقاعد الأماميّة المخصّصة للبيض وللراكب الأبيض الحقّ نفسه.
- تكليف سائقين سود بقيادة الحافلات التي تعبر مناطق حيث معظم الركّاب هم من السود».

وتمّت الموافقة بالإجماع على هذه الشروط، وتعهّد السود بعدم استخدام حافلات النقل العامّة قبل موافقة شركة الحافلات عليها، وقبل تغيير الوضع الراهن.

ولمّا غادر مارتن كينغ الاجتماع، كان قلبه يضجّ بهجةً، وهو يشهد تلاحمًا منقطع النظير بين آلاف السود الذين وعوا كرامتهم وحقّهم في صنع مصيرهم بأيديهم، بعد طول معاناة كلٍّ منهم ألوان المضايقات والمهانة. فآثروا إتعاب أرجلهم، مؤثرين التعب الجسديّ على المعاناة النفسيّة المذلّة.

لقد كان الخامس من كانون الأوّل، تاريخَ انطلاق حركةٍ ستجرّ في تيّارها أميركا جمعاء، حركةٍ أذهلت المستبدّين الظالمين، وآتت المقموعين آمالاً متألّقةً، مشرقةً.

الحركة تتّسع وتنتظم

إثر موجة التفاؤل، حان وقت التنظيم، وتأليف لجانٍ تهتمّ بمختلف التدابير التي تساعد على استمرار الحركة، وإيصالها إلى غاياتها، بدءًا بتوفير حلٍّ لسبعة عشر ألفًا وخمس مئة عاملٍ أسود، اعتادوا الذهاب إلى عملهم والعودة منه، مستخدمين الحافلات العامّة، قبل أن ينال منهم السأم، وتتراخى عزائمهم، وتوفير المال اللازم لكلّ ذلك.

في البدء استعان العمّال بسيّارات تكسي يملكها سودٌ، ارتضوا نقلهم ذهابًا وإيابًا بسعر بطاقات الحافلات. ولكن ما لبث مدير الشرطة أن هدّد بتفعيل قانونٍ يُلزِم سائقي التكسي باقتضاء حدٍّ أدنى عن كلّ مشوارٍ. فدعا كينغ إلى اجتماعٍ عامٍّ، وناشد متطوّعين مستعدّين لوضع سيّاراتهم الخاصّة بتصرّف الحركة. فتطوّع مئةٌ وخمسون مالك سيّارةٍ، والعديد من القساوسة على نقل العمّال السود في سيّاراتهم الخاصّة، في أوقاتٍ محدّدةٍ. وتطوّع عمّالٌ متقاعدون على قيادة السيّارات. وإثر نداءٍ أطلقه قسّيسون أيّام الآحاد ارتفع عدد السيّارات المقدّمة لنقل العمّال إلى ثلاث مئة سيّارةٍ. وفي سبيل تسهيل عمل تلك السيّارات وتنظيمه، حُدّدت مواقع تجمّعٍ للعمّال تفتح أبوابها منذ الساعة السادسة صباحًا حتّى الساعة العاشرة للذاهبين إلى العمل، ومنذ الساعة الثالثة بعد الظهر حتّى السابعة للعائدين.

هذا التنظيم، شبه العسكريّ، أدهش مجلس المواطنين البيض. والأشدّ إدهاشًا أنّ عمّالاً من مختلف الأعمار، حتّى من المسنّين، فضّلوا السير على الأقدام، مستغنين عن السيّارات المتطوّعة لنقلهم، لأنّهم كانوا يعتبرون المشي سيرًا على الأقدام رمزَ عنفوانٍ وتحدٍّ. ومن الأمثلة الرائعة على ذلك أنّ سيّارةً توقّفت، رغبةً في إيصال

سيّدةٍ مسنّةٍ، كانت ماضيةً إلى عملها، سائرةً الهوينى، فقالت للسائق: "تابع سيرك. إنّي أفضّل السير لا متعةً بالسير، بل تضحيةً في سبيل أبنائي وأحفادي".

قسّيسون عديدون تطوّعوا لهذه الخدمة، وانضمّت إليهم سيّدات منازل، ورجال أعمالٍ، وعمّالٌ أحرارٌ. وتطوّع، أيضًا، ثلاثة بيضٍ موظّفين في المطارات، لنقل عمّالٍ في ساعات راحتهم. ومن أبرز المتطوّعين سيّدةٌ مسنّةٌ أنيقةٌ، دأبت بحماسٍ، وطيبة خاطرٍ على نقل عمّالٍ بسيّارتها الكاديلاك الفخمة، صباحًا ومساءً. وحذت حذوها أستاذةٌ في معهدٍ عالٍ. ولم تتحرّج سيّداتٌ بيضاواتٌ من نقل خادماتهنّ من منازلهنّ صباحًا، وإعادتهنّ بعد انقضاء عملهنّ. وغالبًا، ما كانت مبادرتهنّ هذه، دليلاً على تثمينهنّ لخَدَماتهنّ ووفائهنّ وجهودهنّ.

وما انفكّ هذا النظام يتطوّر ويتحسّن حتّى غدا تحفة تنظيمٍ وتنسيقٍ، وموضع إعجاب الغرباء الوافدين من مختلف أنحاء الولايات المتّحدة. ولكنّه كان باهظ الكلفة، والتهمَ الكثير من الأموال التي أغدقها أفرادٌ سودٌ أغنياء، وفقراء قدّموا من عَوَزهم فلوسًا، إلى أن برزت الحاجة إلى حملة جمع أموالٍ. غير أنّ اللجوء إلى ذلك بدا نافلاً، لأنّ الصحافة العالميّة كانت قد أسهبت في الإشادة ببطولة سود مونتغومري. فتقاطر زائرون من كلّ أقطار العالم حتّى من اليابان، وقدّموا إعاناتٍ تراوحت بين شيكّاتٍ بخمسة آلاف دولارٍ، وورقات دولارٍ واحدٍ. غير أنّ مجموعها ارتقى إلى نحو مئتين وخمسين ألف دولارٍ. وتألّفت، في كلّ مكانٍ، منظّماتٌ من أجل دعم الحركة بانتظامٍ.

ووردت معوناتٌ من أفرادٍ بيضٍ وسودٍ، أميركيّين وغرباء، وغالبًا ما رافقتها رسائل دعمٍ وتشجيعٍ، مُسهِمةً في إخراج سود مونتغومري من عزلتهم. فقد ورد شيكٌ مع رسالةٍ تقول: "عملكم رائعٌ ومنقطع النظير في بلادنا، وجديرٌ بأن يدوِّن

دمغةً في التاريخ..." وكتب قاضٍ فيديراليٌّ: "لقد أثبتّم أنّ البسالة والكرامة تقودان إلى الغلبة... لم تبلغوا هدفكم، بعدُ، غير أنّ ما برهنتم عنه من تصميمٍ وإيمانٍ لا يسعه إلاّ الإفضاء إلى النصر. وفي نهاية المطاف سيدرك مضطهدوكم أنّ الشرّ لا يقود إلى مكانٍ. الأُمّة بأجمعها تحيّيكم، وتصلّي كي تتذوّقوا، سريعًا، أفراح النصر".

وبالإجمال، تأثّر العالم كلّه بما أنجزته مدينة مونتغومري. ولكم من مشاكل كانت أثارتها الحركة، وكم من تصرّفات ركّابٍ غير لائقةٍ، وكم من تهديداتٍ ومضايقاتٍ تعرّض لها سودٌ يعملون لدى بيضٍ! وكانت كلّ تلك المشاكل والقضايا تصبّ على مارتن كينغ، فكان هاتفه لا يهدأ منذ الساعة الخامسة صباحًا حتّى منتصف الليل، وكان عليه حلّها أو تسويتها.

فكان لا بدّ من توظيف سكرتيرةٍ بدوام كاملٍ تساعده، ومن تأليف لجنةٍ تتولّى قضايا المواصلات وحلّها وتنظيمها. وكُلِّف قسٌّ آخر بمساعدة مارتن كينغ كي يتفرّغ، هو، للأمور الأساسيّة. وكان كلّ يومٍ يأتي بمشكلةٍ طارئةٍ جديدةٍ، ومع ذلك، لم تحِد الحركة قيد شعرةٍ عن مبادئ المقاومة اللاعنيفة، واللاتعاون مع الظلم.

اختيار أسلوب اللاعنف

وكان مارتن لوثر كينغ، منذ بدء نضاله قد بناه على ركنَيْن متينَيْن: عظة يسوع على الجبل، والنضال اللاعنيف الذي استقاه من مثال المهاتما غاندي.

وحرص على ألاّ يضمّ جيشُه المسالم أيَّ مناضلٍ لا يحدوه إيمانٌ وطيدٌ بهاتَيْن الركيزتَيْن، إذ كان راسخ الإيمان بأنّ اللاعنف هو سلاح الأقوياء أخلاقيًّا، ولا يليق بالجبناء والمتردّدين، وهو خيار الذين ينبذون مبدأ مقاومة العنف بالعنف، بل يسعون إلى إقناع العنيف ببشاعة عنفه، وإظهار سموّ القوّة الأخلاقيّة، التي لا تهدف إلى قهر الخصم وإذلاله، بل إلى كسب تعاطفه ومحبّته، وحمله على الخجل من عنفه، لأنّ العنف لا يولّد سوى البغضاء والكراهية والمرارة، في حين أنّ اللاعنف يؤسّس مجتمعَ إخاءٍ، ومساواةٍ، وعدالةٍ.

وقد جهد مارتن كينغ كثيرًا كي يبثّ إيمانه في نفوس المناضلين السود، مبيّنًا لهم أنّ على المناضل اللاعنيف أن يكون متأهّبًا لاحتمال العنف الذي يُنزَل به، والامتناع عن إنزال العنف بالآخرين لأيّ سببٍ. وإذا تحتّم عليه دخول السجن فليدخله، حسب قول غاندي: "دخول العريس إلى مخدع العروس".

ولطالما ذكّرهم بأقوال غاندي: "للألم فضلُ حمل الخصم على فتح ذهنه، وإلاّ لظلّ صامًّا أذنيه عن صوت العقل"، وقوله: "قد نضطرّ إلى سفك دماءٍ كثيرةٍ قبل ظفرنا بحرّيّتنا، ولكن يجب أن يكون الدم المسفوك هو دمنا".

ولطالما أوضح أنّ النضال اللاعنيف يتعرّض للشرّ، لا للأشخاص الذين هم أدوات الشرّ، ويسعى إلى قهر شرّ المصابين به، وأنّ المشكلة القائمة ليست ناجمةً

عن اختلاف العروق، في ذاته، بل عن تعارض العدل واللاعدل، والمساواة والتمييز، وتعارض قوى النور وقوى الظلام. وليس هدف نضال السود الانتصار على البيض، بل على قوى الظلام التي تحرّكهم.

اللاعنف، إذن، يقتضي إرادةً صلبةً، وعزمًا على تحطيم دائرة البغضاء الجهنّميّة، ولا يتحقّق إلاّ بالمحبّة، على غرار محبّة يسوع الذي بذل حياته من أجل خلاص البشر، حبًّا لهم. والقدّيس بولس قال إنّ يسوع أحبّنا عندما كنّا ما زلنا خطأةً. فعلى السود أن يحبّوا البيض، مع أنّ نفوسهم ما برحت مشوّهةً بالحقد والظلم.

وبالإجمال، استلهم مقاومو مونتغومري عظة الجبل، واقتادتهم أقوال يسوع، بحزمٍ واستقامةٍ وكرامةٍ، متسلّحين بمحبّة يسوع. ثمّ، شيئًا فشيئًا، استحوذ على نفوسهم تأثير المهاتما غاندي، الذي استلهم، هو أيضًا، عظة الجبل، وأثبت أسلوبُه جدواه وفاعليّته. وكان اللاعنف هو وسيلة كفاحهم الأوفر جدوى.

ونشرت سيّدةٌ بيضاء جريئةٌ مقالاً في صحيفةٍ محلّيّةٍ، قارنت فيه بين إقلاع السود، في مونتغومري، عن استخدام الحافلات العامّة التي تمارس الفصل العرقيّ، ومقاومة غاندي للاستعمار البريطانيّ في الهند. وما لبثت أن دفعت تلك الكاتبة حياتها، على يد المتطرّفين البيض، ثمنًا لمقالها.

وسرعان ما شاع اسم غاندي على ألسنة سودٍ بسطاء لم يكونوا يعلمون، من قبلُ، شيئًا، عن ذلك القدّيس الهنديّ، ومع ذلك تبنّوا أسلوبه في النضال. وبالإجمال بيّن لهم يسوع معنى كفاحهم وهدفه، وأرشدهم غاندي إلى أسلوبه.

ولم يكفّ قادة حركة السود عن ترسيخ مبادئ المحبّة المسيحيّة واللاعنف الغانديّ، من خلال مواعظ تُلقى في اجتماعاتٍ تُعقَد مرّتين في الأسبوع، إذ لم يكن للسود، آنذاك، لا إذاعةٌ، ولا صحيفةٌ واسعة الانتشار.

وتعاقب على ترسيخ هذه المبادئ العديد من الخطباء، وفي منابر متعدّدةٍ، كي تطال أوسع شرائح جماعات السود، وطبقاتهم. ومع أنّ سواد المستمعين كانوا من العمّال، غير أنّه كان، ثمّة، دائمًا، ممثّلو مهنٍ حرّةٍ، وأطبّاء، ومحامون، إلى جانب الخدّام والخادمات. واختلط مفكّرون ببورجوازيّين متطوّعين لتقديم سيّاراتهم الخاصّة لنقل العمّال. وبالإجمال، جمعت تلك اللقاءات رجالاً ونساءً طالما فرّقتهم الأحكام الطبقيّة المسبّقة، فصلّوا وأنشدوا معًا، مشتركين، جميعًا، في كفاحٍ واحدٍ من أجل استعادة حرّيّتهم وكرامتهم الإنسانيّة المسلوبتَيْن.

كانت تلك الاجتماعات تبدأ عند الساعة السابعة مساءً، ولكنّ الأماكن كانت تمتلئ منذ الساعة الخامسة، فيضطرّ القادمون متأخّرين إلى البقاء واقفين. ودرج الخطباء على التزام مبادئ المحبّة المسيحيّة، وإذا اتّفق أن تناول أحدهم البيض بعباراتٍ جارحةٍ، فكان يُلام علنًا، ويُذكّر بأنّ الكراهية لا تُقابَل بمثلها، وبواجب مقابلة قوى البغض بالمحبّة، والقوّة الجسديّة الغاشمة بالقوّة الأخلاقيّة السمحاء.

وكان من البديهيّ ألاّ يرحّب جميع المقاومين، عفويًّا، باللاعنف والتسامح، حتّى بين القادة، وكان بعضهم يقترحون، أحيانًا القيام بعملٍ عنيفٍ، مثل اغتيال بيضٍ متطرّفين، متذرّعين بزعم أنّ هذا العمل كفيلٌ بإيقاظ ضمائر البيض، وضمائر الحكّام الفيديراليّين، وإكراههم على إعادة حساباتهم. غير أنّ مارتن لوثر كينغ وإخوانه، لم يحيدوا، قطّ، عن التزامهم بمبادئ المحبّة الإنجيليّة، واللاعنف الغانديّ.

وبدافع ثقتهم بقادتهم، تقبّل معظم سود مونتغومري اللاعنف، أسلوبَ سلوكٍ، ووسيلةً لحلّ أزماتهم. وانتهوا إلى اعتماده قاعدة عيشٍ، وطريق ترقٍّ وتقدّمٍ.

مفاوضاتٌ متماديةٌ، ومناوراتٌ خبيثةٌ، وخِـداعٌ وانتقامٌ

مع النجاح الذي أحرزه السود في مقاطعتهم للحافلات التي تمارس الفصل العنصريّ، ظلّ البيض يتخيّلون أنّ الإضراب لن يقوى على الصمود، أكثر من أيّامٍ معدوداتٍ، وأنّ هطول الأمطار الذي أمسى وشيكًا، سيعيد السود، مُكرَهين، صاغرين، إلى الحافلات. وأقاموا على رفضهم الاتّصال بالسود من أجل الوصول إلى حلٍّ يرضي الجميع.

وهطلت الأمطار، وبقيت الحافلات فارغةً من الركّاب السود.

ولم يلبث أن تلقّى مارتن كينغ اتّصالاً هاتفيًّا من زميلٍ له مسؤولٍ عن العلاقات الإنسانيّة، أطلعه على أنّه وقسّيسَيْن آخرَيْن قد اتّفقوا على عقد لقاءٍ، صباح ١٢/١١، مع السلطات المحلّيّة وشركة الباصات. وفي الحال انتُخبت لجنة تفاوضٍ من اثني عشر شخصًا أسود، اختاروا مارتن كينغ ناطقًا باسمهم، وأجمعوا كلّهم على المطالبة بتنفيذ الشروط الثلاثة التي سبق الاتّفاق عليها:

– ضمان حسن استقبال الركّاب السود في الباصات.

– الحقّ باستخدام المقاعد الخالية في كلّ أقسام الحافلات، عند الصعود.

– توظيف سائقين سودٍ لقيادة الحافلات التي تخدم أحياءً، معظم سكّانها من السود.

ولما دُعيَ مارتن كينغ إلى الكلام بيّن أنّ توقيف السيّدة "روزا باركس" ومحاكمتها وإدانتها بتهمة رفض إخلاء مقعدها لراكبٍ أبيض، لم تكن هي السبب الجوهريّ للإضراب، بل كان القطرة التي أفاضت جام سنواتٍ من المظالم،

والإهانات والإذلال، والبذاءات التي كان سائقو حافلاتٍ بيضٌ يقابلون بها الركّاب السود. ونوّه بالصبر الذي تحلّى به السود طويلاً، وذكّر بدعواتهم المتكرّرة إلى مفاوضاتٍ لم تلقَ استجابةً.

ثمّ ذكّر بشروط فريقه الثلاثة التي ينبغي تنفيذها، قبل إيقاف الإضراب. وأكّد أنّ حسن المعاملة المطلوب من السائقين هو من بَدَهيّات مبادئ السلوك الاجتماعيّ، والإنسانيّ والأخلاقيّ، ومن أولى قواعد التهذيب، أيًّا كان النظام السائد.

وعَمَد وفد البيض إلى شتّى أساليب المراوغة والتهديد والتخرّصات، ولم يسفر ذلك اللقاء عن أيّة نتيجةٍ.

وتوالت الاجتماعات حيث كان يدعم وفد البيض عمدةُ المدينة المفرط في التشدّد والتعصّب، وقائد الشرطة، فحفلت تلك الاجتماعات بالخِدَع والأكاذيب والغطرسة، والاتّهامات الباطلة. وحاولوا إظهار مارتن كينغ بكونه العقبة الوحيدة دون الوصول إلى حلٍّ يرضي الجميع. وبسبب افتقارهم إلى حججٍ مقبولةٍ لجأوا إلى شراء ضمائر قسّيسين سود فاسدين جعلوا منهم شهود زورٍ، ومروّجي أكاذيب. ومن الأكاذيب التي روّجوها عن مارتن كينغ هي أنّه ابتاع منزلاً فخمًا وسيّارة كاديلاك فخمةً لنفسه، وأُخرى لزوجته. وكان من الطبيعيّ ألاّ يصدقّ أحدٌ تلك الأكاذيب، فجميع السود كانوا يرون ويعرفون كيف يعيش كينغ وأسرته، وأين يقيمون، وكانوا واثقين من نزاهته وزهده.

واستعانوا بقسّيسين فاسدين، اتّهموا كينغ بمخالفة تعاليم الإنجيل، وبافتعال الفِتَن والشغب من أجل كسب مجدٍ شخصيٍّ على حساب شعبه. غير أنّ نصاعة إيمان كينغ كان عصيًّا على التشكيك فيه؛ وجهدوا في زرع الشقاق بين السود، ولكنّهم فشلوا في كلّ مساعيهم الخبيثة.

وأخيرًا، أعلنوا، ليلة يوم أحدٍ، أنّ اتّفاقًا عُقِد بين مسؤولين بيضٍ وسودٍ على إنهاء الإضراب، معلّلين نفوسهم بأن يصدّق العمّال السود هذا النبأ، ويعودوا إلى استخدام الحافلات، صباح يوم الإثنين، فانطلق مارتن كينغ ورفاقه ومعاونوه ومتطوّعوه، يطوفون، ليلاً، من بيتٍ إلى بيتٍ، ومن حانةٍ إلى حانةٍ، كي يحذّروا السود من تصديق هذه الخدمة الزائفة، وأهابوا بجميع القسّيسين أن يحذّروا رعاياهم منها، ويدعوهم إلى الاستمرار في الإضراب حتّى تتحقّق جميع مطالبهم.

وتجلّى بوضوحٍ أنّ البيض يرفضون مبدئيًّا، الوصول إلى اتّفاقٍ، بسبب تشبّثهم بالفصل العرقيّ، الذي يأبون عنه فكاكًا، وبدافع خشيتهم من أن يُقال إنّ السود انتصروا عليهم، غير مبالين بتأكيدات مارتن كينغ الكفيلة بتبديد كلّ ريبةٍ في هذا الشأن.

واستحوذ على مارتن كينغ شعورٌ بالإحباط، وأخذ على ذاته الإفراط في التفاؤل، والظنّ بأنّه من السهل حمل أصحاب الامتيازات، حتّى الباطلة منها، على التخلّي عنها بالمنطق، وبحجج العدل والأخلاق، وتأكّد أنّ حرص البيض على الفصل العرقيّ، نابعٌ من حرصهم على القمع والتفوّق والاستغلال.

وفي غمرة الجمود الذي عقب فشل المفاوضات، أبدت فئةٌ من البيض، تضمّ رجال أعمالٍ، وتتّخذ تسمية "رجال مونتغومري"، شيئًا من الانفتاح، وبادروا إلى عقد لقاءاتٍ مع ممثّلي منظّماتٍ تدافع عن حقوق السود، وكان من شأن هذه المبادرة إثمار بدء حلٍّ، لولا تصلّب السلطات المحلّيّة في إصرارها على استمرار الأوضاع الراهنة.

مُنيت، إذن، سلطات مونتغومري بالخزي، وفُضِحت ألاعيبها السمجة، فترجمت حنقَها هيجانَ عنفٍ. وأعلن عمدة المدينة أنّه لن يتغاضى، بعدئذٍ، عن مقاطعة السود لشركة الحافلات، ودعا أرباب العمل البيض إلى الإقلاع عن مساعدة

موظّفيهم السود على الانتقال مجيئًا وعودةً، وأعلن مفوّضو الشرطة الثلاثة، في المدينة، انضمامهم إلى مجلس المواطنين البيض.

ونقعًا لغليل سُخطِه أمر العمدة بتنظيم مخالفات سيرٍ بكلّ سائقٍ أسود، لأتفه الأسباب، واختلاق تُهَم للمعتدلين منهم وزجّهم في السجون، وأمر بالتحقّق من صلاحيّة رخص سير جميع مَن يساعدون عمّالاً على الانتقال إلى مراكز عملهم، والتأكّد من تأمين المركبات والركّاب. وزوّر ملفّاتٍ، تمهيدًا لدعاوى قضائيّةٍ "غبّ الطلب".

وهدّد عمّالاً، في أماكن التجمّع، بتنفيذ قرارٍ، لا وجودَ له، في الواقع، يعاقب من يستخدم وسائل نقل غير شرعيّةٍ، وهدّد آخرين بتهمة التسكّع في أحياء البيض.

وكان من الطبيعيّ أن تؤتي هذه التهديدات ثمارًا، فشرع سائقون متطوّعون يخشون سحب رخصهم، أو إبطال عقود تأمين مركباتهم وركّابهم. وتراجع بعض المتطوّعين لنقل عمّالٍ خشيةً على مصالحهم ولقمة عيشهم؛ وخطر لآخرين التخلّي عن مبدأ اللاعنف، والردّ بعنفٍ على العنف. واجتاح الشكُّ نفس مارتن كينغ في قدرة السود على الصمود طويلاً.

وبالمقابل دأب القساوسة السود على دعوة رعاياهم إلى الحفاظ على وحدة صفوفهم، مؤكّدين تضامنهم معهم، وتأهّبهم لعون كلّ من يقع في أزمةٍ، من جرّاء حملة المقاطعة اللاعنيفة، وأهابوا بهم أن يصمدوا ويظلّوا متّحدين، من أجل إيجاد حلٍّ يرضيهم.

وتوقّع مارتن كينغ أن يكون، شخصيًّا، إحدى ضحايا انتقام السلطات البيضاء، وصدَق حدْسُه، فذات يومٍ، إذ كان عائدًا من مكتبه الراعويّ، استصحب، في سيّارته، معاونًا له، وأمينة سرّ الرعيّة، وعرّج في طريقه على موقع تجمّع عمّالٍ

حيث اعتاد استصحاب ثلاثة عمّالٍ مقيمين على طريقه. ولاحظ عند مدخل الموقع رجال شرطةٍ يستجوبون سائقي السيّارات. ولّما أصعد إلى سيّارته العمّال الثلاثة، واتجّه صوب المخرج، وفيما كان رجل شرطةٍ يطالبه بإبراز رخصة سوقه، ويستوضح عن اسم صاحب السيّارة، صرخ زميلٌ له: "هذا هو مارتن كينغ، فليأخذه الشيطان!".

وعند انطلاقه لحظ أنّ درّاجتَيْ شرطة تتبعانه، وفي إثرهما درّاجةٌ ثالثةٌ على مسافةٍ قصيرةٍ منهما، فأطلع على الأمر معاونه الذي نصحه بمراعاة قواعد السير بدقّةٍ؛ ولّما توقّف بهدوءٍ كي يتيح للعمّال الثلاثة النزول، اقترب أحد الشرطيّين، وقال له: "انزل، يا كينغ. أنت موقوفٌ، لأنّك عبرت بسرعة ٤٥ ميلاً، منطقةً حيث عبورها محدّدٌ بأربعين ميلاً فقط"، فنزل مارتن، وطلب من زميله أن يقود السيّارة، وأن يطلع زوجته عمّا حدث.

بادئ الأمر، ظنّ أنّ الشرطيَّيْن يقتادانه إلى السجن المركزيّ في المدينة، ولكنّه ما لبث أن تبيّن ابتعاد سيّارتهما عن مركز المدينة، وتوغّلها في منطقةٍ موحلةٍ قذرةٍ لم يسبق أن مرّ بها يومًا. فارتعدت فرائصه، وتراقصت التخيّلات المريعة في ذهنه، وخُيّل له أنّهم يأخذونه إلى مكانٍ معزولٍ، حيث سيقضون عليه قضاءً نهائيًّا، بعيدًا عن أيّة عينٍ، أو أنّهم سيسلّمونه إلى عصابة مجرمين كي ينكّلوا به أبشع تنكيلٍ. وفي رعدته لم يستطع إلاّ التماس عون الله على تحمّل المصير المُعَدّ له.

وبغتةً، رأى نورًا، وقرأ فوق واجهة مبنًى "سجن المدينة"، ومن سخريات القدر، أحسّ أنّ السجن هو له شاطئ الأمان.

بجفوةٍ، أدخله شرطيٌّ إلى السجن، حيث سلّم كلّ أغراضه الشخصيّة، وخضع لاستجوابٍ، ثمّ اقتيد إلى غرفةٍ تتصاعد منها روائح الإنتان، ودُفِع إلى أرضٍ

مفروشةٍ بالأقذار، وقال له السجّان: "هيّا، انضمّ إلى رفاقك". وأقفل الباب الثقيل، محدثًا ضجيجًا جهنّميًّا.

اجتاح مارتن لوثر كينغ شعورٌ بأنّ ريحًا عاتيةً تطيح به. فقد كان، للمرّة الأولى، وراء القضبان. ومنذ دخوله تعرّف وجهين، أحدهما وجه أستاذٍ جامعيٍّ، كانا أوقفا بتهمة مساهمتهما الملفّقة بالدعوة إلى مقاطعة الحافلات. وكان قد زُجّا، مثلما زُجّ هو نفسه في سجنٍ يضمّ سكارى، وقتلة، ومحتالين، ولصوصًا. غير أنّ الديمقراطيّة الأميركيّة لم تحِد عن نظام الفصل العنصريّ. فالسود والبيض كانوا يرقدون على قشٍّ مبلّلٍ مقزِّزٍ، واحدٍ، ولكن في قاعتَيْن منفصلتَيْن. وكانت أسرّة بعض المسجونين أجزاء ألواحٍ خشبيّةٍ، وكانت أسرّة بعضهم بقايا أفرشةٍ باليةٍ.

ولّما علم السجناء القدامى بهويّته، دهشوا لإقدام السلطات على سجنه، والتمسوا منه مساعدتهم على إخراجهم من سجنهم، فأجابهم ضاحكًا: "يجب أن يأتي من يساعدني، أنا، على الخروج، قبل أن أُساعدكم".

لم يَطُل الوقت قبل أن يقتاده سجّانٌ خارج الزنزانة، على هتاف رفاق سجنه: "لا تنسَنا". وظنّ كينغ أنّه سيُطلَق سراحُه. ولكن في نهاية ممرٍّ طويلٍ أُدخل إلى قاعةٍ حيث سُجّلت بصمات أصابعه العشر، وكأنّه مجرمٌ خطيرٌ.

في هذه الأثناء، كان نبأ اعتقاله قد شاع، فتجمّعت جماهير المعترضين أمام باب السجن، وفي مقدّمهم زميلُه ومعاونه القسّ "رالف أبيرناتي"، الذي تقدّم لتوقيع كفالة إخلاء سبيله، فأجيب بأنّ عليه أن يُبرزَ شهادةً في المحكمة تثبت امتلاكه مبلغ الكفالة. وكانت مكاتب المحاكم، آنذاك، قد أُغلقت. وطلب "أبيرناتي" مشاهدة زميله كينغ، فقيل له إنّ ذلك يستحيل قبل الساعة العاشرة من صباح الغد.

غير أنّ القسّ أبيرناتي لم يستسلم، وعرض طلب دفع الكفالة نقدًا، فقُبِل طلبه، وأسرع هو إلى مكتبه، وعاد بالمبلغ المطلوب. وكان جمهور المعارضين المحتشدين أمام باب السجن قد تكاثر، ودوّت صيحات استنكارهم، فهرع السجّان إلى الزنزانة، ودعا كينغ إلى الخروج سريعًا. ولّما سلّمه أشياءه، بلّغه أنّ محاكمته ستجري صباح يوم الإثنين القادم.

إزاء مشهد جموع المؤيّدين له ولحركته، استعاد مارتن كينغ العزيمة التي كاد يفقدها.

وفي منزله كان جمهورٌ غفيرٌ من أبناء رعيّته بانتظاره، من أجل تهنئته، ودعمه، وتشجيعه. فتيقّن أنّه ليس وحيدًا في نضاله، ولن يكون، وتشدّدت عزيمته على المضيّ قدُمًا في نضاله من أجل حرّيّة شعبه وكرامته.

كان قتام ليل الظلم ما زال حالكًا، وسياسة العنف ما برحت ناشطةً هائجةً، ولكن من جوف تلك الظلمة الدامسة، تألّقت نجمة وحدة النضال.

محاولات العنف القصوى

إفلاس سياسة البيض المتطرّفين أفقدهم صوابهم، فأمعنوا تهديدًا من خلال حملاتٍ هاتفيّةٍ حافلةٍ بالسفالة والسفاهة، والاتّهامات الباطلة، وادّعاء أنّ الفصل العرقيّ هو مشيئةٌ إلهيّةٌ، وأنّ الولايات المتّحدة الأميركيّة تحتاج إلى هتلر آخر ينظّفها من الزنوج.

ولم تعُد هواتف السود تكفّ عن الرنين ليلاً ونهارًا، وإذا رُفعت السمّاعة انصبّت منها شتائم محشوّةٌ قذارةً وعباراتٍ فاحشةً. وأحيانًا، كان الخطّ يُقطع، حالما ترفع السمّاعة، بعد رنينٍ ملحاحٍ.

واضطرّ سودٌ على إبقاء سمّاعات هواتفهم مرفوعةً، تفاديًا للإزعاج. ولكنّ قادتهم لم يجسروا على التمثّل بهم، خشية أن يكون الهاتف حاملاً استغاثةً، أو نبأً خطيرًا.

في البدء، ظنّ مارتن كينغ أنّ تلك المحاولات هي فعل فتيانٍ فاقدي التهذيب، هدفهم الإرهاب والإزعاج، إلى أن بلّغه صديقٌ له، أبيض، أنّ مؤامرةً تُعَدّ للقضاء على حياته. فأدرك أنّه عرضةٌ لفعلٍ إجراميٍّ هادفٍ إلى إلغائه. وكان هذا الإنذار، من عمق التأثير فيه، بحيث حذّر لاشعوريًّا، معاونيه وزملاءه، في نهاية اجتماعٍ ضمّهم، إذ قال لهم:

«إذا شاهدتم، يومًا ما، جثّتي ملقيّةً، فأرجوكم الامتناع عن أيّ ردٍّ عنيفٍ، والمثابرة في حملتكم المعارضة للفصل العرقيّ، بنفس الانتظام، والكرامة، والرفعة، التي برهنتم عنها حتّى اليوم».

هذا القول أشاع قشعريرةً في نفوس مستمعيه. فجهد في طمأنتهم بأنّ تحذيره ليس بدافع حَدَثٍ أو نبأٍ محدّدَيْن، بل هو مجرّد تذكيرٍ بمبدأ سلوكٍ عامٍّ، في حال حدوث ما يزيله. ومع ذلك التفّ من حوله فريقٌ متأهّبٌ للذود عن كلّ أذًى قد يُلحق به. غير أنّ صديقه رالف أبيرناتي، ظلّ عليه حتّى اعترف له بالدافع الحقيقيّ لما قاله، في ذلك المساء. وحاول أبيرناتي تبديد مخاوفه، بلا جدوى. وأمسى نومه قلقًا حافلاً بالهواجس والكوابيس، وعند استيقاظه، صباحًا، كان يرنو بحنانٍ إلى زوجته وابنته الوليدة، ويشكر للربّ حفظه لهما، وله.

وذات ليلةٍ انتزعه من نومه العميق الذي أغرقه فيه يوم تعبٍ منهكٍ صوت هاتفٍ أجشّ هدّده بإزالته من الوجود. فجلس دافنًا وجهه بين راحتيه، مخاطبًا الربّ، قائلاً: "لقد عزمتُ على الذود عمّا رأيته واجبًا. وها أنذا خائفٌ. الشعب المحيق بي يتوقّع منّي أن أقوده. فإذا فقدتُ العزيمة والجرأة، أمامه، سينهار. لقد أُرهقتُ، وفقدتُ كلّ قواي، وانتهيتُ إلى مرحلة العجز عن المواجهة بمفردي".

وحينئذٍ، انتابه شعورٌ منعشٌ بحضور الربّ معه. وخُيِّل إليه سماعه يقول له: "دافع عن العدل والحقيقة، وسيكون الله إلى جانبك". فتبدّدت مخاوفه، واستعاد عزيمته على المضيّ في النضال حتّى غاية الشوط.

وبعد ثلاثة أيّامٍ غادر المنزل، عند الساعة السابعة صباحًا، كي يرأس اجتماعًا في الكنيسة المعمدانيّة. وكانت سيّدةٌ من الرعيّة قد حضرت كي تؤنس زوجته أثناء غيابه. وعند الساعة التاسعة والنصف سمعت السيّدتان مثل صوت حصاةٍ أُلقيت على البيت، وتلاه، بعد ثوانٍ، انفجارٌ هائلٌ، هزّ أركان البيت، نتيجة انفجار قنبلةٍ قرب البيت.

وفي نهاية الاجتماع لحظ مارتن كينغ، في الكنيسة، حركةً مريبةً، ومساعديه يروحون ويجيئون، وقد ارتسمت على وجوههم أمارات القلق والاضطراب. ولّما حاول خادم الكنيسة إطلاعه على ما حدث أبعده عنه معاونو كينغ. وأخيرًا، حضر صديقه "أبيرناتي"، وصارحه بانفجار قنبلةٍ قرب منزله.

ومع ذلك، لبث مارتن كينغ، بُرهةً، هادئًا، ساجيًا، فقد كان ما برح متأثّرًا بطمأنة الربّ له، لأيّامٍ معدوداتٍ خلت. إلاّ أنّه أوقف النشاط في الكنيسة، وأطلع الرعيّة على اضطراره العودة إلى منزله، طالبًا منهم أن يعود كلٌّ إلى بيته، ومشدّدًا دعوته الجميع على الالتزام بمبدأ اللاعنف، ونبذ كلّ رعبٍ. مؤكّدًا لهم سلامة ما يقومون به، ووقوف الله إلى جانب كفاحهم.

لّما وصل مارتن إلى منزله، شاهد حشدًا من أبناء رعيّته، وقد ارتسم الغضب على وجوههم، والشرطة تحاول إبعادهم، بعنفها المعتاد، وسمع رجلاً يتّهم شرطيًّا بالانحياز، قائلاً: "إن كان لديكم ناركم، فعندنا، أيضًا، نارنا". فخشي أن تُفلت غرائز العنف من عقالها. ولكنّه كان مستعجلاً في الاطمئنان على سلامة زوجته، وابنته الوليدة، وأسعده تبيّن أكثر من سلامتهما، رباطة جأش زوجته، وهدوءَها المذهل، وحسن تقديرها، فهي عندما أحسّت أنّ أمرًا خطيرًا يُعَدّ، عوضًا عن الإسراع إلى الشرفة لاستطلاع ما يحدث، هرعت مع ابنتها ورفيقتها إلى الطرف الآخر من المنزل، اتّقاءً للخطر، فنجونَ جميعهنّ.

وكان قد سبقه إلى بيته عمدة المدينة ومفوّض الشرطة، فوجدهما بانتظاره، ورحّب بهما، واستمع إلى أسفهما عمّا حدث. وكان إلى جانبه أحد مستشاري الرعيّة الذي لم يستطع ضبط انفعاله، ولم يخشَ عواقب أقواله، وقاطع العمدة هاتفًا: "عوضًا عن التعبير عن أسفك، كان الأجدر بك الاعتراف بأنّ تصريحاتك الحافلة

بالكراهية، والتحفيز على العنف، هي التي خلقت جوّ الإجرام والاغتيالات الذي نشهده". ولم يردّ العمدة ومفوّض الشرطة بجوابٍ.

في الخارج، كان الحشد يتكثّف، ويتضخّم، لحظةً فلحظةً، والشرطة عاجزةٌ عن تفريق المحتشدين. وكان صحافيّون بيضٌ قد حضروا إلى منزل القسّ من أجل استطلاع الحدَث عن كثبٍ، وخافوا أن يخرجوا من أجل الإبراق إلى مراكز صحفهم، بما رأوه وسمعوه، خشيةً على أنفسهم من هيجان غضب الجموع. واكتسى الشحوبُ وجهي العمدة ومفوّض الشرطة.

حينئذٍ، خرج القسّ إلى شرفة منزله، ودعا الجموع إلى الصمت والهدوء، مؤكّدًا لهم أنّه وأفراد أسرته بخيرٍ. وناشدهم التزام السكون، وضبط الأعصاب، قائلاً: "إذا كان مع أحدكم سلاحٌ، فليذهب ويودعه في بيته. ومن ليس لديه سلاحٌ فلا يسعينَّ إلى الحصول عليه، مذكّرًا بقول الربّ: "من أخذ بالسيف، فبالسيف يؤخذ". ومؤكّدًا: "نحن لن نحلّ هذه المشكلة بالردّ على الضرب بمثله، ولن نواجه العنف بالعنف". ثمّ دعاهم إلى التفرّق بهدوءٍ، مذكّرًا:

«واجبنا أن نحبّ إخوتنا، مهما فعلوا لنا، وعلينا أن نُظهر لهم محبّتنا، فاليوم، أيضًا، يردّد يسوع على مسامعنا قوله: "أحبّوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، وصلّوا لمضطهديكم". علينا إذن، أن نواجه الحقد بالمحبّة. واذكروا أنّه حتّى إذا حاول أيٌّ كان وضع حدٍّ لنشاطي، فلن تتوقّف حركتنا لأنّ الله يدعمها! عودوا، إذن، إلى بيوتكم، مزوّدين بهذا الإيمان، وبهذه الثقة المجيدة».

وتعالت من الحشود صيحات "آمين! باركك الله. لن نتخلّى عنك، أبدًا، يا راعينا". وحدّق القسّ إلى الأمواج البشريّة المتهادية أمامه، ورأى سيولاً من الدموع تنهمر.

ولّما أنهى القسّ مارتن خطابه، حاول مفوّض الشرطة إلقاء كلمة، ولكنّ صيحات الغضب قاطعته. وجهد ضبّاط شرطةٍ في فرض الصمت، فازداد الصياح حدّةً، إلى أن تقدّم مارتن كينغ، ورفع يده، داعيًا إلى الهدوء، ومذكّرًا بما قاله قبل لحظاتٍ، فساد الصمت، واستطاع مفوّض الشرطة الإدلاء بوعده مكافأةً لمن يُرشد إلى مرتكبي جريمة تفجير القنبلة في منزل كينغ.

كان التوتّر ما زال سائدًا في تلك الليلة، وكان من شأن أيّ حدثٍ تافهٍ عارضٍ أن يتحوّل إلى حريقٍ مدمّرٍ. ولكنّ تلك الليلة مضت بهدوءٍ.

وفي الليالي التالية، التي غالبًا ما قضاها مارتن كينغ وأسرته في بيوت أصدقاء حرصوا على استضافتهم، كي يضمنوا سلامتهم، جفا النوم القسّ، الذي ما انفكّت تجول في خاطره، أقوال المسؤولين البيض فيه وفي إخوانه، وكادت تخنقه المرارة. ولكنّه كان يطرد تلك الأفكار، موجدًا للبيض أعذارًا. فكثيرون منهم قد يكونون طيّبين، خيّرين بالفطرة، ولكنّ كلّ ما تعلّموه منذ طفولتهم، طيلةَ قرونٍ من العبوديّة والتمييز العنصريّ، وكلّ ما سمعوه من آبائهم ومدرّسيهم، وحتّى من رؤسائهم الدينيّين، كان يؤكّد لهم أنّ السود هم من طبقةٍ دنيا، رديئةٍ، تريد بهم شرًّا. وهذا ما كان يُردَّد على مسامعهم، في كلّ يومٍ، وفي كلّ لحظةٍ، وفي كلّ مكانٍ، إلى أن ولّدت هذه المزاعم تقاليد ضربت جذورًا عميقةً يصعب اقتلاعها.

وبعد ليلتَيْن، أُلقي إصبع ديناميت على حديقة منزل قسٍّ آخر، ولم يُلحق أذًى بأيّ شخصٍ، ولكنّه استدعى حشدًا غفيرًا، التزم الهدوء، وضبط النفس، والامتناع عن العنف.

وإثر تيْنك المحاولتَيْن الإجراميّتَيْن، شدّد أصدقاء القسّ كينغ وأبناء رعيّته على تأليف فريق حراسةٍ شخصيّةٍ، وكان جوابه التلقائيّ أنّه لا يخاف، ولا يحتاج إلى

حمايةٍ. غير أنّه، شيئًا فشيئًا، تقبّل فكرة الدفاع عن النفس، وطلب من مفوّض الشرطة رخصة حمل سلاحٍ في سيّارته. ولكنّ طلبَه رُفض. ومن المؤكّد أنّه حتّى لو رُخِّص له بحمل سلاحٍ، لم يكن مستعدًّا لاستخدامه، في أيّة حالٍ، انسجامًا مع مبدأ اللاعنف الذي كان يعلّمه ويدعو إليه.

وأخيرًا، اتّفق وزوجته على استبدال السلاح، بحرّاسٍ غير مسلّحين، وبتركيب كواشف ضوءٍ حول البيت، بشكلٍ دائمٍ. وتعهّد مارتن لوثر كينغ بالإقلاع عن التجوّل بمفرده داخل المدينة. وساعده على الالتزام بهذا التعهّد رفيق دراسةٍ، أصبح أستاذًا في معهد موسيقى مونتغومري، وحرص على مرافقته في كلّ مشوارٍ داخل المدينة، وفي مواكبة زوجته وابنته عندما تقصدان بيت ذوي الزوجة في ماريون، أو بيت ذوي كينغ في أتلانتا.

وطوال تلك الأزمة وقف إلى جانب كينغ أفراد رعيّته ومستشاروه، مع أنّ رعايته كانت قد اقتصرت على أيّام الآحاد، فيما استغرقت قضيّة السود كلّ أيّام بحر الأسبوع. وغالبًا ما أبعدته تلك القضيّة عن بيته، أيّامًا ولياليَ متعاقبةً. فتطوّعت نساء الرعيّة للوقوف إلى جانب زوجته، ولمساعدتها في أعمال المترل، والعناية بالطفلة، فيما كان رجالهنّ يتطوّعون لقيادة سيّارته، في تنقّلاته. ولم تشكُ الرعيّة، يومًا، من هذا الإهمال القسريّ، لمصلحة قضيّة السود أجمعين.

وفضلاً عن دعم أبناء رعيّته، كانت ترده رسائل تقول: "واصلوا كفاحكم، ونحن معكم مئةً بالمئة". وغالبًا ما كانت تلك الرسائل تحمل توقيع "صديق أبيض".

وبعد أن كانت التهديدات الهاتفيّة قد هدأت، فترةً قصيرةً، في أعقاب تفجير القنبلة في مترله، عادت، شيئًا فشيئًا، فاضطرّ كينغ إلى استبدال رقم هاتفه بآخر طلب إبقاءه مكتومًا.

وبعد أن فشل البيض في إنهاء مقاطعة الحافلات قسرًا، أشار إليهم محامٍ إلى وجود قرارٍ يجرّم كلّ محاولة عرقلة مشروعٍ عامٍّ. فالتأمت لجنةٌ قضائيّةٌ ضمّت سبعة عشر رجلاً أبيض، ورجلاً أسود واحدًا، وادّعت أنّ مقاطعة الحافلات تقع تحت طائلة ذلك القرار. ونظّمت قائمةً بمئة رجلٍ أسود، عُدّوا مخالفين لذلك القرار، واحتلّ اسم مارتن كينغ صدارة تلك اللائحة.

وكان مارتن لوثر كينغ، آنذاك، في مدينة ناشڤيل، يلقي سلسلة محاضراتٍ في إحدى الجامعات، حين بلّغه معاونه رالف أبيرناثي بهذا القرار، وأعلمه بأنّ التوقيفات ستبدأ منذ صباح الغد. فقرّر إرجاء محاضراته إلى موعدٍ آخر، وحجز مقعدًا في أوّل رحلةٍ جوّيّةٍ إلى مونتغومري. فقد اجتاحته الخشية من أن تؤدّي تلك التوقيفات إلى إيقاف حملة الإضراب عن استخدام الحافلات، وإلى تبدّد كلّ الآمال التي واكبت معاناة إخوانه مدى ثلاثة عشر أسبوعًا، من جرّ أو إنهاك أقدامهم بالسير، وتشغيل سيّاراتهم بأقصى طاقاتها، فضلاً عن المضايقات من كلّ نوعٍ، ومن عمليّات الإرهاب، ومن زجّ العديد منهم في السجون اعتباطًا. وساوره خوفٌ هاصرٌ من أن يملّ شعبه بذل تضحياتٍ عقيمةٍ، ومن أن يُكرِههم القنوط على التخلّي عن الحركة التي أضاءت لهم بصيص رجاءٍ في الخلاص.

في طريق عودته عرّج على أتلانتا كي يعود بزوجته وابنته الْلَتَيْن أودعهما في بيت والديه، أثناء إقامته في ناشڤيل. وكانتا تنتظرانه في المطار، ومعهما كان والدا مارتن. بدت زوجته هادئةً، ساجيةً. ولكنّ سحنتَي والديه كانتا تعبّران عن قلقٍ سحيقٍ.

لم يكن والده الجريء يحفل بما قد يصيبه شخصيًّا. ولكن، مذ أطلق ابنه حملة الدفاع عن حقوق السود في مونتغومري، لم يعد يعهد للراحة معنًى، وأمسى دائم

التنقّل بين أتلانتا ومونتغومري، كي يكون على مقربةٍ من ابنه وعيلته. بيد أنّه، مع كل رباطة جأشه، كان، كلّما ذُكر أمامه ما يتعرّض له ابنه وجماعة السود في مونتغومري من مؤامراتٍ واضطهاداتٍ، لا يقوى على حبس دموعه.

وحينئذٍ، حذّر الوالد ابنه من أنّ عودته، في الحال، إلى ساحة المعركة مناقِضةٌ للحكمة. وكان الوالد قد بُلِّغ أنّ سلطات ولاية ألاباما قد استفسرت من سلطات أتلانتا عن ماضي القسّ مارتن الابن، وعمّا قد يكون شابَهُ من مخالفاتٍ، تمهيدًا لطرده من الولاية. ولكنّ سلطات أتلانتا أجابت بأنّه لم تُسجّل بحقّه مخالفةٌ، قطُّ. ومع ذلك، ما انفكّ والده موقنًا أنّ سلطات ألاباما ستفعل كلّ شيءٍ للتخلّص منه. وكان مارتن الابن يؤيّد صواب رأي والده، ولكنّه لم يستطِع العمل بنصحه. فقد كان واقفًا بين خيارَيْن أسهلُهما قاتلٌ. كان ضحيّة صراعٍ حادٍّ، من جانبٍ، بين قلبه ورغبته في تجنيب والديه وزوجته القلق، ومن الجانب الآخر، واجبه الذي يفرض عليه الوقوف إلى جانب أبناء رعيّته وإخوانهم السود الذين استنفرهم إلى معركةٍ مُحقّةٍ، وغمسهم في أتّونٍ من المخاطر.

قُبَيْل ساعاتٍ كان والده قد استشار محاميًا أبيض تقدّميًّا في أتلانتا فنصحه بإقناع ابنه التلكّؤ في العودة إلى مونتغومري. وأراد والده الاستزادة في النصح فدعا إلى منزله نخبةً من رجال القانون والمجتمع في أتلانتا، منهم محامٍ طويل الباع في القانون، ورجلا أعمالٍ نافذان، وصاحب صحيفةٍ، وأُسقف كنيسةٍ أخرى، وعميد جامعةٍ في أتلانتا، رغبةً في التداول معهم في هذا الشأن.

واستمع مارتن الابن إلى آراء الموجودين المتباينة، فأثلجت صدره آراءٌ مؤيّدةٌ لموقفه، وفي الآن عينه، أصغى، باحترامٍ، إلى شخصَيْن حكيمَيْن انضمّا إلى رأي والده. ومع ذلك لم يقدر إلاّ أن يردّ عليهما بقوله: "لا يسعني إلاّ العودة إلى

مونتغومري، حيث السلطات دائبةٌ على اعتقال مساعديّ ورفاقي. ومن العار، ومن قمّة الجَبانة أن أبقى، أنا، بعيدًا، في مأمنٍ. إنّي أوثر عشر سنين سجنٍ على التخلّي عن شعبي في أزمته. أنا أطلقت الدعوة إلى النضال، ولا يسوغ لي أن أدير ظهري الآن، فقد بلغت مرحلة اللاعودة".

وفي الصمت الذي ساد إثر إعلانه قراره، شقّ عليه سماع نحيب والدته. أيّد قسمٌ كبيرٌ من الحضور موقفه. وفي سبيل تهدئة روع والديه، اتّصل بعضهم بمحامين قديرين في أتلانتا وألاباما، فأكّدوا أنّ الوضع ليس مخيفًا إلى حدّ الهلع، وأنّ لدى القسّ مارتن كينغ من الحصانات الحقوقيّة أمتنها. وأخيرًا سلّم مارتن الأب بقرار ابنه العودة إلى مونتغومري.

ولّما غادر الجميع عبّرت لمارتن الابن زوجته كوريتّا عن تأييدها التامّ لقراره، وعزمها على مساندته إلى أقصى الحدود، فأمسى أشدّ ثباتًا في تأهّبه لمواجهة كلّ ما قد ينتظره.

رافق والد مارتن ابنه إلى مونتغومري، متحدّيًا المخاطر التي قد تناله شخصيًّا. وعند وصولهم إلى مونتغومري، وفيما هم يغادرون السيّارة، أشعلت كاميرات التيليفزيون أضواءها، إذ كان صحافيّون حاذقون قد علموا بموعد عودة القسّ مارتن وذويه. وما لبث أن حضر رفيقه ومعاونه، القسّ رالف أبيرناتي، الذي كان قد اعتُقل في اليوم السابق وأُطلق سراحه بكفالةٍ، وبرفقته، ورفقة حشدٍ من أفراد الرعيّة توجّه مارتن كينغ الابن إلى السجن، حيث كان العديد من رفاقه ومعاونيه قد سلّموا أنفسهم تلقائيًّا، وحيث لم يكن للتوتّر أثرٌ، ولم يسعَ أحدٌ من المطلوب اعتقالهم إلى التهرّب. بل إنّ العديد من المناضلين السود قصدوا مكتب قائد الأمن، واستفسروا عن ورود أسمائهم بين المطلوب اعتقالهم، وخاب رجاء من لم تظهر أسماؤهم في اللائحة.

وفي موعد المحاكمة تقاطر أصدقاء القسّ من جميع أطراف البلاد، وحضر زملاء له من نيويورك، ونائبٌ أسود، وعشرات الصحافيّين ممثّلين صحفًا أميركيّةً، وهنديّةً، وفرنسيّةً، وبريطانيّةً. وفي خارج المحكمة احتشد آلاف السود، وقد علّق عددٌ منهم على صدر ستراهم صلبانًا حُفِر عليها قول المصلوب: "يا أبتِ، اغفر لهم".

على مدى أربعة أيّامٍ، لم يملّ المدّعي العامّ من إثبات مخالفة كينغ للقوانين، بسبب إطلاقه حملة الإضراب عن الحافلات. وفي المقابل لم يألُ محامو الدفاع الأربعة جهدًا في تعرية الادّعاء من مبرّراته القانونيّة، وفي تسويغ الإضراب. وأدلى نحو عشرين شاهدًا بسيطًا، صادقًا، بريئًا، بروايات عن معاناتهم الإذلال. وكانوا يحدّقون إلى القاضي بجرأةٍ، وكرامةٍ تفرضان الاحترام والتقدير. وقد أذهل العديد من تلك الشهادات بما أظهرت من قسوةٍ ووحشيّةِ سائقين بيضٍ، والشرطة التي تدخّلت، أحيانًا، لفضّ خلافاتٍ بين ركّابٍ سودٍ وسائقين بيضٍ، ففاقت السائقين وحشيّةً، ولم تتورّع عن قتل ركّابٍ سودٍ، دفاعًا عن نزوات السائقين، ولاأخلاقيّاتهم.

وقد أدهشت شاهداتٌ أمّيّاتٌ بجرأتهنَّ، وبذكائهنَّ في إظهار مواطن إجرام السائقين ورجال شرطة. ومع ذلك استهان القاضي بكلّ تلك الشهادات، وحكم على مارتن كينغ بغرامةٍ قدرها خمس مئة دولارٍ، فضلاً عن نفقات الدعوى، وبأعمالٍ شاقّةٍ، مدى ٣٨٦ يومًا في مدينة مونتغومري. وأكّد القاضي أنّ هذا الحكم هو الحدّ الأدنى، نظرًا إلى لأسباب التخفيفيّة، ولجهود المتّهم في تنزيه الإضراب من أعمال العنف.

أمّا المتّهمون المعتقلون الآخرون، الذين بلغ عددهم ٨٩ شخصًا، فقد أرجأ القاضي إصدار الحكم بحقّهم حتّى إصدار حكم الاستئناف بحقّ كينغ.

في غضون دقائق كان مبلغ الغرامة قد دُفع، وأعلن محامو كينغ عزمهم على استئناف الحكم. في قاعة المحكمة كان كثيرون يبكون. وآخرون كانوا يخرجون مطأطئي الرؤوس، خجلاً من افتقار القضاء إلى أدنى مبادئ العدالة.

أمّا القسّ نفسه، فكان يرثي لحال القاضي، متخيّلاً التمزّقات النفسيّة التي كانت تتجاذب نفسه، بين سخط الرأي العامّ المحلّيّ والدوليّ، على فداحة ظلم حكمه، وخوفه من رأي جماعة البيض، الذي كان يحتاج إلى أصواتهم، كي لا يفقد منصبه. وكان أثناء المحاكمة قد عامل القسّ بأقصى احترامٍ. وكان مارتن كينغ نفسه مقتنعًا بأنّ إصداره هذا الحكم كان سبيله الوحيد للنجاة بنفسه وبأسرته من مصيرٍ قاتمٍ. وفي الواقع ابتعد القاضي عن المدينة، عقب إصداره الحكم مباشرةً، ونأى بنفسه عن كلّ ردود الأفعال المتناقضة التي كان يتوقّعها.

ولّما غادر مارتن كينغ قاعة المحكمة بصحبة زوجته واجهه الصحافيّون ومصوّرو التيليفزيون بهتافٍ: "باركك الله يا مارتن"، فيما كانت الجماهير تهتف: "لن نستخدم الباصات أبدًا".

على نقيض المحكومين المدانين كان كينغ هادئًا، مبتسمًا. صحيحٌ أنّه أدين بارتكاب جريمةٍ، ولكنّه كان فخورًا بتلك الجريمة، إذ إنّه أُدين بدعم شعبه في انتفاضه على الظلم، وفي جهاده من أجل استعادة حقوقه، وكرامته، وحرّيّته، واحترام القوانين؛ أُدين لأنّه أكّد رفضه التواطؤ مع الشرّ والظلم، وذاد عن حياض الخير والعدل.

كان قد خُيِّل إلى البيض العنصريّين أنّ سياسة الاعتقالات والمحاكمات ستفضي إلى القضاء على حركة مقاطعة السود للحافلات، فوقعوا ضحايا نواياهم الشرّيرة، إذ إنّهم منحوا تلك المقاطعة دعمًا، ومزيدًا من الشرعيّة، ووطّدوا اللحمة بين مَن

جَمَعَتهم الآلام والمظالم، وصاغوا لهم مصيرًا مشتركًا، وغدا ما يصيب أيًّا منهم، يوجع ويثير كلاً منهم.

وفي الواقع كان القرار الذي أصدره القاضي كارتر، بعد ظهر ذلك اليوم من شهر آذار، قد تحوّل ملاطًا يشدّ جميع سود مونتغومري، في وحدةٍ منيعةٍ لا تُقهَر، وتستعصي على مؤامرات التفرقة.

هذا ما لم يتوقّعه غيظُ البيض وحَنَقُهم. فهم كانوا يتوهّمون أنّهم ما زالوا قادرين على التحكّم بالسود، عبيد الماضي الغابر، والعبَث بمصائرهم، وإذلالهم، وإخضاعهم لصَلَفهم، ونزواتهم الحمقاء. وغرب عن إدراكهم أنّ جماعة سود مونتغومري قد نفضوا عنهم غبار الخوف والخنوع.

وأمسى البيض العنصريّون يواجهون نمطًا جديدًا من السود، وجيلاً جديدًا من المواطنين المتشبّثين بحقوقهم وكرامتهم.

إنهاء تدابير الفصل العرقيّ

ربّما أسرف السود تواضعًا، في بدء حملتهم، واكتفوا باستنكار قوانين الفصل العرقيّ السائدة في الجنوب الأميركيّ، وبمعارضتها. غير أنّ تشدّد السلطات في قسوتها ووحشيّتها وإمعانها في جرائم الاغتيال والبطش، دفعا السود إلى تخطّي مطلب إلغاء الفصل في الحافلات، والبحث في عمق لاشرعيّة قوانين الفصل العرقيّ، ووضع حدٍّ لشتّى التعدّيات على حقوقهم الشرعيّة في شتّى نواحي الحياة العامّة، فأقاموا دعوى، بهذا الشأن لدى المحكمة الفيديراليّة العليا.

وعُقِدت الجلسة يوم ١٩٥٦/٥/١١، أمام ثلاثة قضاةٍ. وللمرّة الأولى تنشّق قادة السود نسمة ارتياحٍ وعزاء، بوقوفهم أمام قضاةٍ متحرّرين من الأحكام الاعتباطيّة المسبّقة، والنوايا العدائيّة، وملتزمين بالعدالة المتحرّرة من الضغوط. وتبيّن لأولئك القادة السود البوْن الشاسع بين تلك المحاكم الفيديراليّة، ومحاكم الجنوب، وداعب نفوسهم أمل الحصول على حكمٍ عادلٍ، بعد لأيٍ، وطول كفاحٍ.

محاموهم لدى المحكمة الفيديراليّة هم نفسهم الذين كانوا يدافعون عن قضاياهم أمام محاكم مونتغومري. وقد قدّموا براهين دامغةً ومقنعةً على مخالفة نظام الفصل العرقيّ للدستور الأميريكيّ. وقد بدأ أحدهم، وهو عضوٌ في "الاتّحاد الوطنيّ لتقدّم الملوّنين" (NAACP)، بإظهار بطلان بعض تدابير عهد العبوديّة التي ما زالت سارية المفعول، مثل اعتبار أهل الجنوب الأميركيّ "متساوين ولكن منفصلين". وكانت المحكمة العليا قد ألغت هذا التدبير في المدارس، ولكنّه ظلّ ساريًا في سائر مرافق الحياة العامّة. ولم يجد محامو ولاية ألاباما من اعتراضٍ على هذه الحجّة القانونيّة سوى ادّعاء أنّ إلغاء فصل السود عن البيض في الباصات قد يؤدّي إلى مجازر داميةٍ.

وردّ القاضي على ذلك الادّعاء بسؤالٍ: "وهل تجنّب إقدام مجرمٍ على ارتكاب جريمةٍ يُسوِّغ حرمان صاحب حقٍّ من حقوقٍ يضمنها الدستور". حينئذٍ، تنفّس مارتن كينغ الصعداء، وتوهّج في نفسه أمل الحصول على قرارٍ مُنصفٍ. وعقب مداولاتٍ استغرقت ثلاثة أسابيع، قرّر اثنان من القضاة الثلاثة أنّ تدابير الفصل العرقيّ في وسائل النقل العامّة هي مخالفةٌ للدستور. وفي الحال أعلن محامو سلطات ولاية ألاباما استئناف الحكم لدى محكمة البلاد العليا في مونتغومري.

لم يكن سود مونتغومري قد ربحوا القضيّة، بعدُ، وكان ما زال عليهم مواصلة الجهد، وانتظار أشهرٍ طوالٍ قبل بلوغ هدفهم.

في هذه الأثناء كان صديق كينغ ومساعده، رالف أبيرناثي، قد لحظ إرهاقه، فدعاه وزوجته إلى عطلة استجمامٍ في ولاية كاليفورنيا، مع زوجته. ولكن ما كادت تلك العطلة تبدأ حتّى انتهت. إذ أُنبئ كينغ أن قسًّا أسود كان عضوًا في "الاتّحاد الوطنيّ لتقدّم الملوّنين"، وحُجبت عنه هذه العضويّة في الانتخابات الأخيرة، أعماه الحنَق، فانتقم لنفسه، وقدّم انسحابه من الاتّحاد، وشنّ عليه حملةً شعواء، متّهمًا أعضاء مجلسه باختلاس التبرّعات لمصالحهم الشخصيّة.

وكانت تلك الاتّهامات كفيلةً بتجفيف موارد حملة السود الرامية إلى الاستغناء عن الحافلات العامّة. وكان من شأن منظّمات البيض استغلال تلك الاتّهامات من أجل المطالبة بتدقيق حسابات "الاتّحاد"، ومن ثمّ تجميد موارده.

عاد، إذن، كينغ في أوّل طائرةٍ إلى مونتغومري، واعدًا أصدقاءه وزوجته باستئناف العطلة معهم حالما تستقرّ الأمور في رعيّته وشعبه، وتسكن العاصفة التي أثارها القسّ المارق.

وحسب توقّعات كينغ كان التوتّر في أشدّه لدى سود مونتغومري، ونقمتُهم على القسّ الخائن شديدةً. كانوا يصفونه بالمجنون والمارق، وبيهوذا الأسود، وكان بعضهم يتحفّز للانقضاض عليه.

ومن جانبٍ آخر كانت صُحُف البيض قد سارعت إلى استغلال اتّهامات القسّ لزملائه، ونشرتها على غير اقتناعٍ بها، ولا تصديق لها.

واستطاع كينغ بحنكته، وصواب تدبيره، حمل القسّ المارق على إعلان زيف كلّ ادّعاءاته وبطلانها، وإلى استغفار المجلس وأعضائه، وتأكيد نزاهتهم، والتماس صفح المناضلين السود. ونجح كينغ، أيضًا، في إحياء روح اللاعنف النفسيّ، وإعادة حبك أواصر المحبّة والتضامن، والتآخي.

وبالإجمال، تغلّبت المحبّة على الشحناء، وفي حين توقّع كُثرٌ أن تقضي تلك المحنة على الاتّحاد، أسهمت المحنة في تعزيز الثقة به، وفي توطيد روح التسامح والتضامن بين أعضائه.

وفيما كان الجميع ينتظرون، بقلقٍ، قرار المحكمة العليا النهائيّ، دأب اتّحاد البيض على تكثيف الضغوط على الأدوات المستخدمة من قِبَل السود من أجل الاستمرار في إضرابهم عن الحافلات. فدفعوا شركات تأمينٍ إلى إلغاء عقود تأمين وسائل النقل البديلة التي لجأ إليها السود بحجّة تفاقم أخطارها. فاستعاض السود عن شركات التأمين المحلّية بشركة "لويدز" العالميّة في لندن، التي لم تمانع في تأمين مركباتهم.

وكلّما أحرز السود تقدّمًا، كان البيض العنصريّون، بزعامة عمدة المدينة يسارعون إلى إقرار قوانين تُضعف قدرات السود. فطالبوا بإصدار قوانين تجرّم

السيّارات الخاصّة، بتهمة نقلِ عمّالٍ، بانتظامٍ، من مراكز تجمّعاتهم، مع أنّ هذا النقل كان مجّانيًّا. وكان بتّ القضاء في شرعيّة هذا الطلب سيتمّ في ١٩٥٦/١١/١٣. واحتياطًا لهذا القرار، دعا مارتن كينغ إلى اجتماعٍ كي يُطلع جمهوره على ما يُحاك بحقّه، ويُعدَّه، نفسيًّا، للعواقب السلبيّة المحتملة، ولكي يبحثوا، معًا، عن بدائل تمكّنهم من مواصلة الإضراب عن الحافلات التي تُذِلّهم. وكانت قد شرعت تساوره مخاوف من وصول كفاح السود الطويل والمرهق إلى هزيمة الاستسلام للقوّة الغاشمة، وهدر كلّ التضحيات الموجعة التي بُذِلت.

وحرص مارتن كينغ، في ذلك المساء، على إحاطة شعبه علمًا بكلّ المصاعب المتوقّعة، وعلى إبقاء شعلة الرجاء ملتهبةً في نفوسهم. وخاطبهم بقوله: "قد تكون الساعات القادمة هي المرحلة الأشدّ قتامًا قبل انبلاج الفجر. خلال الأشهر الماضية تسلّحنا بجرأة الإيمان أنّ الله معنا، وأثبتت الأحداث صحّة هذا الإيمان. فعلينا المثابرة، بنفس هذا الإيمان، وبهذا اليقين عينه".

غير أنّه، مع جهده في شدّ الهمم، شعر أنّ قشعريرة ذعرٍ، قطبيّة البرودة، سرت في القلوب، وجعلت الجميع يتخيّلون اجتياز نفقٍ دامس الظلمة، شحبت داخله بارقة الأمل، وناس نبراس الإيمان، وازدادت وطأة الشكّ ضراوةً.

وبعد أيّامٍ قليلةٍ، استُدعي مارتن كينغ إلى المحكمة، بصفته مسؤولاً عن "الاتّحاد من أجل تقدّم مونتغومري" (MIA)، ومثل أمام القاضي المعادي للعدالة نفسه، الذي طالب الاتّحاد بالتعويض عن خسائر حافلات النقل العامّ، من جرّاء مقاطعة السود لها، وقُدِّرت تلك الخسائر بخمسة عشر ألف دولارٍ. وألصق القاضي بالاتّحاد تهمة الإضرار إلى المجتمع، وبكونه مؤسّسةً خاصّةً، تعمل بلا ترخيصٍ. وفيما كان محامو الدفاع يردّون على اتّهامات القاضي، مؤكّدين أنّ ما حدث هو

تطوّعٌ مجّانيٌّ، بقصد مساعدة عمّالٍ على المضيّ إلى أماكن عملهم، والعودة منها، توقّفت المحاكمة، فجأةً، عند الظهر، ولوحظت حركةٌ غير طبيعيّةٍ: محامون يخرجون ويعودون متجهّمين، وخروج العمدة ومفوّض الشرطة، ومحاميَي البلديّة. وتجلّى التأثّر على وجوه الصحافيّين، فقال مارتن كينغ للمحامين المحيطين به: "إنّ هناك أمرًا غير عاديٍّ". وما كان يفرغ من قوله حتّى جاءه مراسل وكالة أنباء "يونايتد برس"، وقدّم له ورقةً، قائلاً: "هذا هو القرار الذي تنتظره. اقرأ هذا التصريح".

وبقلبٍ يضجّ مزيجًا من قلقٍ وأملٍ قرأ: "إنّ المحكمة العليا في الولايات المتّحدة، قد أثبتت، على لسان ثلاثة قضاةٍ، لادستوريّة قوانين ولاية ألاباما التي تُلزِم الفصل العرقيّ في الحافلات...".

الساعة التي طالما خشي مارتن كينغ أن تكون الأشدّ قتامًا في تاريخ نضاله، تحوّلت ساعةَ نصرٍ. فرحه كان طاغيًا. فهرع إلى طرف القاعة كي يزفّ البشرى إلى زوجته ومساعديه. وفي خلال ثوانٍ اطّلعت المحكمة على القرار، وتجلّى على وجوه السود اليقين بأنّ الله معهم. وهتف أحدهم: "إنّ الله العليّ تكلّم من واشنطن!".

ومع ذلك أصدر القاضي "كارتر"، في ذلك المساء حكمًا حظر استخدام وسائل النقل الخاصّة، استعاضةً عن الحافلات. في حين كان السود قد أحرزوا حكمًا من أعلى المراجع القضائيّة بوجوب إلغاء الفصل العرقيّ في تلك الحافلات.

ويبقى يوم ١٩٥٦/١١/١٣، في تاريخ مونتغومري، تاريخ قرارَيْن متناقضَيْن: قرار سلطاتٍ محلّيّةٍ يحظر استخدام السود لوسائل نقلٍ خاصّةٍ بديلةٍ عن الحافلات، وقرارٍ فيديراليٍّ يلغي مبرّرات القرار المحلّيّ، ويُبطل العمل بالفصل العرقيّ، الذي دفع السود إلى العزوف عن الحافلات.

وسارع مارتن كينغ فدعا شعبه إلى اجتماع في اليوم التالي، كي يناشدهم بإنهاء مقاطعة الحافلات، مع التمهّل ريثما تتبلّغ سلطات مونتغومري قرار واشنطن، في غضون أيّامٍ معدوداتٍ.

وفي الكنيستَيْن اللتَيْن التقى فيهما السود، تلبيةً لدعوة كينغ، تفجّر فرح الثمانية آلاف مؤمنٍ، تراتيلَ صادحةً، لم يُسمَع لها مثيلٌ قطّ. وفي إحدى الكنيستَيْن تلا كاهنٌ كاثوليكيٌّ أسود نشيد المحبّة الوارد في رسالة القدّيس بولس إلى أهل كورنثس. ولدى تلاوة نهاية ذلك النشيد القائلة: "ثلاثةٌ تبقى: الإيمان والرجاء، والمحبّة"، ضجّ الجمهور بهتافات البهجة والتأييد. وترسّخ اليقين لدى مارتن كينغ بأنّ شعبه الذي عانى مآسي أشرس اضطهادٍ وإذلال، وظلّ مع ذلك، متسلّحًا بالمحبّة، قد تمرّس باللاعنف.

وكان صحافيٌّ أبيض قد تساءل: "أليس من المستغرب أن يقابِل شعبٌ أقوال الكتاب المقدّس بهذا الصخب؟". وردّ عليه رالف أبيرناتي، صديق مارتن كينغ ومعاونه: "أَوَلم يكن مستغربًا مشهدُ قومٍ يسيرون تحت المطر والثلج، فيما الحافلات تمرّ بقربهم، فارغة المقاعد؛ وأليس مستغربًا أن يُصلّي مضطهَدون من أجل من يضطهدونهم، وأن يحدّق رجلٌ أسود، في الجنوب الأميركيّ، إلى وجه رجلٍ أبيض، تحديق الندّ إلى الندّ؟".

غير أنّ براكين السخط أفقدت عصابة البيض المتطرّفين المعروفة باسم "كو كلاكس كلان" صوابَها، فهدّدت بارتكاب فظائع في أحياء السود. وبعثت برسائل تهديدٍ إلى القسّ مارتن لوثر كينغ، تتضمّن مثل هذه العبارات: "إذا سمحتم لزنوجكم بالجلوس على المقاعد الأماميّة في الباصات العامّة، فسنحْرق خمسين بيتًا لسودٍ، ومنها بيتك، في هذه الليلة". ولم ينجُ من التهديد أحد قضاة المحكمة العليا، حالما ظهر في مونتغومري.

ولكنّ ردّة فعل السود، في تلك المناسبة، كانت مذهلةً. ففي السابق كانوا إزاء مثل هذه التهديدات الإرهابيّة يُصابون بالذعر، ويتوارون خلف أبواب بيوتهم، مُحكَمة الإيصاد، ووراء متاريس، قابعين في العتمة. بيد أنّ تلك الليلة أسفرت عن مشهدٍ بطوليٍّ غير مألوفٍ. فقد أبقى السود أبواب بيوتهم مشرعةً، ومشعشعةً بالأنوار. ولم يخشَ بعضهم من الوقوف على الشرفات، يتفرّجون على نحو أربعين سيّارةً تكدّس فيها إرهابيّون مقنّعون، عبروا الشوارع صامتين، وكأنّهم يمثّلون مشهدًا في فيلمٍ صامتٍ، وعادوا إلى أوكارهم خاسئين، من خلال أحياءٍ جانبيّةٍ.

وطرأت، آنذاك، معضلةٌ غير متوقّعةٍ. فقد تلكّأ تبليغ قرار المحكمة الفيديراليّة العليا إلى سلطات مونتغومري، وقيل إنّ التأخير قد يستغرق شهرًا. وفي هذه الأثناء كانت سلطات مونتغومري العنصريّة قد حظرت نقل العمّال السود من أماكن تجمّعهم. ولكن سرعان ما تفتّقت عبقريّة السود عن حلٍّ. فأنشأوا في كلّ حيٍّ، تعاونيّةً، وتعهّد مالكو سيّاراتٍ خاصّةٍ، في كلّ حيٍّ، على نقل جيرانٍ لهم مجّانًا إلى أماكن عملهم وإعادتهم منها، وبقيت مقاعد الحافلات فارغةً.

ومع ذلك حرص قادة السود على إبقاء روح اللاعنف والمحبّة، حيًّا في نفوس أبناء شعبهم، فدأبوا على مناشدتهم، أثناء اجتماعاتهم المتلاحقة، الالتزام باللاعنف، مادّيًّا ونفسيًّا، وحذّروهم، عند عودتهم إلى استخدام الحافلات، من إبداء أيّ مظهر انتصارٍ، ومن الانسياق إلى كلّ اعتدادٍ واستفزازٍ، بل فليعكفوا على الجلوس، صامتين، على أوّل مقعدٍ خالٍ يجدونه، وكأنّهم يقومون بعملٍ بدَهيٍّ. ونظّموا في الكنائس تمارين على تلك الممارسة الجديدة، غير مستبعدين لجوء أفرادٍ بيضٍ إلى العنف، ومظهرين كيفيّة مواجهته بهدوءٍ، وصبرٍ، وضبط نفسٍ، ومحبّةٍ.

ومع دنوّ أوان تطبيق إلغاء الفصل العرقيّ جال القادة السود في الجامعات، والمعاهد العليا، والمدارس، مشدّدين الدعوة إلى التزام اللاعنف، والنأي عن الاستفزاز والتحدّي. ووزّعوا نسخ منشورٍ أعدّه قسٌّ أبيض، منتظمٌ في حركة المصالحة، جاء فيه:

١- ليس جميع البيض معارضين للدمج في الحافلات. فلا تغفلوا النوايا الطيّبة التي يبرهن عنها كثيرون منهم.

٢- بعد الآن، الجميع يستطيعون استخدام كلّ أماكن الحافلات. فاجلسوا في الأماكن الخالية.

٣- استعينوا بالروح القدس، والتزموا باللاعنف، قولاً وفعلاً، عندما تهمّون بالصعود إلى الحافلات.

٤- فلتعكس كلّ أعمالكم هدوء سود مونتغومري، وكرامتهم.

٥- حافظوا دائمًا على قواعد التهذيب، وحسن السلوك.

٦- تذكّروا أنّ هذا اليوم ليس يوم نصرٍ للسود فقط، بل لمونتغومري بأجمعها، وللجنوب. فتفادوا كلّ تحدٍّ.

٧- كونوا هادئين، وفي الآن عينه، ودودين. كونوا فخورين بلا عجرفةٍ، وفرحين بلا مغالاةٍ.

٨- ليكن لديكم القدر الكافي من المحبّة من أجل احتمال الشرّ، والقدر الكافي من الفهم من أجل تحويل العدوّ إلى صديقٍ.

ومن نصائحه العمليّة:

- لا تجلس، عن قصدٍ، إلى جانب راكبٍ أبيض، ما لم يكن هو المكان الوحيد الخالي.

- عند جلوسك إلى جانب راكب آخر أبيض أو أسود، قلْ: "عذرًا"، "عن إذنك".
- إذا شُتِمتَ لا تردّ بشتيمةٍ، وإذا دُفعتَ بعنفٍ، فلا تدفع الآخرين، وإذا ضُرِبتَ، فلا تضرب، بل برهن، في كلّ مناسبةٍ، عن محبّتك وطيبتك.
- في الأيّام الأولى حاول استصحاب رفيق رحلةٍ، مترسّخًا في اللاعنف، كي يؤازرك، ولكي يُساند أحدكما الآخر، بنظرةٍ أو بصلاةٍ...
- إذا وجدت أنّ ما يُطلَب منك مفرطٌ في المشقّة، فاستمرّ في استخدام قدميك أسبوعًا أو أسبوعين.

ولكن، مع كلّ جهود القادة السود لنشر جوّ التسامح والتآخي والهدوء، إثر صدور قرار دمج جميع المواطنين في الحافلات، لم يُبدِ القسّيسون البيض سوى محاولاتٍ خجولةٍ، في هذا الميدان، وظلّ معظمهم غير مبالين بتحقيق دمجٍ عادلٍ وأخويٍّ.

وفشلت منظّمة "رجال مونتغومري" المؤلّفة من رجال أعمال بيضٍ دعموا كفاح السود في سبيل إلغاء الفصل العرقيّ ضمن الحافلات، في إصدار بيانٍ يدعو إلى الترحيب بقرار المحكمة العليا بهذا الشأن، وإلى تطبيقه تطبيقًا حضاريًّا، وذلك من جرّاء رفض بضعةٍ من أعضائه التوقيع عليه.

أمّا "مجلس المواطنين البيض" فقد أثبت مدى تعصّبه وتشدّده، من خلال إنذارٍ جاء فيه: "كلّ محاولةٍ لتطبيق قرار المحكمة الفيديراليّة العليا ستجرّ إلى مجازر".

وفي هذا السياق عينه أصدرت سلطات مونتغومري، بتاريخ ١٩٥٦/١٢/١٨، بيانًا، أسفرت فيه عن ازدرائها للعدل، فقد جاء فيه:

«لقد كان للقرارات الصادرة بشأن الحافلات عواقب خطيرةٌ على عادات المواطنين. فليس من السهل العيش مدى سنواتٍ تحت نظامٍ يُعَدّ دستوريًّا، ثمّ يُلغى، فجأةً، لأسبابٍ پسيكولوجيّةٍ... إنّ المجلس البلديّ (ونحن نعلم أنّ الشعب

كلّه يشاركه الرأي والشعور) لن يتنازل، ذرّةً واحدةً، وسيفعل كلّ ما يسعه فعله، كي يقاوم خلط فصيلة السود بفصيلة البيض في مونتغومري، وفاءً لخلق الله ومشيئته، وسيُقاوم بعنادٍ، المساواة الاجتماعيّة، والزواجات المختلطة، وكلّ محاولةٍ لمزج العروق المتباينة».

ولّما بُلِّغت، أخيرًا، سلطات مونتغومري قرار المحكمة الفيديراليّة العليا، وحان أوان القضاء على عهد امتهان العدل، ودوس الحقيقة، ودفن المحبّة المسيحيّة، للشروع في تطبيق المساواة في الحافلات العامّة، بلا فصلٍ إكراهيٍّ، وبلا إهاناتٍ، حرص مارتن لوثر كينغ، مجدّدًا، على تحذير شعبه من التسرّع في التباهي بالنصر. فقد كان يتوقّع صعوبةَ تقبُّل البيض نظامًا جديدًا ينسف كلّ مفاهيمهم، وعاداتهم، فدعا إلى الهدوء، والتحلّي بالكرامة والحنكة، وضبط النفس، وناشدهم الإعراض عن كلّ عنفٍ يُطيح بما أحرزه اثنا عشر شهرًا من الكفاح والتضحيات، ويدمّر صرح البطولة والكرامة الذي أشادته ممارسة اللاعنف، مشدّدًا على ضرورة الاستمرار في هذا النهج الكفيل بتحويل الأعداء إلى أصدقاء، وتفضيل روح المصالحة على المواجهة، حتّى يبسط فجرٌ جديدٌ أنوار العدل والحرّيّة، ويبدّد قتام اللاإنسانيّة.

كان فرحه بوحدة السود وبما آتته من ثمارٍ طاغيًا، ولكن خالطته خشيةُ أن تعكّره مقاومةُ البيض للقرار الفيديراليّ.

واحترازًا لذلك، ناشد مارتن لوثر كينغ زملاءه القسّيسين مواكبة أبناء رعاياهم، في ساعات الازدحام، صباحًا ومساءً، عند استخدامهم الحافلات، ذهابًا إلى عملهم، وعودةً منه، من أجل تلطيف الأجواء، ولجم الأهواء، والحؤول دون الصدامات التي قد تنشأ من جرّاء تمرّد البيض على جلوسهم إلى جانب السود، أو جلوس السود إلى جانبهم، وتولّى هذه المهمّة قسّان في كلّ خطّ حافلاتٍ.

وضرب هو المثل، فاتّفق مع ثلاثةٍ من زملائه على ركوب الباصات الأولى، صباح يوم جمعةٍ. وخرجوا، هم الأربعة، من منزله، عند الساعة السادسة إلاّ خمس دقائق، وتوجّهوا إلى موقف الباصات، تحت أضواء العديد من كاميرات التيليفزيون، وأنظار الصحافيّين. وكان مارتن كينغ الصاعد الأوّل إلى الحافلة الأولى، وسرعان ما جلس إلى جانبه قسٌّ جنوبيٌّ أبيض، وواكبتهم أفواج الصحافيّين، ومصوّري التيليفزيون. وفي وسط المدينة انتقلوا إلى حافلة أُخرى تخدم أحياء بيضٍ. وتقاطر الركّاب بهدوءٍ، ولكأنّ الأمر طبيعيٌّ.

ولكن ما لبثت أن نشبت اعتراضاتٌ. فقد أذهل المنظر فئةً من البيض، استنكروا جلوس سودٍ على المقاعد الأولى، وكأنّهم يتلقّون طعنةً في كرامتهم. وأبى رجلٌ أبيض مُسنٌّ الجلوس بين السود، فظلّ واقفًا إلى جانب السائق، طيلة المشوار، مع وجود مقاعد خاليةٍ كثيرةٍ. ولّما نُصِح بالجلوس في الخلف، أجاب: "أُفضّل الموت والذهاب إلى جهنّم على الجلوس خلف "زنجيٍّ". وكانت سيّدةٌ بيضاء أخرى قد جلست بلا انتباهٍ، إلى جانب رجلٍ أسود، وما إن تنبّهت للأمر حتّى نهضت غاضبةً، متمتمةً: "ما عسى أن يخترع لنا الزنوج، بعدُ؟". ولّما همّت سيّدةٌ سوداء بالجلوس إلى جانب رجلٍ أبيض، عاجلها بصفعةٍ رنّانةٍ، ولكنّها ضبطت أعصابها، وجلست بهدوءٍ، ولم تردّ على المعتدي. واعترفت، لاحقًا: "لم يكن أسهل عليّ من أن ألوي عنق ذلك المسخ. ولكنّي مساء اليوم السابق، استمعتُ إلى القسّ كينغ، ووطّنت نفسي على العمل بإرشاده".

ما عدا هذه الأحداث الطارئة، انقضى يوم الاندماج الأوّل هادئًا، عمومًا، وشوهد العديد من البيض يجلسون إلى جانب سودٍ، بطيبة خاطرٍ، وقد افترّت شفاههم عن بسمة مودّةٍ.

بيد أنّ المتشدّدين البيض الذين كانوا قد هدّدوا بأنّ الدمج سيؤدّي إلى مجازر. لم يستسلموا بسهولةٍ، وحرصوا على إثبات أنّ تهديداتهم ليست كلامًا في الهواء. وتواطأ معهم موظّفون رفيعو المراتب، خفيةً.

وابتداءً من ١٩٥٦/١٢/٢٨، تفجّرت أعمال العنف، وعمد المتطرّفون إلى إطلاق النار على الحافلات، ولا سيّما في الأحياء غير المضاءة إضاءةً جيّدةً. فقُتِلت فتاةٌ سوداء، عند انحدارها من حافلةٍ، وأُطلق الرصاص على سيّدةٍ سوداء حاملٍ. وقرّر المجلس البلديّ منع سير الحافلات بعد الساعة الخامسة مساءً. وربّما قصد البيض، من خلال هذا التدبير، إيقاع العديد من العمّال السود في أزمةٍ.

ولم يقتصر المتشدّدون البيض على إرهابهم المجرم، بل عمدوا إلى حيلةٍ حقيرةٍ، فوزّعوا منشوراتٍ ادّعوا أنّها صادرةٌ عن سودٍ معارضين، حشوها تحريضًا على القادة السود، وفي طليعتهم القسّ كينغ. وحملت تلك المنشورات توقيعًا مزيّفًا: "سودٌ ضاقوا ذرعًا".

وقد جاء في أحد تلك المنشورات، نُسب إلى أسود باسم "مارتن": "كلّما استقللنا حافلةً يوجد فيها القسّ كينغ، نتعرّض لإطلاق الرصاص. إنّه يجتلب لنا، كلّ يومٍ مصائب جديدةً. فاستيقظوا، وأبعدوه عن مونتغومري".

وجاء في منشورٍ آخر: "قبل ولادة هؤلاء الواعظين مجهولي المنشأ، كان كلّ شيءٍ في مونتغومري يسير على خير ما يرام. اسألوا والد القسّ كينغ وجدّه، هل يؤيّدان تصرّفاته الرعناء، وهل يدعمان مثل عمله في أتلانتا. إنّ الحكمة تقضي التخلّص منه، قبل فوات الأوان".

وبعد فترةٍ وجيزةٍ، قصد القسّ مارتن لوثر كينغ، وزميله رالف أبيرناثي أتلانتا من أجل إعداد اجتماعٍ للسود كان مارتن كينغ قد دعا إليه في مطلع عام

١٩٥٧. وعند منتصف تلك الليلة عينها، أيقظهما هاتفٌ من زوجة القسّ "أبيرناتي"، أنبأته به أنّ منزلهما قد نُسِف بالمتفجّرات، وأنّ أربعة انفجاراتٍ سُمِعت في أماكن لم نستطع تحديدها. وما لبثت أن هاتفته ثانيةً، كي تُعلِمه أنّ الكنيسة التي يرعاها قد نُسِفت، هي أيضًا". فعكف القسّان على الصلاة ملتمسَيْن قوّة الله، كي يمكّنهما من متابعة رسالتهما. وبين الساعة الثالثة فجرًا والساعة السابعة صباحًا توالت الهواتف، منبئةً بنسف ثلاث كنائس أخرى للسود.

وحرص القسّان على إجراء اتّصالاتٍ بأعوانهما في مونتغومري، ودعوتهم إلى ضبط النفس، والحؤول دون نشوب ردود فعلٍ عنيفةٍ، ومنع انفجار الفتنة التي ابتغاها المجرمون. ثمّ أوكلا إلى أصدقاء، متابعة إعداد اللقاء المقرّر في أتلانتا، واستقلاّ الطائرة الأولى المتوجّهة إلى مونتغومري.

ومنذ الوهلة الأولى هالهما الدمار الذي حلّ بمنزل أبيرناتي، وتفقّدا الكنائس المدمّرة، والجموع المحتشدة أمامها، جاهدةً في الحفاظ على هدوئها.

وحملت صحف ذلك اليوم، الناطقة باسم أشخاصٍ بيضٍ تنديدًا عنيفًا بالأفعال الإجراميّة التي ارتُكبت، وظلّت التصريحات الشاجبة تتوالى على شاشات التيليفزيون طيلة النهار. وانضمّ إلى حملة التنديد كثيرون من البيض الذين كانوا يناصرون نظام الفصل العنصريّ في الحافلات، ومع ذلك، استفظعوا تلك الجرائم.

هذا الموقف أعاد إلى قادة السود شيئًا من الطمأنينة، والكثير من العزيمة على مواصلة الكفاح من أجل استعادة حقوق بني جلدتهم.

مساء ذلك اليوم عينه عاد كينغ إلى أتلانتا، كي يثبت وجوده في اجتماع قادة سود الجنوب الأميركيّ، حيث كانت قد أُنشِئت مؤسّسةٌ دائمةٌ هدفها انتهاج حركةٍ

لاعنيفةٍ تسهر على حسن تطبيق قرار المحكمة الفيديراليّة العليا التي أدانت الفصل العرقيّ في وسائل النقل العامّة، وأُطلِق على تلك المؤسّسة اسم "مؤتمر القيادة المسيحيّة في الجنوب الأميركيّ". وانتخب ذلك المؤتمر القسّ كينغ رئيسًا له.

ولّما عاد إلى مونتغومري، صُدِم بما حدث خلال سوَيْعات غيابه. فبحجّة الحؤول دون الصدامات الدامية، كانت السلطات المحلّيّة قد أوقفت سير الحافلات، موقِعةً السود في أزمةٍ قاتلةٍ. واجتاح نفسَ القسّ مارتن كينغ شعورٌ مضنٍ بارتداد كلّ ما كافح في سبيله وبالاً عليه وعلى قومه، وخشي تصديقهم تخرّصات المناشير التي ادّعت أنّه سبب كلّ ويلات السود. وطاف ببابه، كلّ ما يتعيّن عليه وعلى زملائه من كفاحٍ متجدّدٍ من أجل إعادة الحافلات إلى عملها، وتيسير عيش العمّال. غير أنّه كان ضحيّة شكٍّ ممضٍّ في سلامة كلّ ما سعى إليه، وبهظت نفسه مسؤوليّة كلّ ما حدث، وما كبّد رعيّته وإخوانه من متاعب.

في هذا الوضع النفسيّ اعتلى مارتن المنبر، لافتتاح جلسة المؤتمر الأولى، وبغتةً اعتراه نوعٌ من الانهيار، على مرأى الجميع. وكان قد افتتح اللقاء بهذه الصلاة: "يا ربّ، لا تسمح بأن يدفع أحدٌ حياته، ثمنًا لكفاحنا في سبيل الحرّيّة. أنا نفسي لستُ راغبًا في الموت، ولكن إن كان لا بدّ من أن يموت أحدٌ فلأكن أنا الضحيّة". وفي الحال دوّت القاعة بهتافٍ: "لا، لا". وانبرى اثنان من زملائه إلى المنبر، وطلبا منه الجلوس، وأمسك كلٌّ منهما بإحدى ذراعيه كي يقتاداه إلى مقعدٍ، ولكنّه لبث، فترةً، لا يقوى على الحركة. وأوحى هذا الحدث لصحافيّين إعلان إصابته بإغماءٍ.

وفي اليوم التالي، تلقّى مارتن لوثر كينغ وابلاً من تأكيدات التضامن مع حركته، والحرص على صلابة وحدة السود. وساد المدينة، طوال أيّامٍ، هدوءٌ نسبيٌّ، واستعادت الحافلات سيرها يومين في الأسبوع.

ولكن سرعان ما استعاد العنف جنونه، وفُجِّر، لأسبابٍ ظلّت مجهولةً، مركزٌ اجتماعيٌّ، ومنزل رجلٍ أسود، في الستّين من العمر، يعمل في مستشفًى.

وفي ذلك اليوم عينه، اكتُشِفت، أمام منزل مارتن كينغ، قنبلةٌ معدّةٌ للتفجير، مصنوعةٌ، صنعًا بدائيًّا، من اثنَي عشر قضيب ديناميت. ولكن، لحسن طالعه، كان القسّ، يومذاك، في الطرف الآخر من المدينة، وكانت زوجته وابنته لدى ذوي زوجها في أتلانتا. وأُحيط كينغ، هاتفيًّا، بأمر القنبلة. وفي طريق عودته إلى منزله تفقّد الأماكن التي فُجِّرت، وقد تجمّعت من حولها جماهير غاضبةٌ. وشهد سيّارة شرطةٍ تقتاد رجلَيْن أسودَيْن بتهمة التحريض على الفتنة، لمجرّد تساؤلهما عن تخاذل الشرطة في ملاحقة مرتكبي التفجيرات. ومع ذلك، ظلّت الجماهير، في ذلك اليوم، هادئةً، تجترّ معاناتها صامتةً.

ومن شرفة منزله حيث كانت وُجِدت القنبلة المعدّة للانفجار، خاطب كينغ الجماهير المحتشدة، قائلاً:

«لا شيء يبرّر الردّ على العنف بالعنف. لستُ أجهل صعوبة الالتزام بهذا المبدأ، ولا سيّما أنّنا قد تعرّضنا لعشر محاولاتٍ إجراميّةٍ. فالمسيح يقتضي منّا انتهاج درب الصليب، موقنين بأنّ تحمّل ألم الظلم هو سبيل خلاصنا».

وسرعان ما أوحت الأجواء أنّ المدينة مقبلةٌ على فوضى عارمةٍ مدمّرةٍ. فوطّنت السلطات عزمها على تعقّب المجرمين واعدةً بجوائز ثمينةٍ لمن يكتشفهم. وبنتيجة هذا التدبير أُلقي القبض على سبعة مجرمين، وسرعان ما أُخلي سبيلهم بكفالاتٍ تراوحت قيمتها بين مئتين وخمسين دولارًا، وثلاثة عشر ألف دولارٍ. ولم تسعَ المحكمة المحلّيّة إلى استدعاء شهودٍ، والاستماع إلى شهاداتهم، بل أرسلت الملفّ إلى هيئة المحلّفين العليا في المقاطعة، التي أطلقت سراح اثنين من المتّهمين لعدم ثبوت الأدلّة، وأدانت خمسةً منهم.

ثمّ عُقِدت الجلسة، وكان قضاتها هم الذين سبق لهم أن أدانوا، افتئاتًا، القسّ كينغ لسنةٍ خلت. ولّما دعي القسّ إلى الشهادة كانت قد أُعدّت مجموعة اتّهاماتٍ له بالتحريض على العنف، وادّعاءاتٌ كاذبةٌ بشتم البيض، وبشتّى الأكاذيب المفضوحة. وكان محامو المتّهمين قد عقدوا اتّفاقًا مع المحكمة، يقضي باعتراف المجرمين بجرائمهم مقابل تبرئتهم.

وخرج المجرمون ضاحكين. وكانت المسرحيّة القضائيّة مهزلةً، ووصمة عارٍ في جبين العدالة.

ومع ذلك استعادت الحافلات سيرها، منفّذةً الدمج العنصريّ. واكتسبت الأحوال، يومًا فيومًا، استقرارًا وهدوءًا.

نتائج حركة مونتغومري

طالما سُئل مارتن كينغ عن حال مونتغومري، بعد إلغاء نظام الفصل العرقيّ في الحافلات. وكان يحار بما يجيب، فقد امتزجت النتائج الإيجابيّة الرائعة، بمقاومةٍ عنيدةٍ، وعوائق كأداء. فلم يتوقّف بيضٌ متطرّفون، لم يهضموا واجب جلوسهم إلى جانب من كانوا يصفونهم بـــ "الزنوج"، عن أعمالهم الإجراميّة والإرهابيّة، وما انفكّ بعض السود، ولا سيّما المسنّين منهم يحذرون الجلوس في المقاعد الخالية بالقسم الأماميّ الذي طالما كان حكرًا على البيض. في حين تقبّلت فئة الشبّان، من اللونين الدمج بلا حرجٍ. وغدا سائقو الحافلات أكثر ترحيبًا بالسود، واحترامًا لهم، مع أنّ إدارة شركة الحافلات التي وعدت بتوظيف سائقين سودٍ، قد تلكّأت في تنفيذ وعدها.

ومع ذلك، كان سير الحافلات الملتزمة بالدمج، يكتسب، يومًا فيومًا، مزيدًا من السلاسة، وأمسى بوسع مارتن لوثر كينغ القول إنَّ وضع المدينة غدا أفضل ممّا كان. وشرعت المحاكم تُصدِر أحكامًا أكثر إنصافًا، في قضايا الخلافات الناشبة بين العرقَيْن.

وأخيرًا، اقتنعت شركة الحافلات أنّ الدمج هو لمصلحتها، فأزالت من حافلاتها كلّ اللافتات التي كانت تشير إلى الأماكن المخصّصة لكلّ فئةٍ، وأوعزت إلى موظّفيها التعامل بكياسةٍ مع الجميع بلا تفريقٍ.

وكان لحرص القادة السود على الدعوات المستمرّة إلى الالتزام بمبدأ اللاعنف وتجنّب كلّ ألوان الاستفزاز، أثرٌ على البيض، فتلاشت من فكرهم نيّة المجابهة.

وبالإجمال، أمسى كلّ إنسانٍ أسود في مونتغومري، ينعم باحترامٍ لم يعهد له مثيلاً، قطّ. وثّمن البيض التزام السود بلاعنفٍ مطلقٍ، وبمبادئ راقيةٍ، وبوحدتهم، واعترفوا بأنّهم لم يتوقّعوا أن يروا منهم تلك المواقف النبيلة، ولا سيّما أنّه لم تشكُ أيّة أُسرةٍ بيضاء من فقدان عزيزٍ ولا من إصابة جريحٍ، طوال الاشتباكات الرعناء المتواصلة، ولم تُسرِّب المرارة إلى نفوسهم رغبةً في الاثّار.

وأمست حوانيت البيض في مونتغومري، ترحّب بزبائنها السود، ولا تبخل عليهم بلقب "سيّد" أو "سيّدة"، خلافًا للتقاليد السالفة.

وساد مزيدٌ من التناغم، في النقابات، حيث انتُخب أعضاءٌ سودٌ، بسلاسةٍ.

ولكن، مع هذا التقدّم المدهش الذي تحقّق في مونتغومري، ما انفكّت شريحةٌ من البيض المتطرّفين، تؤيّد وتدعم تصلّب متطرّفين بيضٍ في مدنٍ جنوبيّةٍ أُخرى، حيث وطّن أولئك المتطرّفون عزمَهم على رفض تنفيذ قرار المحكمة الفيديراليّة العليا القاضي بإلغاء الفصل العرقيّ في المدارس، بتحريضٍ من صحافةٍ عنصريّةٍ، وسياسيّين متطرّفين، حريصين على إبقاء الحرب محتدمةً بين العرقَيْن. فكانوا يسارعون إلى تضخيم كلّ صدامٍ طارئٍ بين مواطنٍ أبيض ومواطنٍ أسود، ويعزونه إلى استحالة التعايش بين أبناء اللونَيْن، مع أنّهم أبناء وطنٍ واحدٍ، وإنسانيّةٍ واحدةٍ.

وبغية منع السود من الحصول على عدد أصواتٍ فاعلةٍ، في الانتخابات الدوريّة، دأبت سلطات الجنوب الأميركيّ على تفتيت السود في كلّ مقاطعةٍ كانوا فيها الأغلبيّة، فكانت تمنح كلّ حيٍّ فيه أغلبيةٌ سوداء إلى مدينةٍ أخرى حيث يصبحون أقلّيّةً، هزيلة القدرة التصويتيّة، وبذلك يسلبونهم الأكثريّة التي كانوا ينعمون بها في مدنهم الأصليّة. غير أنّ هذه الأقلّيّات الجديدة المصطنعة، ظلمًا، غالبًا ما استرشدت بكفاح الأقلّيّة السوداء في مونتغومري، وانبرت لمقاومةٍ يحدوها روح اللاعنف، الذي أرساه مارتن لوثر كينغ في رعيّته، ولدى أبناء جلدته.

وبالمقابل، توهّم السياسيّون البيض بأنّهم سيكتسبون أصوات الناخبين بقدر إمعانهم في مقاومة القوانين الداعية إلى الدمج العرقيّ. وكانت المنظّمة الإرهابيّة "كيو كلاكس كلان" قد فقدت الكثير من سطوتها، وحاول "مجلس المواطنين البيض" الحلول محلّها، غير أنّ عامّة البيض تبيّنوا عجز ذلك المجلس عن مقاومة قوانين الدمج الجديدة، فأعرضوا عن دعمه بالمال.

وكان جليًّا أنّ التحوّل الجوهريّ الذي تحقّق في نفسيّة جماعة السود في مونتغومري، قد أفضى إلى الحدّ من عنفوان نزعتهم إلى المقاومة، فغدوا أكثر ميلاً إلى التمثّل بسائر المواطنين في لباسهم وأساليب عيشهم، وإلى إظهار أنفَةٍ طالما افتقروا إليها طويلاً، كما اتّضح من قول بوّاب بناءٍ لصحافيٍّ أبيض: "الآن، وقد رفعنا رأسنا، لن نطأطئه، بعدُ، لأيٍّ كان".

ولوحظ في أوساط السود انخفاضٌ محسوسٌ في الإدمان على الكحول، وفي الجريمة، والطلاقات. وبالمقابل، شاعت عدوى تبادل عبارات المودّة، حتّى بين الأولاد.

وقلّص "الاتّحاد من أجل تقدّم مونتغومري" (MIA) ميزانيّته، ولكنّه وسّع ميدان عمله الاجتماعيّ، ووجّه فرعُه القانونيّ جهوده نحو الحقوق المدنيّة. وأمست اللقاءات الأسبوعيّة تجهد في تدريب السود على ممارسة واجباتهم المدنيّة، وعلى الارتقاء مدنيًّا. ووضَعَ برنامجًا من عشرة بنودٍ، تهدف إلى:

- التربية المدنيّة، والاجتماعيّة، والسياسيّة.
- التعليم المهنيّ.
- تحسين الوضع الاقتصاديّ.
- تحسين الوضع الصحّيّ والترفيهيّ.

- العلاقات العامّة.
- الثقافة.
- الغنى الروحيّ.

وشرع الاتّحاد ينفّذ هذه البنود تدريجيًّا، على أن يظلّ إكمالها هو هدفَ المستقبل. وأولى اهتمامًا خاصًّا بحضّ السود على التسجيل في اللوائح الانتخابيّة، تصويتًا وترشُّحًا. بيد أنّ هذا الهدف قوبل بمقاومةٍ شرسةٍ من قبل المسؤولين البيض، فلم يسجّلوا سوى مئتي صوتٍ من أصل ألفَيْن.

وبقيت القضايا العرقيّة الكبرى، بلا حلٍّ حاسمٍ دائمٍ، مع أنّها كانت قد أحرزت تقدُّمًا ذا شأنٍ.

أمّا النتيجة الأعمق أثرًا، والأروع إشراقًا، فهي أنّ اللاعنف أثبت قدراته المدهشة.

وتجدر بنا، هنا، الإضاءة على مفهومٍ موجزٍ للاّعنف، عند مارتن كينغ.

إيجـاز مارتن لوثر كينغ لمفهوم اللاعنف

ما جدوى الشرائع إن لم تطبّق؟ إنّ تطبيقها يستلزم إقناع الشعب بصلاحيّتها وجدواها. والسبيل الأمثل إلى هذا الإقناع هو اللاعنف. فهو يسعى إلى إيقاظ وعي الذين، بدافع الخوف أو الكبرياء، أو العبث، واللامنطق، خدّروا ضمائرهم، وأغرقوها في السبات.

إنّ المقاومين المسلّحين باللاعنف يوجزون عمله بقولهم: "نبتغي العمل مباشرةً ضدّ الظلم، غير منتظرين أن يقوم آخرون بهذه المهمّة نيابةً عنّا. لن نرضخ لممارساتٍ ظالمةٍ، ولكنّ مقاومتنا ستلتزم بأساليب السلام والشفافيّة، والفرح، لأنّ هدفنا هو الإقناع. لقد اخترنا سبيل اللاعنف، لأنّنا نَنْشُد مجتمعًا يسوده السلام. وسنجهد إلى الإقناع بأقوالنا. وإن لم تُجدِ أقوالنا نفعًا، فسنلجأ إلى العمل، نحن دائمًا مستعدّون لتسويةٍ شريفةٍ، ومستعدّون للتألّم إذا اقتضى الأمر، وسنضحّي بحياتنا شهادةً للحقيقة كما نفهمها.

اختيار اللاعنف هو اختيار الألم والتضحية، وحتّى السجن، والموت. ولكن، إذا كان موت رجلٍ أسود يؤدّي إلى افتداء نفوس إخوته البيض من الهلاك الروحيّ، فسيكون موته هو الفداء الأسمى.

الوسيلة المثلى هي تكاتف المقاومين، وتشكيلهم سدًّا واحدًا منيعًا. وكلّما نُكِّل بواحدٍ منهم ظلمًا وافتئاتًا، فليتقدّمْ مئةٌ آخرون، وليقدّموا أنفسهم ضحايا. وليعلمِ الخصم أنّه، إن هو نسف بيوت مئة مقاومٍ، لن ينال مرامه.

بمواجهة هذا الصمود، مع الإحجام عن ردّ الضربة بمثلها سينتهي الخصم، ذات يومٍ، إلى الاعتراف بأنّه أسير همجيّته. وعندما يذكر أنّه سيُضطرّ إلى المثول أمام العالم، وأمام الله، ملطّخًا بدماء إخوته، سيقنع بخطئه، وبهزيمته.

وما انفكّ مارتن لوثر كينغ يردّد على مسامع إخوته السود، ما علّم غاندي قومَه قولَهم للبريطانيّين: "بقدر ما تسيموننا من عذاب، سيكون احتمالنا عظيمًا، وسنردّ على قواكم البدنيّة بقوّتنا الروحيّة. لن نبغضكم، ولكنّ ضمائرنا لن تسمح لنا بالرضوخ لقوانينكم الظالمة. ومهما أسأتم إلينا سنظلّ نحبّكم، حتّى إذا دمّرتم بيوتَنا، وأرسلتم قاتليكم المأجورين كي يخضعونا، ويقتلونا في أماكن مقفرةٍ. وفي نهاية المطاف ستصيبكم قدرتُنا على الصمود والاحتمال بالملل. ولن نكون قد ظفرنا بحرّيّتنا فحسب، بل سنكون، أيضًا، قد أيقظنا ضمائركم، واكتسبنا نفوسَكم".

ومع ذلك، لم يغرب عن بال مارتن كينغ أنّه لن يكون من اليسير على جميع السود القبول بالمقاومة اللاعنيفة. فمنهم من يعدّ اللاعنف جنونًا، ومنهم من سيَعُدّه ضعفًا وجبنًا. وبعضهم كَلِفون بالثروة، ويؤثرون التظاهر بالثراء على الدفاع عن قضيّة العدل والحرّيّة. غير أنّه كان مؤمنًا أنّه يكفي التزام حفنةٍ من السود باللاعنف التزامًا كاملاً، كي يجرّوا في إثرهم مئات الآخرين، المصمّمين على التزام اللاعنف وسيلةً مُثلى لبلوغ ما يتطلّعون إليه.

لم يكن للمهاتما غاندي أكثر من مئة تلميذٍ أوفياء، وبهذا العدد الضئيل هزّ الهند كلّها، ودكّ أركان الإمبراطوريّة البريطانيّة، التي لم تكن الشمس تغيب عن كلّ مستعمراتها. وقد أكّد معاونه الأوّل ورئيس وزرائه نهرو أنّه لم يلحظ من الحنَق والصدمة في نفوس البريطانيّين، أكثر ممّا ظهر عليهم يوم قاوم الهنود ضرباتهم بالصمود، وقدّموا الخدّ الآخر للصفع، لأنّ ذلك الموقف أسقط سلاح القمع من أيديهم، وفي الآن عينه حرّر الهنودَ من الخوف.

قد لا يتمّ التآلف والتناغم، فورًا، بين السود والبيض، غير أنّ جيل السود الجديد سينعم بأوضاعٍ فُضلى، وبالقوّة والكرامة اللتَيْن كان يفتقر إليهما،

بفضل جرأة حفنةٍ من شبّانه وتضحياتهم. ومن المؤكّد أنّ الشعب الأميركيّ بأكمله سيهتزّ.

قد لا يحوّل اللاعنف المعتدي بين ليلةٍ وضحاها، ولكنّه يبدأ بتحويل ممارسيه، تبديلاً داخليًّا، ويزيدهم احترامًا لذواتهم، ويساعدهم على اكتشاف ما كان كامنًا فيهم من جرأةٍ، وقدرةٍ كانوا يجهلون امتلاكهم لهما. وفي الآن عينه يؤثّر على ضمير الخصم ويجعله أكثر نزوعًا إلى المصالحة.

وبالإجمال، إنّ اللاعنف هو الوسيلة المثلى لإعادة اللحمة إلى مجتمعٍ مفكّكٍ، لحمةٍ تفشل القوانين، وحدَها، في إحداثها، لأنّها تقتضي إجماع القلوب والنفوس على إرادة عيش مجتمع محبّةٍ، حيث على كلّ فريقٍ أن يُقصي عن نفسه رغبة قهر الآخر والتغلّب عليه، ويستلزم تسليم كلّ فريقٍ بأنّ كلّ إنصافٍ قضائيٍّ هو نصرٌ للجميع، وليس غلبة فئةٍ على أخرى، وهو دعوةٌ إلى عملٍ جديدٍ بنّاءٍ، وإلى نبذ التخاذل واللامبالاة والاعتماد على الغير.

البوْن شاسعٌ بين اللاعنف، والمقاومة السلبيّة. فاللاعنف هو مقاومةٌ سلميّةٌ جريئةٌ، بالمحبّة، وهي قائمةٌ على اليقين بأنّه من الأفضل أن يكون المرء ضحيّة العنف على أن يمارس العنف ضدّ خصومه. فالعنف يسهم في إدامة البغض، أمّا اللاعنف فيُسهم في إخجال الخصم من عنفه، وفي تحويل أسلوب تفكيره وسلوكه.

وقد يكون اللاعنف خشبة خلاص العالم، ففي عصرٍ تتنافس فيه الشعوب على سباق صنع أسلحة الدمار الشامل، مخصِّصةً لهذا السباق خير عبقريّاتها، وأموالاً طائلةً كافيةً، وحدها، لشفاء أمراضٍ مستعصيةٍ.

الخيار، إذن، ليس بين العنف واللاعنف، بل بين اللاعنف والفناء الشامل.

عوائق في وجه العدالة

الكفاح من أجل الدمج في حافلات مونتغومري، غدا من التاريخ، ورمزًا لقَدَر البشر على التعايش الودّيّ، وتخطّي فروق الألوان والأعراق.

ومع ذلك استمرّ الفصل العرقيّ ساريًا في عدّة ميادين أخرى، في الجنوب الأميركيّ، متحدّيًا القوانين الفيديراليّة التي تحظر هذا الفصل. ومع كلّ التطوّرات الإيجابيّة التي تحقّقت، بقيت عقباتٌ كأداء تحول دون القضاء على التفرقة العرقيّة قضاءً مبرمًا، واستمرّ مارتن لوثر كينغ وزملاؤه يناضلون في سبيل تحطيم كلّ حواجز العار.

وظلّ السؤال الممضّ: هل يبقى ما تحقّق في حافلات مونتغومري عارضًا محلّيًّا طارئًا، أم سيكون تمهيدًا لحلٍّ جذريٍّ، يقضي على كلّ تفرقةٍ لاإنسانيّةٍ، ويؤسّس لمجتمعٍ منسجمٍ متآلفٍ، مع جميع تباينات أعضائه؟

من المحقّق أنّ التغيّرات الاجتماعيّة العميقة والمتسارعة، جعلت من العسير تخيُّل صورةٍ واقعيّةٍ للغد.

فالصناعة المتنامية تناميًا هائلاً استقطبت ملايين الأيدي التي كانت تعمل في الزراعة، وسبّبت ازدحامًا خانقًا في المدن، وأحدثت تحوّلاتٍ جذريّةً في أساليب العيش والمفاهيم الاجتماعيّة.

وتبيّنت الحاجة إلى سواعد السود، وإلى احتلال الذين بلغوا، منهم، درجاتٍ عليا في الثقافة والعلم، مراكز قياديّة، بعد أن تحرّروا من الشعور بدونيّتهم، وترسّخ إيمانهم بأنّ الله يحبّ جميع خلائقه بالتساوي، ولا يفرّق بينهم إلاّ بسلامة النوايا، وبنقاء القلوب، وبحجم المحبّة التي يُعامِل بها الإنسان أخاه، أيًّا كان لونه.

هذا الشعور بالكرامة الأساسيّة، أفعم نفس الإنسان الأسود إرادةَ كفاحٍ وتضحيةٍ، وعزمًا على أن يرى فيه الجميع مواطنًا جديرًا بالاحترام. تلك كانت النتيجة الجوهريّة التي أفرزتها "مغامرة مونتغومري"، في ممارسة الديمقراطيّة الحقّة، وتعاليم المحبّة المسيحيّة، ومبدأ أنّ البشر يولدون متساوين. هذا الواقع هزّ ضمائر العديد من البيض في كلّ أرجاء الولايات المتّحدة الأميركيّة، وأجبر القضاء الأميركيّ على العودة إلى المبادئ السامية الأساسيّة، وإلى العدالة، وكانت لتلك النتائج أصداءٌ إيجابيّةٌ في جميع بلدان العالم الثالث، التي تعاني الاستعمار أو الديكتاتوريّة.

ومع ذلك، لم يستسلم المتطرّفون البيض، ولم يُشفوا من أمراضهم النفسيّة. واستمرّ مسؤولون وموظّفون يستغلّون امتيازاتهم المزعومة في انتهاك القوانين الفيديراليّة؛ واستمرّ صحافيّون فاقدو الضمير والشعور الوطنيّ يبثّون سموم الفتنة والعنصريّة، وإشاعة الأكاذيب في صفوف البيض الفقراء والجهلاء، ويحرّضونهم على القيام بأعمالٍ بغيضةٍ لا تليق بإنسانيّتهم.

بقي، إذن، البيض المتطرّفون عازمين على الحؤول دون تطبيق الدمج بكلّ الوسائل، موهمين الأوساط الفقيرة والمهمّشة من البيض بأنّ كلّ تحسُّنٍ في وضع السود سيُلحِق بهم مزيدًا من إفقارٍ، مكرّرين التخرّصات والمزاعم التي عفاها الزمن، وكانت كلّ مبادرةٍ من هذه المنظّمة تمهّد لأعمال عنفٍ قادمةٍ.

وكان لمجلس المواطنين البيض دورٌ فعّالٌ في هذا المجال، بفضل وضعه الماليّ المتين، ومنزلته الاجتماعيّة الرفيعة، وتصميمه على مقاومة قرار الدمج بأيّ ثمنٍ، حتّى عن طريق ترهيب السود، والبيض الذين أيّدوا تطبيق الدمج، مقتضين من البيض التزامًا بموقف الرفض بلا نقاشٍ، ومقتضين من السود رضوخًا ذليلاً بلا اعتراضٍ.

وتشجيعًا على العنف، وحؤولاً دون عقد علاقاتٍ ودّيّةٍ كانت قد شرعت تُعقَد بين البيض والسود، جهد المجلس في إقناع العامّة بسلامة مساعيه، وفي تمويه نواياه الخبيثة بمظهرٍ دينيٍّ مزيّفٍ، مستندًا على مقاطع مجتزأةٍ من التوراة، ومؤكّدًا تدنّي المستوى العقليّ لدى السود، وهزال ثقافتهم، متناسيًا أنّ هذا الهزال هو نتيجة الفصل العرقيّ، وإفقار السود، وإقصائهم عن المدارس الجيّدة وعن الجامعات، وتماديه في المراوغة بشأن تنفيذ قرار المحكمة الفيديراليّة العليا بدمج جميع المواطنين في المدارس، والسعي إلى إبقائهم في الوضع الذي كانوا عليه، لّما كانوا عمّالاً محتَقَرين في مزارع البيض، وذاهلاً عن التطوّر الصناعيّ المذهل بسرعته واتّساعه، ومستجدّاته.

ولا ريب أنّ الرئاسة الأميركيّة قد تخاذلت في فرض تطبيق قرارات المحكمة العليا فرضًا حازمًا. ومع أنّ كنائس ونقاباتٍ ومنظّماتٍ اجتماعيّةً أصدرت بياناتٍ مؤيّدةً للدمج، غير أنّ أيّةً منها لم تسعَ إلى وضع برنامجٍ عمليٍّ لإجراء تحوّلٍ سلميٍّ سلسٍ، أو لمقاومة العقوبات الاقتصاديّة، والتعدّيات الجسديّة العنيفة على كلّ ساعٍ إلى تنفيذ الدمج.

ونظرًا إلى تخاذل المؤسّسات المعنيّة عن واجبها الأدبيّ، جهدت القوى المقاومة للدمج في تنظيم صفوفها، وتنسيق مساعيها، لإجهاض قوانين الدمج.

وغالبًا، يكون صمت الصالحين عن أفعال الشرّ، أسوأ عاقبةً من ضجيج الأشرار. فقبول نظامٍ ظالمٍ قبولاً سلبيًّا هو تواطؤٌ معه، وعلى المقموع أن يوجع دائمًا، ضمير القامع. ورفضُ مصانعة الظلم والشرّ، واجبٌ أخلاقيٌّ مُلزِمٌ.

فالخنوع للظلم هو تشجيعٌ للظالم المتغطرس على الإيغال في غطرسته وازدرائه.

قد يحرز الكفاح المسلّح سلمًا مؤقّتًا ولكنّه لا يحلّ مشكلةً اجتماعيّةً، بل يخلق المزيد من المشاكل والأزمات.

العنف لاأخلاقيٌّ، لأنّه قائمٌ على الكراهيّة، والمطلوب هو إقناع الخصم لا إزالته، واستمالته وليس قهره.

هذه الحقائق أثبتها مبدأ اللاعنف الذي رفع لواءَه مارتن لوثر كينغ، في أميركا.

ومن المعهود أنّ الانتقال من حالٍ إلى حالٍ، غالبًا، يُحدث اضطراباتٍ. ففي مرحلة التحوّل من العبوديّة إلى التحرير اغتيل الرئيس أبراهام لينكولن، وفي مرحلة الدمج امتُهنت هيبة المحكمة الفيديراليّة العليا، وانصبّت الإهانات والتهديدات على "الاتّحاد الوطنيّ لتقدّم الملوّنين" (NAACP).

وقد أثبت التاريخ أنّ الأزمات الوجوديّة لا تُحَلّ تلقائيًّا، ولا تسوّى بالقوّة، إذ لم تتحقّق خطوةٌ نحو العدالة إلاّ بالتضحية والألم، والكفاح، وإلاّ بجهود أصحاب مُثُلٍ عليا كرّسوا ذواتهم للتقدّم والحقّ، وكان أحدهم مارتن لوثر كينغ.

تظاهرةٌ أمام نصب أبراهام لينكولن

في سنّ السابعة والعشرين كان مارتن لوثر كينغ قد ارتقى قمّةً رفيعةً من الشهرة، وكان كثيرون يتوقّعون منه مزيدًا من الترقّي، وإنجازاتٍ أشدّ إبهارًا. وكان هذا الشعور يرهقه.

وبفضل الحملات النضاليّة التي قادها في مونتغومري، كان الإنسان الأسود قد وعى احترامه لذاته، ووطّن العزم على النضال والتضحية حتّى يبلغ مكانة المواطن كاملِ الحقوق، وينعم بالاحترام على قدم المساواة مع أيّ مواطنٍ آخر. وأدرك المواطنون البيض أنّهم أمسوا يواجهون شعبًا أسود جديدًا معتزًّا بهويّته، وحريصًا على كرامته.

وأدرك الأميركيّون، عمومًا، أنّهم يعيشون انفصامًا نفسيًّا مخجلاً. فهم يدّعون ممارسة الديمقراطيّة، ويعتزّون بمسيحيّتهم، في حين أنّ كلّ ما مارسوه من عبوديّةٍ، ثمّ من فصلٍ عرقيٍّ مُذلٍّ، هو إنكارٌ للديمقراطيّة، وخيانةٌ للمسيحيّة، وأنّهم، بكلّ ممارساتهم، يدوسون مثُلَهم العليا بأقدامهم.

كانت المحكمة الفيديراليّة العليا تُصدِر بين حينٍ وآخر، قراراتٍ تدين التناقضات والمخالفات، وتعُدّ الفصل العرقيّ غير دستوريٍّ. ولكنّ السلطات التنفيذيّة، في ولاياتٍ كثيرةٍ، تضرب بهذه القرارات عرض الحائط، أو تتحايل عليها، وتعترف مبدئيًّا أنّ جميع العروق متساويةٌ حقوقيًّا، ولكنّها تفرض فصلها، في وسائل النقل المشتركة، وفي المدارس، وفي الأماكن العامّة، معترفةً بالمساواة، وممارسة العنصريّة.

وسجّل يوم ١٩٥٧/٥/١٧، تاريخ واحدةٍ من أبرز تظاهرات الاحتجاج على هذا الوضع المعوجّ. فقد دعت نقاباتٌ واسعة النفوذ جموعًا من البيض والسود إلى

"حجّ صلاةٍ"، وإلى لقاءٍ أمام نصب أبراهام لينكولن في واشنطن، حيث أُقيمت طقوس صلواتٍ دامت ساعتَيْن، وتمحورت حول تحقيق العدالة في الميدان العرقيّ.

وقد حرص مارتن لوثر كينغ ورفاقه، في هذه المناسبة، على تأكيد أنّ هذا المطلب ليس أمرًا داخليًّا عابرًا، تستطيع السلطات المحلّيّة الطامعة في بقاء الأوضاع الراهنة على حالها، رفسه بأقدامها، بل هو قضيّةٌ أخلاقيّةٌ جوهريّةٌ أبديّةٌ، كفيلةٌ بتقرير مصير الأمّة جمعاء، ووجهتها السياسيّة.

وتقدّم مطالبَهم حقّ الترشّح والانتخاب، كي يضمّ الكونغرس أناسًا لا يساومون على الحقوق الدستوريّة للجميع، وكي يرأس المحاكم قضاةٌ نزهاء، وأن يمثّل الأمّةَ أشخاصٌ يحدوهم العدل، والمحبّة، والرحمة، والامتثال لمشيئة الله، والحرص على إقرار الألفة والسلام، ونبذ العنف والكراهية، والحرص على تنفيذ قرارات المحكمة الفيديراليّة العليا بهذا الشأن، بلا تخاذلٍ، ولا نفاقٍ، ولا مواربةٍ.

وفي صيف عام ١٩٥٧، شنّ مؤتمر القادة المسيحيّين في الجنوب الأميركيّ، حملةً في سبيل إقرار المواطنة الحقّة، في الجنوب. وكان الرئيس إيزنهاور قد اضطرّ إلى تكليف قوًى عسكريّةٍ فيديراليّةٍ بمرافقة الطلاّب السود إلى مدارسهم في منطقة "ليتل روك" (Little Rock)، في ولاية "أركانساس"، لكي يحموهم من تعدّيات عصابات بيضٍ، جهدوا في منع الدمج العرقيّ في المدارس، حيث تسجّل تسعة أولادٍ سودٍ في مدرسةٍ مختلطةٍ. وبذلك أثبت إيزنهاور للعالم أجمع إرادة أميركا احترام الحقوق الإنسانيّة، والنظام، والصمود في وجه غوغاء الرعاع، مع أنّ أمورًا دوليّةً كبرى كانت تستقطب اهتمام الولايات المتّحدة، مثل قمع الاتّحاد السوفييتيّ الوحشيّ للثورة السلميّة في هنغاريا، آنذاك.

طعنةٌ في هارلم

بعد ظهر يومٍ صيفيٍّ، إذ كان مارتن لوثر كينغ، في حيّ هارلم، بضواحي نيويورك، يوقّع كتابه "نضالٌ في سبيل الحرّيّة"، ظهرت، بغتةً، امرأةٌ سوداء مختلّةٌ، وسألته: "هل أنت مارتن لوثر كينغ؟"، وفيما كانت عيناه محدّقتَيْن إلى صفحة الكتاب الأولى، وما كاد يتلفّظ بـــ "نعم"، حتّى اخترقت صدره أداةٌ حادّةٌ. واقتادته سيّارة إسعافٍ إلى مستشفًى في ذلك الحيّ، حيث عكف الجرّاحون على انتشال الأداة الحادّة، بحيطةٍ شديدةٍ، خشية إصابة قلبه بأذًى.

ولّما أخذ يتماثل للتعافي، بعد أيّامٍ، أطلعه رئيس الجرّاحين على تدابير الحيطة التي التزم بها ومعاونوه، تفاديًا لخطرٍ جسيمٍ. فالأداة الحادّة التي اخترقت صدره، كادت تلامس شريانه الأبهر، فاضطرّوا إلى فتح قفصه الصدريّ بالكامل، كي يحموا ذلك الشريان من كلّ أذًى محتملٍ. وصارحه الطبيب: "لو كنتَ عطستَ، في تلك الأثناء، لكنت غرقت في دمك".

نجاته من هذا الاعتداء، رسّخت إيمانه بوجود الله معه، وبأنّ ممارسة اللاعنف لا تحمي من عنف العنيفين، غير أنّ كلّ ما يتحمّله اللاعنيف من آلامٍ وتضحياتٍ، وكلّ ما يحمله من صلبانٍ، يُفضي إلى افتداء إخوته المضطهَدين.

وزاده هذا الاعتداء عزيمةً على مواصلة الكفاح من أجل تحرير السود، وتأهّبًا لدفع الثمن، في كلّ لحظةٍ، ومهما غلا الثمن.

حجٌّ إلى منَـابع اللاعنف

كان المهاتما غاندي ملهِمَ مارتن لوثر كينغ، ومرشدَه على درب مكافحة آفات وطنه الاجتماعيّة، بأسلوب اللاعنف. ولطالما تاق كينغ إلى نهل اللاعنف من منابعه، وتنشّق عبق روح المهاتما. ولطالما حلم برؤية مسرح اللاعنف حيث حقّق اللاعنف كبرى المعجزات السياسيّة في القرن العشرين. وسارع على تحقيق هذا الحلم، حالما تيسّرت له القدرة عليه.

ويوم الثالث من شباط عام ١٩٥٩، يمّم شطر الهند، برفقة زوجته وصحافيٍّ. وكانت لهم محطّةٌ أولى في باريس حيث زاروا الكاتب الأميركيّ "ريتشارد رايت" (Richard Wright)، الذي أطلعهم على موقف الأوروبيّين من قضيّة السود الأميركيّين، وأتاح لهم تذوّق المطبخ الفرنسيّ.

ومن جرّاء سوء الأحوال الجويّة لم يستطيعوا زيارة سويسرا، ووصلوا إلى الهند متأخّرين يومين عن الموعد.

وكانت الصحف الهنديّة قد أسهبت، أكثر من الصحف الأميركيّة، في نشر أخبار مقاطعة سود أميركا للحافلات العامّة، مقاطعةٍ صمدت ٣٨١ يومًا. فلا عجب إن اتّسم استقبال مارتن كينغ وصحبه، في الهند، ببالغ الحفاوة، وتخطّى كلّ توقّع.

فقد فُتِحت لهم كلّ الأبواب، فتحدّثوا مع أبسط المواطنين، ومع أرفع المسؤولين. وخصّصت الصحف الهنديّة مساحاتٍ كبرى لنشر صُوَر الضيف الأميركيّ وصحبه، فبات الناس يتعرّفونهم، ويصفّقون لهم حيثما مرّوا، وعجز مارتن وصحبه عن تلبية

آلاف الدعوات. ولا ريب أنّ سواد بشرتهم كان عاملاً إيجابيًّا لصالحهم، واعتُبروا إخوةً في النضال المشترك ضدّ التفرقة العنصريّة والاستعمار.

وكانت القاعات تغصّ بالحضور حيثما وقف مارتن لوثر كينغ خطيبًا في الجامعات والمؤسّسات العامّة، وفي المؤتمرات الصحافيّة التي عقدها في المدن الكبرى: دلهي، كلكتّا، مدراس، بومبي... ولم يحجم القسّ كينغ عن الإجابة على أكثر أسئلة الصحافيّين إحراجًا. وأظهر الصحافيّون الهنود من جهتهم، فهمًا عميقًا لقضيّة السود الأميركيّين، وتعاطفًا صادقًا معهم.

وأثناء تنقّلاتهم بالطائرات، غالبًا، ما غادر ربابنة الطائرات مواقع القيادة، كي يصافحوا ضيوفهم، ويحظوا بتوقيعاتهم.

واستخلص مارتن لوثر كينغ من مشاهداته في الهند، أنّ أميركا تُنفِق ملايين الدولارات يوميًّا، من أجل تخزين الغذاء الفائض، وكان الأجدر بها تخزينه، مجّانًا، في مِعَد ملايين الهنود التي يعضّها الجوع. وعوضًا عن الميزانيّة الهائلة التي كانت أميركا تخصّصها من أجل إنشاء قواعد عسكريّةٍ، كان خيرًا لها أن تبني قواعد تعاونٍ مع أُمم الأرض التي تئنّ معاناةً.

ورأى كينغ وصحبه مدى البؤس الذي يقاسيه "المنبوذون" الذين كانت التقاليد تصنّفهم في طبقة النجسين، وتعدّهم مصدر نجاسةٍ لكلّ من يلامسهم، أو يتعامل معهم، فيما جاهد غاندي من أجل تقويض هذا التقليد البغيض، وكان يدعو أولئك المساكين "هاري يان" أي "أبناء الله"، وكان أوّل مخالفي هذا التقليد، في بيته، رغم معارضة زوجته وذويه.

وقد أكبر كينغ وصحبه إصرار غاندي على قرن تحرير البلاد من الاستعمار البريطانيّ بتحرير "المنبوذين" من الإذلال والحرمان المفروضَيْن عليهم من قِبَل أبناء جلدتهم.

واتّفق، أثناء زيارة كينغ لولاية كيرالا في أقصى الهند، أن دُعي للتحدّث إلى طلاّب مدرسةٍ معظمهم متحدّرون من أسر "المنبوذين". وقدّمه مدير المدرسة بقوله: "يسرّني أن أقدّم لكم رفيقًا من "منبوذي" الولايات المتّحدة الأميركيّة". هذه العبارة التي صَدَمت كينغ للوهلة الأولى، حملته على إعادة التفكير بعشرين مليون أخٍ وأختٍ له في إحدى أغنى بلاد العالم، يعيشون في حرمانٍ يحاكي، إلى حدٍّ ما، معاناة "منبوذي الهند"، فاعترف: "أجل، أنا منبوذٌ، وكلّ أسود في الولايات المتّحدة هو "منبوذٌ".

وتبيّن كينغ البوْن الشاسع بين الموقفَيْن، رسميًّا وشعبيًّا، في الهند والولايات المتّحدة الأميركيّة. ففي الهند كانت السلطات قد أعلنت أنّ النبذ جريمةٌ تعاقَب، وحتّى الذين لم يقتنعوا بواجب دمج المنبوذين في كلّ الميادين، وظلّوا يحنّون إلى عهد النبذ، كانوا يخجلون من إعلان رأيهم في هذا الشأن. في حين أنّ المحكمة العليا في الولايات المتّحدة الأميركيّة أصدرت أحكامًا تدين الفصل العرقيّ، ولم يسعَ إلى تنفيذ هذه الأحكام، ولو سعيًا خجولاً، إلاّ حفنةٌ من المسؤولين، وأبرزهم جون كينيدي وإخوته، فيما تخاذل معظم السياسيّين الآخرين، لا بل إنّ أكثريّةً منهم، دعمت الفصل العرقيّ، وجهدت في استمراره.

وبالمقابل، أكّد نهرو، رئيس وزراء الهند، أنّه إذا تقدّم شخصان لتولّي وظيفةٍ، ذات شأنٍ في الدولة، وكانا متساويَيْن في الكفاءة، فالأولويّة هي من نصيب المتحدّر من أُسرةٍ منبوذةٍ. وسأله حينذاك أحد الحاضرين، أليس في ذلك تفرقةٌ، فأجاب: "حتّى إذا كانت، ثمّة، تفرقةٌ، فهي تكفيرٌ عن الآلام التي أنزلتها بلادنا بالمنبوذين، مدى قرونٍ".

كان التناقض صارخًا بين هذا الموقف والموقف الأميركيّ، الذي يمنح الأفضليّة للأبيض على حساب الأسود، حتّى إذا كان هذا الأخير هو الأكثر كفاءةً.

وقد أنفقت الحكومة الهنديّة مبالغ طائلةً من أجل بناء مساكن للمنبوذين المحرومين من مأوًى، في حين دأبت سلطاتٌ محلّيّةٌ في أميركا على تدمير مساكن السود المزرية، وحتّى أماكن عبادتهم.

وتمثّل فضل غاندي وورثته في إدخالهم مبادئ اللاعنف والمساواة في ضمائر الشعب، وفي صلب سلوكه الاجتماعيّ.

ولكأنّ مارتن لوثر كينغ كان يستشعر مصيره المأساويّ، وهو يتأمّل مسيرة غاندي، فقال في إحدى عظاته:

«ألا ترون أنّ العالم لا يحبّ غاندي وأمثاله، ولا أمثال يسوع المسيح، وأمثال أبراهام لينكولن. اغتيل غاندي الذي أدّى للهند خيرًا جمًّا، ووهب الهند حياته كلّها، وأعتق أربع مئة مليون نسمةٍ من ربقة الاستعمار والذلّ. اغتاله هندوسيٌّ، مثله، لأنّه عدّه متعاطفًا مع المسلمين. ووقع رسول اللاعنف على يد أحد أتباع العنف. أَوَليس في مصرعه يوم جمعةٍ، على غرار يسوع المسيح، إشارةٌ ملهمةٌ؟ ومثلما صُرِع غاندي، صُرِع لينكولن لأنّه حاول شفاء جراح أمّةٍ منقسمةٍ. ومثلما قيل عن لينكولن: "إنّه، الآن، يخصّ الأبديّة"، يمكن القول عن غاندي».

وعن غاندي قال:

«استطاع غاندي، أثناء حياته، استنفار أوسع شريحةٍ من الناس، وبثّ الحماس في نفوسهم، أكثر ممّا فعله أيّ إنسانٍ آخر على البسيطة، متسلّحًا بالمحبّة، والتفاهم، والإرادة الطيّبة، وبرفضه التعايش مع القوانين السيّئة، فتمكّن من كسر ظهر الإمبراطوريّة البريطانيّة. وكان لذلك الحدث الوقع الأخطر في تاريخ البشر، فقد أتاح لنحو أربع مئة مليون نسمةٍ انتزاع حرّيّتهم من قبضة مستعمرٍ قويّةٍ، بسلاح اللاعنف».

وقال عن غاندي أيضًا:

«إذا سألتم الهنود كيف استطاع غاندي تحقيق ما حقّقه في الهند، لأجابوا أنّه حقّق ذلك بفضل صدقه المطلق، وتفانيه اللامحدود.

غاندي هو الإنسان الذي نجح في ردم الهوّة بين الأنا والآخر. وكانت لديه قدرةٌ فائقةٌ على النقد الذاتيّ، في حياته الخاصّة، وفي حياته العيليّة، وحياته العامّة. فكان يعلن على الملأ كلّ خطأٍ ارتكبه. وامتلك جرأة الإقرار أمام شعبه: "أنا لستُ كاملاً، ولا معصومًا عن الخطأ، وأرفض أن تبنوا من حولي دينًا، فأنا لستُ إلهًا".

وإنّي لواثقٌ أنّ دينًا يعبد غاندي كان سينشأ، لو لم يحرص غاندي نفسه على تأكيد رفضه لذلك، بلا هوادةٍ، مردّدًا اعترافه بأنّه مغرقٌ في الضعْف البشريّ، والنزوع إلى الخطأ».

وقد أوجز مارتن كينغ نتائج زيارته إلى الهند، بقوله:

«عدتُ من الهند وأنا أعمق يقينًا بأنّ المقاومة اللاعنيفة هي السلاح الأكثر قدرةً، وبوسع شعوبٍ مقموعةٍ استخدامه في كفاحها من أجل التحرّر...

"باللاعنف استعادت الهند حرّيّتها وكرامتها، ولم يشاهَد أيُّ أثرٍ للحقد والبغض اللذَيْن تخلّفهما، عادةً، حملات التحرير العنيفة.

"إنّ سبيل الخنوع يقود إلى الانتحار الأدبيّ والروحيّ. وسبيل العنف يقود الذين نجوا من الموت إلى الكراهية، ويقود الهدّامين إلى الوحشيّة، أمّا سبيل اللاعنف فيقود إلى الفداء، وإلى مجتمع محبّةٍ.

"لقد عمّقتْ زيارتي إلى الهند معرفتي للاّعنف، وشدّدت عزيمتي على الالتزام بخدمته».

انتقالٌ إلى أتلانتـــا

بات، لدى مارتن لوثر كينغ، جيلٌ جديدٌ من الشبّان المتمرّسين بمقاومة مظالم السلطات المحلّيّة، المعتزّين بنضالهم المجيد من أجل التحرّر، بعد أن حرّروا نفوسهم من الخوف والخنوع. كانوا سلالة تاريخٍ من النضال ضدّ العبوديّة والحرب الأهليّة التي قادها أبراهام لينكولن على الكفاح ضدّ العبوديّة، ومن التضامن مع إخوانهم الملوّنين في أفريقيا وآسيا. وبالإجمال كانوا ثمرة تاريخ كفاحٍ هادفٍ إلى صوغ العالم صياغةً جديدةً، وتحويل عالمٍ لاإنسانيٍّ، إلى عالم ديمقراطيةٍ حقّةٍ.

وبعد أن كان كينغ قد أقام، مدى خمس سنواتٍ في مدينة مونتغومري، خادمًا لرعيّتها، ومتولّيًا رئاسة "الاتّحاد من أجل تقدّم مونتغومري"، قرّر الاستقرار في مدينة أتلانتا، مسقط رأسه، وتولّي مهمّة معاون رعيّة "إيبينيز" التي كان يرعاها والده، منذ سنواتٍ طويلةٍ. وبذلك تسنّى له التفرّغ لإدارة "مؤتمر القادة المسيحيّين في الجنوب" (SCLC)، بعد أن طالبه أعضاء ذلك المؤتمر بتخصيص المزيد من وقته لهذه الإدارة، ولتوسيع رقعة نضال السود على مجمل ولايات الجنوب. وبعد تفكيرٍ معمّقٍ، وصلاةٍ حارّةٍ، تيقّن أنّ تلبية هذا المطلب واجبٌ ينبغي اضطلاعه به؛ وأنّ قيامه بهذه المهمّة انطلاقًا من أتلانتا سيكون أيسر، وأكثر فاعليّةً.

مغادرته لمونتغومري كانت موجعةً، فقد ضربت تلك المدينة في نفسه جذورًا عميقةً، وربطته وشائج وثيقةٌ بشعبه، الذي أكبر شجاعته، وتصميمه على تحطيم نظامٍ راسخ الأركان، وكسر عنجهيّة سلطاتٍ طالما استمرأت فرض نزواتها وسلطانها الغاشم، بلا مقاومةٍ، إلى أن هبّ سود مونتغومري، بقيادته، لمقاومة الظلم الحالّ بهم، مقاومةً رائعةً بأساليب اللاعنف، مقاومةً أمست ملحمة القرن العشرين.

لقد شقّ عليه مغادرة رعيّةٍ أحبّها وأحبّته، ولكن كان عليه وعلى رعيّته الاعتراف بأنّ جميع السود في أميركا يحتاجون إلى قيادته. فقد حان أوان استنفار طاقاتٍ خلاّقةٍ، قادرةٍ على شنّ حملةٍ واسعة النطاق ضدّ نظام الفرز العرقيّ، ومن التقدّم بجرأةٍ على درب المساواة، في كلّ أرجاء الجنوب الأميركيّ.

وكان يأمل أن تُفسح له إقامته في أتلانتا مزيدًا من الوقت للاختلاء بذاته ولإعمال الفكر بهدوءٍ، ولتجديد طاقاته الذهنيّة والروحيّة. ولكن سرعان ما تبدّد هذا الأمل، بفعل تفاقم ضغوط المعركة، وتفرّع مقتضياتها.

الخطوة الأولى في الحملة الواسعة استهلّتها مجموعةٌ من الطلاّب السود الجنوبيّين الذين نظّموا اعتصاماتٍ في مطاعم المراكز التجاريّة الكبرى، وطالبوا بأن يُخدَموا أُسوةً بالزبائن البيض، غير مبالين لا بتهديدات عصابات الأوغاد، ولا بشراسة رجال الأمن، ولا بالغازات المسيلة للدموع، ولا بالتوقيفات والسجون، ضاربين أنصع مثالٍ في الكفاح اللاعنيف.

وقد أثمرت هذه الاعتصامات إلغاء الفصل العرقيّ في مطاعم مدنٍ عديدةٍ، مُثبتةً جدواها أكثر من قوانين منع الفصل العرقيّ، التي دأب متطرّفون على الحؤول دون تنفيذها، حتّى إذا كانت تفضي إلى مصلحة المطاعم التي تحدث الاعتصامات فيها.

واتّفق أن طُرد طلاّب مدارس مختلطةٍ، قاموا بهذه الاعتصامات، فتضامن معهم زملاؤهم في مدنٍ عديدةٍ، ونظّموا إضراباتٍ، متحدّين التهديدات المسلّحة التي واجهتهم بها السلطات. وحيال صمود الطلاّب وبسالتهم اضطرّت السلطات إلى التفاوض مع فتيانٍ لم يعُدْ يُخيفهم لا ضربٌ ولا سجنٌ.

وامتدّ تأثير كفاح الطلاّب إلى الجامعات. فحيث كان يُفصَل، مؤقّتًا طلاّبٌ

بسبب مطالبتهم بالدمج العرقيّ، كان جميع زملائهم يقاطعون التدريس احتجاجًا، وتضامنًا مع مطالبِهم. وكانت تلك مبادرةً جديدةً في الميدان الطلاّبيّ.

ولا ريب أنّ أنباء نضال أفريقيّين وآسيويّين، في بلدانٍ عديدةٍ، من أجل انعتاقهم من ربقة الاستعمار، والإذلال، والفرز العرقيّ والعنصريّ، كانت دافعًا للطلاّب السود الأميركيّين، المناضلين من أجل المساواة في الحقوق والمواطنة.

وانتهز مارتن كينغ مناسبة ختام السنة الدراسيّة كي يوجّه إلى المتخرّجين رسالةً، نصحهم، من خلالها، أيّةً كانت المهنة التي سيختارونها لمستقبلهم، أن يضيفوا إليها هوايةً تضفي النُبْل على حياتهم، وترقى بمستوى مِهنِهم المختلفة، وتدمغها بطابع السموّ الإنسانيّ، النابع من مساعدة الغير. وبذلك يجعلون وطنهم أوفر قوّةً، ويجعلون العالم مكانًا أهنأ للعيش.

وترسّخ لدى مارتن كينغ اليقين بأنّ إلغاء الفصل العرقيّ يجب أن يشمل، فضلاً عن المدارس، الحدائق العامّة، والمطاعم، والمكتبات العامّة، وبالإجمال يقتضي نسف مبدأ الفصل العنصريّ في البلاد، وأنّ بلوغ هذا الهدف يستلزم من السود التوجّع، والتضحية، وحتّى الموت أحيانًا، والاستمرار في هذا النضال حتّى حصولهم على حقوقهم الديمقراطيّة. وكان واضحًا أنّهم مقدمون على مرحلةٍ متماديةٍ من الآلام.

فناشد شعبَه إضفاء أكبر قدرٍ من الكرامة والسموّ على نضالهم، موضحًا أنّ هدفهم ليس قهر إخوانهم البيض وإذلالهم، بل كسب صداقتهم والنفاذ إلى قناعة ضمائرهم، وإلى جعلهم يوقنون ببطلان الفصل العرقيّ، وبأنّ غاية احتجاجات السود وتظاهراتهم هي التصالح معهم.

حتّئذٍ، كان السود يلجأون إلى الملاحقات القضائيّة من أجل استعادة حقوقهم. وها قد حان وقت العمل المباشر، مثل اللاتعاون مع التدابير اللاشرعيّة،

والاعتراض على الفصْل العرقيّ في شتّى المرافق العامّة، وفي مختلف المدن، وحتّى في العاصمة الفيديراليّة.

ومن نتائج تلك الحركة أن أيقظ فتيانٌ وشبّانٌ ذويهم الأكبر منهم سنًّا، على واجب نبذ الخنوع والتواني عن استعادة حقوقهم المسلوبة.

ومن العوامل التي دفعت الشبّان السود في هذا المنحى، أنّهم وذويهم، كانوا يرتادون المخازن الكبرى ويبتاعون ألبستهم ولوازمهم الأخرى، فيرَحَّب بهم. ولكنّهم عندما يجلسون إلى موائد الطعام والشراب في زوايا تلك المخازن عينها، كان موظّفو تلك الموائد يرفضون خدمتهم، بسبب لون بشرتهم، وغالبًا ما كانوا يشتمونهم ويهينونهم، ويستقدمون الشرطة من أجل طردهم عنوةً أو سجنهم.

ولّما لجأوا إلى الاعتصامات، كان اعتصامهم إيذانًا بكفاحٍ أوفر جدوى، من أجل ظفرهم بحقوقهم. وقد دعم تلك الاعتصامات تضامن آلاف الطلاّب معها، حتّى أضحت قدوةً لجميع المقموعين في العالم، المتطلّعين إلى النهوض، واستعادة حرّيّاتهم المنتهكة، وحقوقهم المهضومة.

كان للاعتصامات أصداءٌ مدوّيةٌ، وتأثيرٌ أقضّ مضاجع المتطرّفين البيض، فاختلقوا تهمة الحنَث بقسمٍ، وألصقوها بهتانًا بالقسّ مارتن كينغ، وأعلنوا على الملأ أنّ محاكمته بهذه التهمة ستكلّفه لا أقلّ من عشر سنوات سجنٍ.

وكانوا قد اتّخذوا كلّ التدابير المؤدّية إلى النتيجة التي ارتجوها، فهيئة المحكمة تألّفت بأكملها من بيضٍ متطرّفين، وكذلك شهود الزور، والقاضي، والمدّعي العامّ. وفي قاعة المحكمة فُصِل السود عن البيض بصرامةٍ، ولم يُسمح إلاّ لصحافيّين بيضٍ بتغطية الحدَث. فبدت كلّ الدلائل تشير إلى إدانةٍ حتميّةٍ لمارتن لوثر كينغ، واستحوذ

هذا الشعور المخيف على نفوس جميع سود الجنوب الأميركيّ، ما عدا المحاميَيْن اللذين تطوّعا للدفاع، وقد جاء أحدهما من شيكاغو، والآخر من نيويورك، وبرهنا كلاهما عن حكمةٍ، وجرأةٍ، وفصاحةٍ نادرةٍ، وتصميمٍ على النجاح.

وفي أعقاب ثلاثة أيّامٍ من الجلسات المتعاقبة، في جوٍّ مشبعٍ بالحقد والعداء من جانبٍ، وبالصبر المكتوم من جانبٍ آخر، أفلح المحاميان في إقناع هيئة المحكمة، وأشرعا ثغرةً في جدار التعصّب والأحكام المسبّقة، وحملا هيئة التحكيم على قبول شهادة أسود مقابل شهادة أبيض. وخلافًا لكلّ التوقّعات، صدر الحكم بتبرئة مارتن لوثر كينغ.

وأثبتت كفاءة المحاميَيْن، المدعومة بالتمكّن القانونيّ الراسخ، قدرتها على إخضاع هيئة تحكيمٍ متعصّبةٍ لمقتضيات العدالة.

اعتقالٌ في أتلانتا وتدخُّلٌ رئاسيٌّ

عُقِدت علاقةٌ بين مارتن لوثر كينغ، والرئيس جون كينيدي، أثناء حملة ترشيح كينيدي للرئاسة. جرى اللقاء الأوّل بينهما في منزل جون كينيدي في نيويورك. وعلى مدى ساعةٍ بيّن كينغ لكينيدي الحاجة إلى سلطةٍ تنفيذيّةٍ قويّةٍ، وحازمةٍ في تنفيذ قرارات المحكمة الفيديراليّة العليا، وقد أُعجب مارتن كينغ بنظرة كينيدي إلى الحقوق المدنيّة، وبعزمه على تحقيقها، في كلّ ما يحدث بهذا الشأن.

في ذلك اللقاء شدّد مارتن كينغ على ضرورة منع التفرقة في استخدام المساكن المموّلة من الخزينة الفيديراليّة، وعلى حقّ السود في الانتخاب والترشّح، وندّد بدأب سلطات أتلانتا على عرقلة هذا الحقّ، بوجه السود. وقد أبدى كينيدي استعدادًا حماسيًّا لتلبية كلّ تلك المطالب، مع أنّه لم يكن، حينئذٍ، على اتّصالٍ بالسود، ولم يكن محيطًا بمدى توقهم إلى الحرّيّة والمساواة، وكانت معرفته بهذه القضيّة ذهنيّةً فحسب.

وفي لقاءٍ ثانٍ بينهما، بعد بضعة أشهرٍ، اتّضح لكينغ أنّ كينيدي أمسى أكثر إلمامًا بأوضاع السود الأميركيّين، وبالغُبن اللاحق بهم.

واتّفق، حينئذٍ، أن دعا طُلّابٌ سودٌ مارتن كينغ إلى مواكبتهم أثناء اعتصامهم في زاوية طعامٍ بأحد المراكز التجاريّة الكبرى، ولبّى دعوتهم، فأُلقي القبض عليه بتهمة مخالفة قوانين الفصل العرقيّ، وأبى أن تُدفع كفالة إطلاق سراحه وسراح رفاقه، معلنًا استعداده للمكوث في السجن، مهما طال أمده، دعمًا لحقوق السود، وإيقاظًا لضمائر البيض على امتهانهم للشرائع الإنسانيّة والإلهيّة.

وبما أنّ عدد رفاقه في الاعتقال بلغ العشرات، وكرّت ستّة أيّامٍ، ولم يسعَ المعتقلون إلى الخروج من السجن، ساورت أصحاب المراكز التجاريّة الكبرى خشية تصاعد غضبٍ شعبيٍّ قد يُطيح بمصالحهم، فتنازلوا عن شكاواهم، وأُطلق سراح جميع المعتقلين بلا كفالةٍ ولا غرامةٍ.

غير أنّ رجال الأمن أحجموا عن إخلاء سبيل مارتن لوثر كينغ، متذرّعين بتهمةٍ قديمةٍ تتعلّق بمخالفته بنود الحرّيّة المشروطة، إثر مخالفته لقانون السير الذي يفرض تغيير إجازة السوق، عند تغيير مكان الإقامة، والحصول على إجازة سوقٍ جديدةٍ من مكان السكن الجديد، وبهذه التهمة الواهية اقتيد إلى سجنٍ مركزيٍّ في مقاطعةٍ أخرى. واضحةً كانت مخالفة هذا الاعتقال للقوانين، وكون دافعه الانتقام والاضطهاد. ومع ذلك، ومع براعة المحامين الذين تطوّعوا للدفاع عنه، أصدر قاضٍ حكمًا مبرمًا بإخضاعه للأعمال الشاقّة مدى ستّة أشهرٍ. وفي الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي نُقِل مارتن كينغ إلى سجنٍ يبعد نحو ثلاث مئة كيلومترٍ عن أتلانتا، مُقيَّدًا بكلّ جسمه، وبساقيه، ومربوطًا بأرضيّة السيّارة، بحيث لا يقوى على الحركة، تقصُّدًا لإسامته عذابًا نفسيًّا أقسى من الموت، عقابًا على مخالفة إجازة سوقٍ تافهةٍ.

وما إن ذاع خبر سجنه في مركز عقابٍ بعيدٍ، حتّى ثارت ثائرة شعبه، فاتّصلوا بالمتنافسَيْن على الرئاسة الأميركيّة، نيكسون وكينيدي، ولبّى جون كينيدي طلبهم، فأوعز إلى شقيقه السيناتور روبيرت كينيدي أن يتّصل بالسلطات القضائيّة، وأعرب روبيرت كينيدي عن امتعاضه البالغ من السلوك الانتقاميّ المشين من زعيمٍ أسود، فأُطلق سراحه في اليوم التالي. وفي هذه الأثناء كان الرئيس العتيد، جون كينيدي قد اتّصل هاتفيًّا بزوجة مارتن كينغ، التي كانت في أواخر مراحل حملها، مؤكّدًا تعاطفه مع زوجها، وعزمه على فعل كلّ ما يستطيع لتحريره السريع.

ومع أنّه لم يخفَ على مارتن كينغ أنّ تدخّل كينيدي كان بدافع مصلحةٍ سياسيّةٍ، غير أنّه شعر وتيقّن أنّ دافعًا أخلاقيًّا وإنسانيًّا صادقًا كان يحرّكه، في الآن عينه. ولم يتوانَ عن إعلان شكره لكينيدي. غير أنّه حرص على عدم دعوة السود إلى منحه أصواتهم، حفاظًا على حرّيّة كلٍّ منهم، وعلى إبعاد السود عن الانحياز إلى فريقٍ دون آخر. غير أنّ معظم السود منحوا كينيدي أصواتهم، تقديرًا لموقفه من زعيمهم كينغ.

ومع أنّ حكومة جون كينيدي قد أكّدت عزمها على إلغاء التفرقة العرقيّة، ومنح المواطنين حقوقهم المدنيّة الدستوريّة سواسيةً، إلاّ أنها تراخت في تنفيذ هذا العزم، وشجّع هذا التراخي المتطرّفين البيض على ممارسة المزيد من التشدّد في حرمان السود وفي التنكيل بهم، وبالمقابل قرّر السود توسيع نطاق حركتهم، والانتقال من مظاهراتٍ عارضةٍ محدودة الأهداف إلى تظاهراتٍ أكثر استمرارًا وشمولاً. فشهدت مناطق في الميسيسيبي وجيورجيا، التي طالما لبثت هادئةً، اضطراباتٍ أثناء حملات التسجيل على لوائح الانتخابات العامّة. وكانت مقاومة السود الأوسع بروزًا في منطقة "ألباني" بولاية جيورجيا، حيث برهن السود عن مقاومةٍ صُلبةٍ وعنيدةٍ، ولو أفضت بهم إلى السجن، مع التزامهم الدائم باللاعنف. ولا سيّما أنّ البيض قد طالما دأبوا هناك على منع السود من ارتياد المدارس، والمكتبات والمطاعم والحافلات، وأمعنوا في التحاشي عن كلّ اختلاطٍ بهم، وإغراقهم في التهميش والحرمان. وكان السود يكتمون نقمةً عارمةً موجعةً، وجروحًا عميقةً داميةً، وكانوا يتناولون طعامهم، ويتعلّمون، ويتنقّلون، ويعيشون ويموتون في جوّ الإقصاء، بصمتٍ وغصّةٍ مكتومةٍ، حتّى كادوا يفقدون احترامهم لذواتهم، إلى أن استيقظوا على وجود دستورٍ يمنع التفرقة العرقيّة.

وقامت حركة "مسافرون نحو الحرّيّة"، عام ١٩٦١، بتظاهرةٍ سلميّةٍ، هزّت منطقة "ألباني" الأميركيّة، وانضمّ إلى الشبّان الذين استهلّوها، كلّ فئات الأعمار، حتّى المسنّون، وكان حصادها وفيرًا، بدءًا بإعلان لجنة التبادل التجاريّ بين الولايات الفيديراليّة، وجوب منع التفرقة العرقيّة في جميع الحافلات العامّة.

وبالتوازي مع هذه الحركة قامت "حركة ألباني" التي قادها الدكتور "أندرسون" (W. G. Anderson)، والتي دأبت مدى سنةٍ على استنفار السود، من أجل العمل على إبطال الظلم اللاحق بهم.

وقد التقى في ألباني فريقٌ من المناضلين بمجموعةٍ من المتخصّصين بالعلاقات الإنسانيّة، وسرعان ما غدت ألباني المكان المختار لعملٍ مصيريٍّ تاريخيٍّ. وأسفر اختمار قرنٍ من الاضطهاد والخيبات، والآلام النفسيّة والجسديّة عن نضجٍ رائعٍ. ذلك كان قدَر مدينة "ألباني" حيث يعيش عشرات ألوف السود، عانوا مدى مئة عامٍ، كلّ أنواع القمع والإذلال، والحصار الاقتصاديّ والثقافيّ، والاستعباد، والفصل العرقيّ، الساعي بأساليب شيطانيّةٍ إلى إدانة نظامه الذميم.

ردّ السود، أخيرًا، على صَلَف البيض باللاعنف الذي استخدموه استخدامًا خلاّقًا، حاذقًا في ابتكار أساليب مدهشة الجدّة، تراوحت بين اعتصاماتٍ في المطاعم، وتخويضٍ في المسابح العامّة، وركوعٍ في الكنائس، فضلاً عن مقاطعة وسائل النقل العامّة التي تمارس الفصل العرقيّ، وإقامة الدعاوى القضائيّة. وكان لتجمّع كلّ تلك الوسائل وقعٌ شديد الوطأة، مع أنّه أوصل أعدادًا غفيرةً من المقاومين إلى السجون.

وحارت السلطات المحلّيّة بين تأمين الازدهار الاقتصاديّ والنموّ والاستقرار، من جانبٍ، والحفاظ على تقاليد عنصريّةٍ، راسخةٍ، باليةٍ، من جانب آخر. وقادتهم تلك

الحيرة من خطأٍ إلى خطأٍ أدهى، ومن كبوةٍ إلى عثرةٍ أشدّ خطرًا، وأفقدهم، يومًا فيومًا، الكثير من عنجهيّتهم، وهيبتهم، لأنّهم كانوا يجهدون إلى توطيد سدود مظالمهم على رمالٍ متحرّكةٍ.

في هذه الأثناء كان مؤتمر قادة مسيحيّي الجنوب، يدعم ماليًّا وأدبيًّا أبطال "ألباني" المناضلين في سبيل انتزاع حقوقهم السليبة، والانعتاق من وضع مواطنين مرذولين إلى مستوياتٍ دنيا.

وكانت أبرزَ ثمار هذه الحركة كسرُ السود لحواجز الصمت والشلل والاستسلام لقدَرٍ غاشمٍ، ودمجُهم بملاطِ كفاحٍ مشتركٍ ضدّ نظامٍ حالَ، طويلاً، دون ظفرهم بحقوقهم الأساسيّة. وكان لتلك الحركة أيضًا فضل لمّ شمل السود شبّانًا، وكهولاً، وشيوخًا، رجالاً ونساءً في كتلةٍ متينةٍ، وكأنّهم جميعهم رفاق زنزانةٍ واحدةٍ، متّهمون بمطالبة اعتبارهم بشرًا ينعمون بالحقوق عينها التي ينعم بها جميع المواطنين الخاضعين لدستورٍ واحدٍ. لقد جمعهم تحدّي نظام الفصل العرقيّ، وتأهّبهم، جماعيًّا، للذهاب إلى السجن، من أجل تقويضه. وكان قد سبقهم إلى السجن مارتن كينغ، بعد أن فشلت مفاوضاته مع سلطات "ألباني"، واتّهامه بجريمة التظاهر غير المرخّص، وتعكير النظام العامّ. وكان، هو، قد رفض إطلاق سراحه بكفالةٍ، وأكّد استعداده لقضاء عيد الميلاد في السجن، آملاً أن يحذو آلاف السود حذوه. ولكم طاب له أن يشهد في الزنزانات الغاصّة بالمعتقلين، نساءً تخطّين سنّ السبعين، ومراهقين، وكهولاً، وبينهم العديد من حاملي الدبلومات الرفيعة، وأساتذة جامعاتٍ، وقانونيّين، وبوّابين، وعمّالٍ بسطاء.

وكم كان رائعًا، في اليوم التالي، مشهد موكبٍ ضمّ سبع مئة مناضلٍ أُطلق سراحهم تحت ضغط تجّار المدينة الذين أكرهوا السلطات المحلّيّة على توقيع عقدٍ مع

قادة السود. ولكنّ تلك السلطات ما لبثت أن نقضت توقيعها، وتراجعت عن الاتّفاق لأنّ المجلس البلديّ رفض إنهاء الفصل العرقيّ، وعاد إلى مقاضاة السود المخالفين لنظام الفصل العرقيّ، وأعاد اعتقال من أُطلِق سراحهم.

واستعادت مقاومة السود اللاعنيفة حركتها النضاليّة، في شهر تمّوز ١٩٦٢. وهبّ مؤتمر قادة السود المسيحيّين إلى دعم حركتهم، وانخرط مارتن لوثر كينغ وفريقه الحقوقيّ في مهمّة تسجيل السود على لوائح الانتخابات العامّة، وفي حلّ القضايا القانونيّة المتعلّقة بهذا التسجيل.

وسارعت المحكمة المحلّيّة إلى استئناف محاكمة مارتن كينغ ومعاونه رالف أبيرناثي، وكان تاريخ النظر في تلك القضيّة قد أُرجئ من شهر شباط، حتّى الوقت الملائم.

ما إن افتُتحت الجلسة حتّى تلا القاضي قرارًا مُعَدًّا، سلَفًا، قضى على مارتن كينغ ومعاونه بدفع مئةٍ وسبعين دولارًا، أو السجن خمسةً وأربعين يومًا، مع الاضطلاع بأعمال منفعةٍ عامّةٍ. وسارع كينغ ومساعده إلى إبلاغ المحكمة، رفضهما، ضميريًّا، دفع الغرامة، بسبب لاشرعيّتها. فأُودعا زنزانةً، في قبوٍ بأسفل بناء المحكمة، لا ينفذ إليها النور، وتسودها قذارةٌ لا توصَف، ويصعب تصوّر وجودها في بلدٍ يدّعي الحضارة. ومع أنّ مارتن كينغ كان يتمنّى القيام بأعمال منفعةٍ عامّة كي يظلّ على تواصلٍ مع جمهوره ومع الحياة العامّة، أحجمت السلطات عن تنفيذ إخضاعه ومعاونه لهذه الأعمال، بقصد جعلهما يعانيان الفراغ والرتابة، واللاحراك المرهق.

وسارع مناصرو مارتن لوثر كينغ ومعاونه إلى تنظيم مسيرة احتجاجٍ إلى السجن، فأُوقفوا قبلَ وصولهم إليه، وسُجِنوا، ولكنّ أناشيدهم المطالبة بالحرّيّة، وترانيمهم أثلجت صدر السجينَيْن الرفيقَيْن.

صباح ١٣ تمّوز بُلّغ مارتن ومعاونه أمرًا بخلع زيّ السجن وارتداء ملابسهما، من أجل مقابلة مدير الشرطة، عند الساعة التاسعة. وحينئذٍ، بلّغهما مدير الشرطة أنّهما حرّان، وأنّ غرامتهما قد دُفِعت. فاحتجّ كينغ مؤكّدًا إيثاره إكمال عقوبته، إرضاءً لضميره، ودعمًا لسبع مئة متّهمٍ سودٍ ينتظرون محاكمتهم. واكتفى مدير الشرطة بإجابته: "يعلم الله أنّي لا أُطيق رؤيتك في السجن، أيّها المحترم". وعلّق مارتن كينغ على ذلك، فكتب: "كانت تلك المرّة الأولى التي أغادر فيها السجن، غير راضٍ".

من المؤكّد، أنّه كان قد قرِف قذارة السجن، ولكنّه قرف أكثر منها قذارة مناورات البيض وسلطاتهم التي أفضت إلى سجنه وإخراجه من السجن. ولم يستطع نسيان مشاهد إخوانٍ له يُرفَسون كي يُكرهوا على تخلية مقاعدهم في المطاعم، أو مراكعهم في الكنائس، أثناء اعتصاماتهم، ثمّ يُزَجّون في السجون.

وكانت المرّة الأولى التي طُرِد من سجنٍ، كان راغبًا في المكوث فيه.

واتّفق، حينئذٍ، أن ضرَبَ رجال شرطةٍ امرأةً سوداء حاملاً، اشتركت في مظاهرةٍ سلميّةٍ، وضربوا بالهراوات محاميًا أسود، فلم يحتمل شبّانٌ سودٌ غير منضوين إلى حركة اللاعنف هذه التحدّيات الوحشيّة، فألقوا على الشرطة حجارةً، وزجاجاتٍ مليئةً، فاضطرّ مارتن كينغ إلى إيقاف جميع المسيرات والتظاهرات، وأمضى أيّامًا يطوف البيوت والنوادي، معلنًا استنكاره لكلّ ردّ فعلٍ عنيفٍ انتقاميٍّ، حتّى أقنع أعتى المندفعين بالإعراض عن الردّ على الصفعة بصفعةٍ أقوى.

وتكفيرًا عمّا حدث أعلنَ يوم توبةٍ، ودعا جميع المنضوين إلى نظام اللاعنف إلى قضاء ذلك اليوم في الصلاة والتكفير، وفي الآن عينه دعا مجلسُ المواطنين البيض في "ألباني"، البيضَ حسني النوايا إلى إعادة نظرٍ جدّيّةٍ في الحالة الراهنة، مشيرًا أنّ

الصَلَف الذي اصطبغ به تعامُلُ المجلس البلديّ، برفضه التفاوض مع قادة "حركة ألباني"، وإنكاره العنيد وغير الشرعيّ لحقّ السود في الحرّيّة والمساواة، والسلوك الهمجيّ الذي انتهجته الشرطة من أجل الحفاظ على الفصل العرقيّ بأيّ ثمنٍ، كلّ ذلك أدّى إلى عواقب خطيرةٍ، وخلَق جوّ عنفٍ ونقمةٍ.

وأدركت سلطات ألباني أنّ ملايين المواطنين الأميركيّين الذين يتابعون ما يجري في ألباني، على شاشات التيليفزيون، سينحازون إلى نبل اللاعنف الذي ينتهجه السود في نضالهم. وفجأةً أعلن مدير الشرطة، بلا حرَجٍ، أنّه، هو أيضًا، من أتباع اللاعنف، وأوقف عنف الشرطة في المدينة التي أثخنها العنف بالجراح، وأوسعها اضطرابًا.

عناد البيض الأحمق في رفض منح مواطنيهم السود حقوقهم الدستوريّة والإنسانيّة حملهم على إيثار جعل الحافلات تصدأ في مستودعاتها، وجعل الشركات التي تمتلكها تعلن إفلاسها، على أن يتساوى السود والبيض في استعمالها بلا تمييزٍ؛ وأدّت حماقتهم، أيضًا، إلى تهاوٍ مطّردٍ في النشاط الاقتصاديّ، وإلى عزوف شركاتٍ كبرى عن افتتاح فروع لها في ألباني، بسبب اللااستقرار السائد فيها، وآثرت المكتبات العامّة إغلاق أبوابها على السماح للسود بارتيادها. ومن جرّاء كلّ ذلك حوّلوا مدينتهم التي كانت معدّةً لازدهارٍ متألّقٍ إلى شبه قريةٍ محرومةٍ من الرفاه والثقافة.

وعندما اقتنعت سلطات ألباني البيضاء برعونة تدابيرها، ألغت قوانين الفصل العرقيّ في مرافق عديدةٍ.

ومن جانبه، استخلص مارتن كينغ أنّ إطالة أمد وصول السود إلى هدفهم، كان تعدُّد مطالبهم، دفعةً واحدةً، وبالتالي تشتّتها. وكان الأجدى تركيزُ كلّ حملةٍ على هدفٍ، ثمّ الانتقال إلى هدفٍ آخر، يقوم مقام رمزٍ.

كان نصر السود، إذن، جزئيًّا، إذ إنّهم لم يحصلوا إلاّ على جزءٍ من حقوقهم، واستمرّ الفصل في أركان الطعام القائمة في زوايا المراكز التجاريّة، وسواها. بيد أنّ ألوفًا منهم كانوا قد سجّلوا أسماءهم على لوائح الانتخابات. ولّما حان موعد انتخاب حاكمٍ جديدٍ لولاية جورجيا، دعم السود مرشّحًا معتدلاً ضدّ مرشّحٍ متشدّدٍ، بشأن الفصل العرقيّ، فنجح المرشّح المعتدل، وأسهم نجاحه في ترجيح كفّة تنفيذ القرارات الدستوريّة المتعلّقة بالمساواة بين المواطنين.

وعقب مناخ اليأس والهزيمة ساد شعورٌ بالقوّة لدى جميع السود الذين امتلكوا جرأة مواجهة الطغاة، وأيقنوا بقدرتهم على غلبة الطغيان. وللمرّة الأولى، على مدى قرونٍ، شعر الإنسان الأسود، في الجنوب الأميركيّ أنّ مقاومة الذين دأبوا على سحقه وإذلاله، والذين طالما احتمل عنفهم، وقبع في سجونهم، قد تمكّن، بنضاله السلميّ من إقصاء حافلاتهم التي كانت تذلّهم على طرقات مدنهم، واستطاع الصلاة في كنائسهم، وإغلاق المنتزهات والمسابح العامّة التي تمارس الفصل العرقيّ، وتخفيض مداخيل تجارتهم، وفضح همجيّتهم ولاإنسانيّتهم أمام الأُمّة والعالم، ونظّم ندواتٍ تدعو، علنًا، إلى الحرّيّة والمساواة، وبالإجمال تقدّم شأوًا بعيدًا. ولم يعُد شيءٌ، ولا أحدٌ قادرًا على كمّ فمه.

وكان النصر الجزئيّ الذي أحرزه السود في ألباني بداية نصرٍ شاملٍ.

حملة "بيرمينغهام"

مدينة "بيرمنغهام"، في ولاية ألاباما، كانت كبرى المدن الأميركيّة صناعيًّا، ومن أكثرها انتهاكًا لحقوق الإنسان. الطغيان والترهيب السائدان فيها، في النصف الأوّل من القرن العشرين، كانا يشيعان مناخًا أشدّ قتامًا وتلوّثًا من سُحُب الدخّان المتصاعد من مداخن مصانعها. مصالحها الاقتصاديّة مرتبطةٌ ارتباطًا وثيقًا بالسلطات في الجنوب ومتشعّبةٌ حتّى الشمال الأميركيّ. وممارسة الفصل العرقيّ فيها تخطّت كلّ الحدود.

وبالإجمال كانت الموقع الأمثل حيث يسع حركة المقاومة اللاعنيفة إثبات قدراتها وجدواها.

فأبرزُ المفوّضين البلَديّين المكلّف بشؤون تلك المدينة يُدعى "يوجين كُنِّر" (Eugene Connor)، ويُلقّب بالثور، هو عنصريٌّ حتّى النخاع؛ يدّعي القدرة على منع السود من أيّة حركةٍ، وحتّى من التنفّس، ويرفض الخضوع لأيّ قرارٍ فيديراليٍّ، يُلزمه بتغيير سلوكه، أو يزيحه عن منصبه. وقد أشاع ذلك "الثور" مُناخًا مريعًا من العنف والرعب والشراسة في بيرمنغهام؛ واستباح أزلامُه إرهاب السود، والتنكيل بهم، وقتلهم، وهم مطمئنّون أن لا عقاب يطالهم. فأمعنوا في تشويههم، ورميهم في الشوارع وتهديدهم بتدمير منازلهم وحرقها متى شاؤوا. حتّى بات يتعذّر إحصاء سودٍ تجرّأوا فتحدّثوا عن حقوقهم المدنيّة، فأُحرِقت منازلهم وكنائسهم، أو نُسِفت بالقنابل والمتفجّرات.

ومع أنّه كان في بيرمنغهام بيضٌ إنسانيّون يستنكرون فعال "الثور"، غير أنّهم لم يجسروا على التعبير عن آرائهم، لأنّ خوفهم من بطش "كُنِّر" كان يكبّلهم ويكمّ

أفواههم. وبالإجمال كانت العنصريّة في بيرمنغهام هي الأشرس والأشدّ طغيانًا في الولايات المتّحدة.

غير أنّ قسًّا يُدعى "فريد شوتلسوورث" (F. Shuttlesworth) هبّ لمجابهة "الثور"، وأسّس منذ عام ١٩٥٦ "حركة ألاباما المسيحيّة من أجل حقوق الإنسان" (ACHR). وأظهر ذلك القسّ، مع نحالة جسمه، جرأةً لا تهاب، وعنادًا في النضال لا يفتر ولا ينثني. ولم يتوانَ "الثور" عن محاولة تحطيمه. فنسف منزله بمناسبة عيد ميلاد عام ١٩٥٦، ثمّ نسف كنيسته، ثمّ حرّض أتباعه على طعنه وطعن زوجته، وزجّهما في السجن ثماني مرّاتٍ.

وفي شهر أيّار عام ١٩٦٢، قرّر كينغ ورفاقه، أعضاء "مؤتمر القادة المسيحيّين في الجنوب" التحالف مع حركة القسّ "شوتّلسوورث"، وشنّ حملةٍ مشتركةٍ، تستنفر جماعة السود بأكملها، على مقاومة الفصل العرقيّ في مدينة بيرمنغهام، وهم مدركون خطورة هذه الحركة، وقدرة نجاحها على تقويض نظام الفصل العرقيّ في أميركا. فالنصر في هذه الساحة كفيلٌ باستقطاب قوًى قادرةٍ على ترجيح موازين الكفاح من أجل الحرّيّة والعدالة. وابتدع كينغ ورفاقه برنامجًا رمزوا إليه بحرف يُشير إلى "المقاومة".

وتمهيدًا لهذه الحركة نظّم مارتن لوثر كينغ رياضةً روحيّةً دامت ثلاثة أيّامٍ، تخلّلتها ندواتٌ دأبت على تحديد تفاصيل برنامج عملٍ، وخططٍ لمواجهة كلّ الاحتمالات الممكنة. ومنعًا لتشتيت الجهود، وتعدّد الأهداف اللذين سبّبا فشل الحملات السابقة، وجّهوا الجهد نحو هدفٍ واحدٍ. وبما أنّ بيرمنغهام تزدهي، في المقام الأوّل، بازدهار تجارتها، وبما أنّ لسكّان المدينة السود قوّةً شرائيّةً مؤثّرةً، فقد استهدفت الحملة ميدان الأعمال، عبر الإيعاز إلى السود بالتوقّف، مؤقّتًا، عن التسوّق، وإضعاف حركة البيع في الحوانيت والمتاجر.

ثمّ شخص ومعاونوه المقرّبون إلى بيرمنغهام، بغيةَ وضع خطّةٍ مشتركةٍ مع "حركة ألاباما المسيحيّة من أجل حقوق الإنسان"، التي كان يقودها القسّ شوتّلسوورث، وتهيئة السود لحملةٍ كانوا يدركون أنّها ستكون طويلةً ومحفوفةً بالمخاطر. وبما أنّ هدفها المباشر كان التأثير على الحركة التجاريّة، فقد قرّروا إطلاقها، بضعة أيّامٍ قبل عيد الفصح، الذي كان يقع، حينذاك، في ٤/١٤، وبدء الاستنفار لها في مطلع شهر آذار.

وحينئذٍ، لفت أحد الحاضرين النظر إلى أنّ انتخاب عمدةٍ جديدٍ لبيرمنغهام سيجري في الخامس من شهر آذار، وأنّ المرشّحين لهذا المنصب هم كُنِّر "الثور" واثنان آخران أقلّ منه عنصريّةً وعنفًا. ولكي لا يستغلّ "الثور" حملة السود لصالحه، قرّر قادة السود إرجاء إطلاق حملتهم إلى أسبوعَيْن يعقبان الانتخاب.

وفي تلك الأثناء عقد صديقٌ لكينغ، وهو عضوٌ في "اتّحاد القادة المسيحيّين في الجنوب" (SCLC)، اجتماعًا في منزله بنيويورك، ضمّ نحو خمسٍ وسبعين شخصيّةً سوداء، وأطلعهم على حركة مارتن لوثر كينغ، وعلى الظروف التي فرضت إرجاء إطلاقها، وبيّن لهم وسائل دعمها.

خسر "الثور" الانتخاب، غير أنّه وأعوانه ادّعوا أنّ ما من قوّةٍ تستطيع إبعادهم عن مناصبهم قبل عام ١٩٦٥. وأقاموا بهذا الشأن دعوى قضائيّةً، وأعلنوا أنّه في حال قضت المحكمة لصالحهم، سيلبثون في مناصبهم سنتيْن أخريَيْن، وإلاّ فلن يغادروا هذه المناصب قبل ٤/١٥، أيّ غداة الفصح.

وحينئذٍ، قرّر القادة السود الذين كانوا يتوقّعون إطالة أمد المقاومة البدء بالمظاهرات على نطاقٍ ضيّقٍ يؤدّي إلى عددٍ ضئيلٍ من التوقيفات، ثمّ توسيع رقعتها تدريجيًّا، يومًا فيومًا، آملين، بذلك، الحفاظ على طاقاتهم، وإكساب تصاعد

حركتهم مزيدًا من الزخم والتأثير. فخلت المظاهرات الأولى من الإدهاش المسرحيّ، ولكنّها اتّسمت بإحكام التنظيم. وإلى جانب المظاهرات استهلّ القادة سلسلة لقاءاتٍ شعبيّةٍ كانت تُعقَد، كلّ ليلةٍ في إحدى كنائس المدينة، وأُلقيت فيها خطاباتٌ استنفرت إرادات الكفاح. واستسنح مارتن كينغ تلك اللقاءات كي يرسّخ في الحاضرين فلسفة اللاعنف، ويدعو إلى تبنّيه، وسيلة نضالٍ.

وتردّدت في أجواء تلك اللقاءات أغاني الحنين والاندفاع والشكوى والتحفّز، التي طالما نبضت بها نفوس السود منذ عهد العبوديّة، فكانت تدوّي هتافات: "استيقظتُ صباحًا، ونفسي تهجس بالحرّيّة"، و"ذات يوم سننتصر معًا".

وفي نهاية كلّ لقاءٍ كان القادة يستنهضون متطوّعين في جيش اللاعنف، مؤكّدين رفضهم تجنيد المرتابين في قدرتهم على تحمّل أعمال العنف، والامتناع عن الردّ عليها بمثلها. ومع ذلك، لبّى النداء مئات الشبّان. وإذ كان بعضهم اعتادوا حمل سكاكين صغيرةٍ، لا لاستخدامها في مواجهة المعتدين ورجال الشرطة، بل بغية الاحتماء من أنياب كلاب "كُنِّر"، فقد أقنعهم قادتهم بضرورة التخلّي حتّى عن تلك الأسلحة، وعن كلّ سلاحٍ، حتّى إذا كان مسواك أسنانٍ، لأنّ السلاح الأشدّ فعّاليّةً هو الثقة بصواب ما يفعلونه، والحماية المثلى هي السعي إلى بلوغ أهدافٍ عادلةٍ، أكثر من السعي إلى اتّقاء الأذى.

لقد سعى القادة السود إلى استنهاض جيشٍ فريدٍ، جهازُه إخلاصُه، وزيُّه تصميمُه، وترسانتُه إيمانُه، وغنيمته وعيُه وضميرُه. كانوا يتطلّعون إلى تطوّرٍ اجتماعيٍّ هائلٍ، يستلزم تحقيقُه وحدةً متراصّةً. فأكثروا اللقاءات مع قيادات السود المختلفة، والتعاون مع كلّ عنصرٍ مؤثّرٍ، قادرٍ على دعم حركتهم.

وبالإجمال، اكتسب مارتن لوثر كينغ ثقة معظم جماعات السود، واستطاع حشدَها في وحدة نضالٍ سلميٍّ، وفي نظامٍ لا يخشى طُغيانًا، ولا يُرهبه حتّى "الثور" الهائج.

بدأت الحركة بثلاثة أيّام اعتصامٍ في المطاعم أدّت إلى توقيف خمسةٍ وثلاثين مناضلاً. ويوم السبت ١٩٦٣/٤/٦، شرع السود بمسيرةٍ إلى دار المقاطعة، لبدء حملة تسجيلٍ على لوائح الانتخابات. ومنذئذٍ، أضحت التظاهرات يوميّةً، ومضت تسارعًا وكثافةً. وأظهرت إحصاءاتٌ أُجريت بضعةَ أيّامٍ قبل عيد الفصح، أنّ عدد السود الذين قصدوا متاجر البيض لم يتخطّ العشرين فردًا.

وبما أنّ عدد المتطوّعين كان يتكاثر باطّرادٍ، لجأ القادة السود إلى أساليب مقاومةٍ أخرى، تمثّلت في الركوع في كنائس البيض، والاعتصام في المكتبات العامّة.

ولاحظ سكّان بيرمينغهام، السود والبيض على السواء، تحفّظ "كُنِّر" المفاجئ، منذ بدء الحركة. فقد ظهرت كلابه، وأزلامه المسلّحون بهراواتٍ فترةً قصيرةً، يوم أحد الشعانين، ثمّ اختفوا. وفُسِّر هذا الاعتدال بمحاولة "كُنِّر" التشبّه بقائد الشرطة، واستخدام اللاعنف وسيلةً للقضاء على المظاهرات السلميّة. ولكنّ العمدة "كُنِّر" سرعان ما عزف عن هذه المحاولة. فنزعة العنف لديه أقوى من كلّ نزعةٍ أخرى، ولم يُطِقْ أن يدع كلابه تزمجر في أكواخها، وأن يترك خراطيم مياه الحريق ساكنةً.

وكان العمدة، في هذه الأثناء، قد استصدر قرارًا قضائيًّا يحظر التظاهر، حتّى صدور قرارٍ آخر يسمح به. وبالمقابل، اتّخذ مارتن كينغ وأعوانه قرارًا جريئًا بمخالفة القرار القضائيّ اللاشرعيّ. واعتزم مارتن لوثر كينغ أن يكون القدوة في العصيان المدنيّ. وحينئذٍ، كان عدد المعتقلين، بعد مضيّ عشرة أيّامٍ على بدء المظاهرات، قد ارتقى إلى نحو خمس مئة شخصٍ، وأُطلق سراح بعضٍ منهم، ولبث نحو ثلاث مئةٍ

مسجونين. وارتأى كينغ ومساعده رالف أبيرناتي، أن يكون يوم الجمعة العظيمة الواقع في ١٩٦٣/٤/١٤، المناسبة المثلى للتضحية، ولضرب المثل الأسطع في عصيان القوانين الجائرة، وللشهادة على سموّ الكفاح في سبيل الحقّ والكرامة.

وكادت السلطات تُفشل هذه المبادرة، فمساء يوم الخميس أبلغ الرجل الذي كان قد تعهّد بدفع كفالات المعتقَلين عجزَه عن القيام بهذه المهمّة، لأنّ السلطات اعتبرت إمكانيّاته الماليّة غير كافيةٍ لهذا الغرض.

وتجلّت خطورة الموقف، فالقادة السود كانوا قد أنفقوا كلّ الأموال المتيسّرة لديهم من أجل دفع كفالات إطلاق سراح موقوفين، نقدًا. وكان ما زال عليهم دفع كفالات مئات المعتقلين، فضلاً عن كفالات الخمسين متطوّعًا للتظاهر مع كينغ وأبيرناتي.

وفي صباح يوم الجمعة العظيمة، تداول مارتن كينغ مع رهطٍ من معاونيه المقرّبين بشأن هذه المعضلة، وقد أخذ بهم الشعور بحلول كارثةٍ، كلّ مأخذٍ. ولاحظ كينغ، للمرّة الأولى، على سِحَن أشدّ معاونيه مراسًا، شعورٌ مرهِقٌ بالعجز. فلم يكن منهم أحدٌ يتفوّه بكلمةٍ، لأنّ لا أحدَ منهم كان لديه حلٌّ أو اقتراح حلٍّ.

وفيما كانت جميع العيون شاخصةً إلى كينغ، عبّر أحدهم عمّا كان يجول بخاطر كلٍّ منهم، وقال: "يا مارتن، يسعك الذهاب إلى السجن. ونحن نحتاج إلى مالٍ، إلى الكثير من المال، ونحتاج إليه في الحال. وأنت وحدك تمتلك القدرة على تأمينه. وإذا سُجنتَ فسنضيع، وستُمنى قضيّة بيرمينغهام بالهزيمة".

خيّم على القاعة صمتٌ ثقيلٌ، وغرق مارتن كينغ في يمٍّ من التساؤلات المُمِضّة، التي لم يكن يستشفّ لها حلاً، واستحوذ عليه شعورٌ مرهقٌ بالوحدة في قاعةٍ ملأى بالرفاق الصامتين.

وحينئذٍ، اختلى بنفسه في غرفةٍ مجاورةٍ، وطافت في ذهنه صُوَر رفاقه القريبين منه، وأطياف ثلاث مئة موقوفٍ ينتظرون كفالات تحرّرهم، وسكّان بيرمينغهام الذين وضعوا فيه أمل خلاصهم، وعشرين مليون أسود أميركيّ يحلمون بالعيش الكريم. وأخيرًا، بزغ نور قراره، وهمس: "عليّ أن أمضي". وسارع إلى استبدال لباسه، بثياب العمل، وعاد إلى رفاقه، معلنًا: "يا أصدقائي، لقد اتّخذتُ قراري. عليّ أن أقوم بفعل إيمانٍ، وأنا غير عارفٍ ما الذي سيحدث، وإلى أين ستفضي الأمور. ولستُ أدري من أين سيأتي المال".

ثمّ التفت إلى مساعده رالف أبيرناتي قائلاً: "إنّي أعلم كم أنت راغبٌ في اعتلاء المنبر، وإلقاء عظة الفصح. ولكنّي أطلب منك مشاركتي، الآن، فعلَ الإيمان الذي وطّنتُ عزمي عليه". وفي الحال، هبّ أبيرناتي، لم يستوضحْ، ولم يتردّدْ، بل أمسك يد رفيقه. فانطلق من ستٍّ وعشرين حنجرةً نشيد "سننتصر".

قصدا، أوّلاً، كنيسةً حيث انضمّ إليهما خمسون مناضلاً متطوّعًا، واخترقوا معًا الشوارع المؤدّية إلى وسط المدينة، والتي كان قد حُظِر عبورها، وهم ينشدون، وتردّ على أناشيدهم تصفيقاتٌ مدوّيةٌ من الأرصفة.

حينئذٍ، أمر العمدة "كُنِّر"، باعتقالهم جميعهم، فهمس شرطيٌّ في أذنه: "لم يعد لدينا أماكن اعتقالٍ". وأقبل شرطيّان مفتولا السواعد، وقبض كلٌّ منهما على مارتن كينغ، ورالف أبيرناتي، بعنفٍ. ثمّ اعتُقل رفاقهما الخمسون. وفي السجن أُقصي القسّان عن الآخرين، ثمّ أُبعد أحدهما عن الآخر.

عُزل مارتن كينغ، عزلاً تامًّا، مدى أربعٍ وعشرين ساعةً، ولم يُسمَح، حتّى لمحاميه، بمقابلته. وكانت تلك الساعات، حسب اعترافه، أطول ساعات حياته،

وأثقلها وطأةً، وأشدّها معاناةً، وامتلاءً بالتساؤلات المحيّرة الممزِّقة: ما سيكون مصير الحركة، وأين سيجد رفاقه المال من أجل إطلاق سراح المتظاهرين المعتقلين؟ وما هي حال جماعة السود النفسيّة؟

وفي الصباح شقّ عليه أن يظلّ غارقًا في الظلمة، في حين بسطت الشمس أشعّتها على الكون. والمشقّة الكبرى التي عاناها، إذّاك، كانت منعه من مهاتفة زوجته، التي كانت قد أنجبت، قبل أيّامٍ قليلةٍ، طفلةً هي رابعة أبنائهما. غير أنّ زوجته اتّصلت بمكتب الرئيس كينيدي فردّ عليها شقيق الرئيس، روبيرت، الذي كان وزير العدل، ووعدها بالسعي إلى تحسين وضع سجن زوجها. ثمّ اتّصل بها الرئيس نفسه، وأبدى اهتمامه بقضيّة مارتن كينغ، فورًا. وما لبث أن لاحظ القسّ السجين تغيّر ظروف اعتقاله إلى الأفضل، وسُمح له بمهاتفة زوجته.

وبعد ظهر يوم عيد الفصح، زاره اثنان من محاميه، وأنبآه بأنّ محاميًا صديقًا سيقدم لزيارته في اليوم التالي. ولّما وصل هذا المحامي الصديق زفّ له البشرى التي بدّدت هواجسه، وهدّأت روعه، فقد أكّد له توفّر مبلغ خمسين ألف دولارٍ من أجل دفع كفالات جميع الموقوفين في الحال.

أبواب السجن لم تمنع الله من مواكبته. لقد كان الله رفيق سجنه حقًّا. وأيقن مارتن كينغ أنّه سيرى الشمس قريبًا.

رسالةٌ من سجن "بيرمينغهام"

لطالما شكا مارتن كينغ تخاذلَ الكنيسة عن دعم السود في سبيل حقوقهم وكرامتهم. وغداةَ حجره في زنزانةٍ فرديّةٍ، دُسَّت، تحت باب زنزانته صحيفةٌ، طالع فيها إعلانًا وقّعه ثمانية رجال دينٍ يمثّلون مختلف الطوائف في أميركا، منهم ثلاثة أساقفةٍ، وحاخامٌ، وأربعة قسّيسين. وندّد ذلك الإعلان بتظاهرات السود ووصفها بالتطرّف، والخنوع والمشاغبة، وبشتّى النعوت المماثلة.

وحرص مارتن كينغ على الردّ عليها برسالةٍ مستفيضةٍ، بدأ بتدوينها على حواشي الصحيفة التي نشرت البيان، وتابع تدوينها على ما كان يجود به عليه سجّانٌ طيّب القلب من أوراقٍ، ثمّ على دفترٍ تمكّن محاموه من تزويده به.

وفي ردّه دحض كلّ الاتّهامات الباطلة التي وُجِّهت، افتئاتًا، إلى حركته، وشرح، مليًّا، مبرّراتها وترفّعها عن كلّ عدائيّةٍ، والتزامها باللاعنف الذي تمّ التمرّس به بصبرٍ وسهرٍ.

وذكّر الذين دعوه إلى الصبر والتأنّي، بسرعة حصول الأفريقيّين والآسيويّين على استقلالهم، في حين ما زال حصول سود أميركا على الحقوق التي منحهم إيّاها الله والدستور، تسير على وقع مسيرة حمارٍ. وأكّد أنّه كان الحريّ بموقّعي البيان دعوة السلطات البيضاء إلى الإسراع في تنفيذ وصايا الله، وبنود الدستور الأميركيّ، وقرارات المحكمة الفيديراليّة العليا.

وأخذ على منتقديه من البيض الدفاعَ عن قوانين ظالمةٍ، عوضًا عن الوقوف إلى جانب العدل. وأكّد أنّ الخيبة الكبرى أتته من كنائس البيض التي التزمت بأنظمة الحكّام الفاسدين، وأغفلت تعاليم الإنجيل.

وتساءل، بألمٍ، أين كان القسّيسون والكهنة والحاخامون البيض عندما كانت شراسة السلطات المحلّيّة تنكّل بإخوتهم السود، مزريةً بشرائع الله، والشرائع الإنسانيّة، مشكّكًا بصحّة إيمان الذين يفخرون بكنائسهم المزدهية بقببها الشاهقة، وصروحها الفخمة، وهم ذاهلون عن مآسي إخوتهم. وأشار إلى البوْن الشاسع بينهم وبين المسيحيّين الأوائل الذين كانوا يسعدون بتقديم حياتهم دفاعًا عن إنجيل المحبّة.

هذه الخيبة واكبته في مونتغومري، وفي بيرمنغهام، وفي ولايَتَيْ ألاباما وميسيسيبي، حيث تدعم الكنيسة النظام القائم على الظلم وانتهاك وصيّة المحبّة. ولكنّه أعرب عن شكره للعزاء الذي وفّرته له قلّةٌ من القساوسة الذين خاطروا بأوضاعهم المريحة، من أجل إخوتهم، وانضمّوا إلى نضال كينغ ورفاقه، وهم موقنون بأنّ أساقفتهم سيُقصونهم عن مراكزهم وعن رعاياهم وكنائسهم، ومؤمنون بأنّ الحقّ المغبون والمقهور هو أفضل من الشرّ المنتصر. شهادة هؤلاء الأبطال كانت هي الملح الذي حافظ على تعاليم الإنجيل الأصيلة وسط ضياع الحقوق والمبادئ، وغَرَق العدالة، وشهادتهم هي التي وطّدت إيمانه بانتصار الحقّ في نهاية المطاف، وثقته بأنّ السود سينالون حرّيّتهم وحقوقهم، وسيُغيّرون وجه وطنهم.

وعن إسراف الزعماء الدينيّين في امتداح رجال الأمن الذين حفظوا الأمن، قال:

«لم يكن مديحهم يستحقّ هذه الحرارة من قِبلكم، لو شاهدتم كلابهم المدرّبة على الفتك الشرس تغرس أنيابها الحادّة في أجساد قومٍ سودٍ عزّلٍ، محصّنين ضدّ العنف، ولو شاهدتم التنكيل اللاإنسانيّ البشع الذي ألحقوه بالسود، حتّى هنا، داخل السجن؛ ولو رأيتموهم يشتمون ويُذلّون نساءً وفتيانًا، ويُمسكون عنهم طعامًا يبقيهم على قيد الحياة، لمجرّد أنّهم أنشدوا معًا؛ ولم يبتغوا من كلّ هذه الشرور سوى الحفاظ على نظامٍ شرّيرٍ، لاإنسانيٍّ.

"وكم كنتُ أتمنّى، بالحريّ، أن تهنّئوا السود على بسالتهم البطوليّة، وروح التضحية الذي كان يحدوهم، وانضباطهم الرائع في مناخٍ هائجٍ، صاخبٍ».

الحرّيّة فورًا

أثناء سجن مارتن لوثر كينغ استمرّت تظاهرات السود، واستمرّت السلطات في سجن المئات منهم، وظلّت سادرةً في غيِّها، ثابتةً على عنادها، وعزمها على مواصلة التفرقة العرقيّة، لا بل على تشديد قيودها.

وبعد احتجازٍ، دام ثمانية أيّامٍ، أُفرج عن كينغ وأبيرناتي بكفالةٍ، وكان قد ارتضيا دفع الكفالة، رغبةً منهما في استعادة الاتّصال بقادة مسيحيّي الجنوب، وتنفيذ خطّةٍ تسهم في تسريع النصر، عبر إشراك الطلاّب في الحملة التحريريّة، مع يقين كينغ بأنّه سيجلب على ذاته نقدًا لاذعًا، لإقحامه مراهقين في حملةٍ سياسيّةٍ. ولكنّه كان شديد الحرص على تنفيذ تلك الخطّة، التي كان يتوقّع لها تأثيرًا مزلزلاً، وعلى إقناع الشبيبة السوداء بأنّ مستقبلها مرتبطٌ ارتباطًا وثيقًا بالكفاح الذي كان يقوده في سبيل مساواتهم في الحقوق المدنيّة مع سائر المواطنين.

وعملاً بخطّته طاف قادةٌ مسيحيّون في المعاهد والثانويّات والجامعات، مستنفرين شبّانًا مؤمنين بقضيّتهم، ودعوهم إلى الاجتماع في الكنائس من أجل تلقّي تدريبٍ على النضال اللاعنيف، فأقبل الفتيان بالمئات، واستمعوا بشغفٍ إلى مشاريع قادتهم الساعية إلى الحصول على حقوقهم السليبة، لا بعد سنواتٍ، بل في الحال، وأبدوا استعدادهم لتوظيف اندفاعهم وطاقاتهم الخلاّقة في سبيل هذا الهدف مع الالتزام بمبدأ اللاعنف. وغدت تلك الحركة تعني لهم ولمستقبلهم الحلم الزاهي، الذي طالما داعبوه.

وكما كان متوقّعًا اعترضت صحفٌ على إقحام فتيانٍ في معركةٍ اجتماعيّةٍ. غير أنّ ضمير محرّري صحفٍ أُخرى كان قد استيقظ من سباتٍ عميقٍ، ومن صمتٍ

متمادٍ ومجرمٍ، عن مآسي فتيانٍ سودٍ وُلدوا وترعرعوا في أقبية الحَجْر العنصريّ حيث بلغ تلوّث الهواء مرحلة الفساد، وزاده فسادًا حرمانُهم من حقوقهم الإنسانيّة والوطنيّة الأساسيّة. وبعد لأيٍ تعاطف أولئك الصحافيّون مع أولئك الفتيان، وردّ عليهم هؤلاء بطريقتهم، وبلسان فتاةٍ في الثامنة من العمر كانت ممسكةً بيد أمّها المشاركة في مظاهرةٍ، وانعطف عليها شرطيٌّ، وسألها: "وأنت، يا صغيرة، ما هو مطلبك؟". فحدّقت إليه، وغرست عينيها في عينيه بجرأةٍ، وأجابت "مطلبي الحرّيّة!". ومع أنّ تلفّظها بهذه الكلمة كان متعثّرًا، إلاّ أنّه كان لجوابها وقع أبواق الملائكة.

وكم كان رائعًا استعداد مراهقين سودٍ لاحتمال كلّ شيءٍ، وحتّى أقسى العقوبات، كي ينعم آباؤهم وأمّهاتهم، قبل موتهم، بالحرّيّة والمساواة مع سائر المواطنين، وكي ينعموا، هم، بمستقبلٍ زاهٍ كريمٍ. وكان لاشتراكهم بالتظاهرات وقعٌ بليغٌ. واغتنم القادة السود هذه السانحة كي يحقّقوا نداء غاندي: "فلنملأ سجونهم". فحرّضوا طلاّب الثانويّات والجامعات على مخالفة قوانين الفصل العرقيّ، وعلى الخضوع للسَّجن زرافاتٍ وجماعاتٍ، وانتهت هذه الحركة بسجن نحو ألفَيْ شابٍّ. وكان الفرح المشعّ على وجوههم يحرم المعتدين طعم النصر، ويُظهرهم بمظهر الخاسرين.

لم يكن الشبّان يكفّون عن إنشادهم أثناء تظاهراتهم، وأثناء احتجازهم، وأثناء دفعهم، دفعًا وحشيًّا، إلى سيّارات الشرطة. ولمّا لم يبقَ للشرطة سيّارات حجزٍ، استعانوا بسيّارات الأمن، وبالحافلات المدرسيّة.

وفيما كانت السجون تمتلئ، كانت شراسة أزلام مفوّض الشرطة تنحفر في أذهان الأميركيّين، وأذهان العالم أجمع، مُظهِرةً أجساد نساءٍ مسنّاتٍ تقع تحت أقدام الراكلين، وتحت هراوات رجال الشرطة الأفظاظ، وصور أطفالٍ يتحدّون بلا

خوفٍ، أنياب كلابٍ مدرّبةٍ على النهش، وصُوَر خراطيم مياه الحريق المنصبّة بأقصى قدراتها على أجساد المتظاهرين قاذفةً بهم على قارعة الطريق.

جَزَع القادة السود من وحشيّة السلطات امتزج بافتخارهم بما برهن عليه شعبهم من بسالةٍ، وصمودٍ مترّهٍ من كلّ عنفٍ، وثباتٍ لا يهتزّ، ولا يحيد عن مبادئهم وأهدافهم. وقد هزّت بطولتهم ورفعة موقفهم ضمائر الأُمّة، على طول البلاد وعرضها، وأمسى كفاح السود هو كفاح جميع الشرفاء من كلّ جنسٍ وكلّ دينٍ.

وتكاتفت تلك العوامل على خلق مناخٍ مؤاتٍ للحركة النضاليّة، ولتوثيق أواصر وحدة السود. وسرعان ما دعمهم التجّار من كلّ الألوان حمايةً لمصالحهم، بعد أن لمسوا تضاؤل مبيعاتهم تضاؤلاً مطّردًا كفيلاً بالإفضاء بهم إلى الإفلاس.

وبهذه المناسبة كتب مارتن لوثر كينغ:

«ثمّة من يكتبون التاريخ، وثمّة من يصنعونه، ومن يُعانونه. لستُ أعلم كم منكم يستطيعون تدبيج كتاب تاريخٍ. ولكن من المؤكّد، أنّكم تصنعون التاريخ، وستوفّرون لمؤرّخي المستقبل إمكانيّة تسجيل فصلٍ رائعٍ من التاريخ. فعلى امتداد تاريخ بلادنا لم يُسجَن، قطّ، بقدر ما سُجِن الآن دفاعًا عن الحرّيّة والكرامة الإنسانيّة».

واللافت في تلك الحملة أنّ البيض في بيرمينغهام التزموا الحياد الرامز إلى تعاطفٍ صامتٍ مع مطالب السود خلافًا لمواقفهم السابقة. فاستخلص السود، من هذا الموقف، أنّهم ماضون على درب النصر.

وجرى، آنذاك، حدَثٌ مذهلٌ. فبعد ظهر يوم أحدٍ، اجتمع مئاتٌ من سود بيرمينغهام، وقرّروا القيام بتظاهرةٍ، على مقربةٍ من السجن البلديّ، وانطلقوا من

كنيسةٍ، في موكبٍ سلميٍّ منظّمٍ. وأمر العمدة "الثور" إطلاق كلابه الشرسة، وخراطيم مياه الحريق. ولّما دنا الموكب من هدفه، أمره "الثور" بالتوقّف وبالتراجع إلى الوراء. غير أنّ القسّ الذي كان يقود الموقف عصى الأمر، وتابع الموكب زحفه. فأمر "كُنِّر" بإطلاق خراطيم الماء. ولكنّ رجاله لم يلبّوا أمره، ولبثوا ساكنين، متأمّلين المتظاهرين الذين ركعوا، وحدّقوا إلى عيون جلاّديهم بلا وجلٍ، فأصابوهم بضربٍ من التنويم المغناطيسيّ، وجعلوهم يتقهقرون منكّسين الخراطيم.

في تلك اللحظة أحرز اللاعنف نصرًا مُبينًا!

ومع ذلك، ما زال بين صفوف المتطرّفين البيض من يؤثر إعلان إفلاسه على التفاوض مع السود. ولكنّ ضغوط الرأي العامّ الأميركيّ، دفعت السلطات الفيديراليّة على التدخّل، فأوفد الرئيس ممثّلين عنه من أجل تفعيل المفاوضات.

وبهذه المناسبة وجّه مارتن لوثر كينغ إلى شعبه بيانًا جاء فيه:

«لا تقلقوا بشأن صغاركم، ولا تُمسِكوهم عن المضيّ إلى السجن، فهم لا يكافحون من أجلهم فقط، بل من أجل جميع الأميركيّين، ومن أجل الجنس البشريّ أجمع. تذكّروا صبيًّا، في الثانية عشرة من عمره، خاض نقاشًا مع علماء أورشليم، وأجاب أولياء أمره الخائفين عليه: "عليّ العناية بشؤون أبي".. وصغاركم يعتنون بشؤون آبائهم، ويحفرون نفق رجاءٍ، في جوف جبلٍ من القنوط... سنسهر على أن يلقوا معاملةً لائقةً، فلا تقلقوا، واستمرّوا في ملء لا سجون المدينة فحسب، بل كلّ سجون ولاية ألاباما، إذا اقتضى الأمر».

وفيما كان ممثّلو الرئاسة الأميركيّة يسعون إلى عقد مفاوضاتٍ، كانت شوارع بيرمينغهام مسرح اضطراباتٍ ومناوشاتٍ يوميّةٍ. وما انفكّ العمدة "الثور" يدعم ترسانة عنفه بالمزيد من الوسائل الهمجيّة، مستخدما إلقاء الطوب، والزجاجات الملأى على المتظاهرين، وعلى السيّارات الفيديراليّة المدرّعة.

وأكره تفاقُم العنف القادةَ البيض على البحث عن مخرجٍ، غير أنّ تصلّب فئةٍ من العنصريّين البيض، كان يجعل أيّ اتّفاقٍ متعذّرًا. ولكنّ مشهدًا جعلهم يعيدون النظر. فقد غادر نحو مئة مفاوضٍ جلسة مناقشاتٍ من أجل تناول الغداء. وكانت الشرطة البلديّة قد ملأت السجون بالمتظاهرين، والذين لم تتّسع لهم السجون احتلّوا الأرصفة والشوارع، وأمسَوا أمواجًا سوداء تعجّ بها المدينة، والتزموا الهدوء، واللاعنف وملأوا الأجواء بأناشيد الحرّيّة والكرامة. وأمام هذا المشهد أدرك البيض العنصريّون أنّهم يواجهون سدّ مقاومةٍ منيعًا، فعادوا القهقرى إلى قاعة المفاوضات، وأعلن أشدّهم تصلّبًا: "لقد أعملت الفكر بالوضع وأرى من الواجب السعي إلى إيجاد مخرجٍ للأزمة".

هذا الإعلان كان بداية النهاية. ففي عصر ذلك اليوم بُلِّغ موفد الرئاسة أنّ ممثّلي التجّار والصناعيّين راغبون في التفاوض، فورًا، من أجل وضع بنود اتّفاقٍ. وبعد أن لمس لديهم القادة السود صدق النوايا، أبدوا استعدادًا لإعلان هدنة يومَيْن.

وفي ذلك اليوم عينه، وقف الرئيس كينيدي مقدّمة مؤتمره الصحافيّ على الوضع في بيرمينغهام، مؤكّدًا على واجب مواجهة الأمر، مواجهةً جدّيّةً، وحلّه حلاً مُرضيًا، وحثّ على التفاوض البنّاء.

دامت المفاوضات طوال يوم الأربعاء، وليلة الخميس، وأسفرت صباح يوم الجمعة، ١٩٦٣/٥/١٠، عن اتّفاقٍ تضمّن:

١. إلغاء الفصل العرقيّ في أماكن الإطعام، ومناهل الشراب، والمراحيض العامّة، وفق مراحل مُبَرْمجةٍ، وفي غضون تسعين يومًا من تاريخ توقيع الاتّفاق.

٢. التوسُّع في توظيف السود، بمنأًى عن التمييز، في ميدان الصناعة، وفي المكاتب، وفي مراكز البيع، خلال سنتين من توقيع العقد. ولهذا الغرض

أُلِّفت، في الحال، لجنةٌ ضمّت شخصيّاتٍ من أوساط الأعمال التجاريّة والصناعيّة، والمهن الحرّة، بغيةَ تسريع توظيف السود في مواقع مهنيّةٍ كانت محظورةً عليهم سابقًا.

٣. التعاون بين البيض والسود من أجل الإفراج عن المسجونين.

٤. عقد اتّصالاتٍ رسميّةٍ بين البيض والسود خلال أسبوعين لتوقيع الاتّفاق، والحؤول دون تظاهراتٍ جديدةٍ.

عندئذٍ أعلن مارتن لوثر كينغ:

«يسرّني إعلان أنّنا، بعد ظهر هذا اليوم حصلنا على تعهُّداتٍ، ستنهار، بموجبها، أسوار الفصل العرقيّ في بيرمينغهام، بفضل انتفاض العديد منكم على الظلم، ومطالبتكم بالحرّيّة، واستعدادكم للسجن في هذا السبيل».

وسرعان ما أُذيع هذا الاتّفاق على شتّى وسائل الإعلام، وتناقلته محطّات التيليفزيون العالميّة، واحتلّ عناوين جميع الصحف. غير أنّ المتصلّبين البيض استعروا نقمةً على التجّار والصناعيّين البيض، الذين وقّعوا الاتّفاق، واتّهموهم بخيانة قضيّتهم، وباستسلامهم لمطالب رعاة كنائس السود.

وألقت المنظّمة الإرهابيّة "كيو كلاكس كلان" قنبلةً فجّرت منزل شقيق مارتن كينغ، وقنبلةً أخرى دمّرت الغرفة رقم ٣٠ من فندق كان قد جعل منه مارتن كينغ مقرًّا، ومركز اجتماعاتٍ لتحضير المظاهرات. ولكنّ مارتن كينغ، كان، في تلك الليلة، يحاول الظفر ببضع ساعات نومٍ في منزله بأتلانتا، بعد خمسة أيّامٍ من السهر المتواصل المضني.

واتّضح أنّ توقيت تلك التفجيرات قد توافق مع موعد خروج روّاد البارات منها، بعد منتصف الليل، بقصد جرّ سودٍ سكارى إلى فتنةٍ تفضي إلى إسقاط

الاتّفاق المعقود. وبالفعل ما لبثت أن غصّت الشوارع بالسود الغاضبين، غير المنتظمين في حركة اللاعنف، ولم يُفلِح عقلاؤهم في إقناعهم بالعودة، هادئين، إلى مساكنهم. وقُذفت سيّارات الشرطة بالحجارة، وقُلِبت سيّاراتٌ متوقّفةٌ في الطريق، وكادت تشبّ حرائق. وسارعت قوى الشرطة إلى محاصرة أحياء السود التي أوسعوها وأوسعوا قاطنيها تنكيلاً وحشيًّا.

ولم ينسَ، قطّ، مارتن لوثر كينغ تلك الليلة التي حرمه، فيها، نومًا كان في أشدّ حاجةٍ إليه، اتّصالٌ هاتفيٌّ من أخيه القسّ الذي فُجِّر منزله، وأسمعه ضوضاء الشغب، وإنذارات العواقب الوخيمة، ولكن سرعان ما غطّى الضوضاء نشيدٌ رائعٌ، حافلٌ بالعزاء، انطلق من حناجر الملتزمين باللاعنف، والذين كانت أقدامهم غارقةً في ركام الأنقاض، ويُحيق بهم حقدُ العنف والإجرام، ومع ذلك، كانوا يُنشدون، ويردّدون لازمة: "سننتصر".

كم كان رائعًا إنشاد الرجاء والإيمان، في حومة الاضطهاد والألم!

مساء اليوم التالي، عبّر الرئيس كينيدي عن شديد امتعاضه، وأعلن أنّ السلطات الفيديراليّة لن تسمح للمتطرّفين بنسف اتّفاقٍ عادلٍ ومتوازنٍ. وأمر ثلاثة آلاف عنصرٍ من الجيش الفيديراليّ بالتمركز قرب مدينة بيرمينغهام، ووضع الحرس الوطنيّ في ألاباما تحت إمرة السلطات الفيديراليّة. فلجمت هذه التدابير الحازمة جموحَ صانعي الفتنة وعشّاق الجرائم.

بيد أنّ العنصريّين عمدوا إلى حيلةٍ شيطانيّةٍ أُخرى، فأعلنوا عبر صحافةٍ مأجورةٍ، أنّ مديريّة التعليم في بيرمينغهام قد فصلت وطردت نحو ألف طالبٍ، شاركوا في التظاهرات، أملاً في حفْزِ أعدادٍ غفيرةٍ من الطلاّب السود على الاثّئار، وإعلان الإضراب، والعودة إلى التظاهر، خرقًا للاتّفاق المعقود.

وسارع مارتن لوثر كينغ إلى تحذير أتباعه من الوقوع في الفخّ، مؤثرًا اللجوء إلى القضاء الذي أدان مديريّة التعليم. وفي اليوم التالي أصدرت المحاكم أمرًا يُلزم العمدة "الثور" ومعاونيه، ومفوّضي الشرطة بمغادرة مراكزهم نهائيًّا.

بالإجمال، كان توقيع اتّفاق بيرمينغهام تتويجًا لمرحلةٍ طويلةٍ من الكفاح البطوليّ الشاقّ، في سبيل العدل والحرّيّة والكرامة. صحيحٌ أنّه لم يُفضِ إلى قمّة النجاح، وإلى العصر الذهبيّ، ولكنّه اجتاز، ببسالةٍ، خطواتٍ شاسعةً في ميدانٍ جديدٍ نحو المساواة.

وأخيرًا، أدرك العنصريّون أنّ نظام الفصل العرقيّ في أميركا دخل مرحلة الاحتضار، وراحوا يبحثون عن وسائل استيفاء نفقات دفنه.

وكان واقعٌ جديدٌ قد انبلج، وفجرٌ جديدٌ قد أشرق زافًّا وعدًا بغدٍ أفضل.

مسيرةٌ نحو واشنطن

صيفَ ١٩٦٣، دوّت صيحةٌ في كلّ أرجاء أميركا، في جنوبها وفي شمالها، ونفذت إلى سمع رئيسٍ قديرٍ، فهزّته، ودفعته إلى اتّخاذ قراراتٍ فريدةٍ تليق برجل دولةٍ عظيمٍ، ودوّت، أيضًا، في دهاليز الكونغرس، وأكرهت اللجان التشريعيّة على إعادة النظر في أوضاع فئةٍ عريضةٍ من المواطنين، كانت القوانين الفيديراليّة قد أعتقتهم، مبدئيًّا، من العبوديّة، ولكنّها تركتهم يُعانون صَلَف النخّاسين الجدُد.

تلك الصيحة أيقظت، أيضًا، ضمائر ملايين البيض الأميركيّين، وأكرهتهم على إعادة النظر في أوضاع عشرين مليونٍ من إخوتهم المظلومين. ومن جانبٍ آخر استنفرت تلك الصيحة قوّة عشرين مليونٍ أسود، تدعمها كتائب الموالين البيض، وألّفت جيشًا هدفه إحراز حرّيّةٍ جديدةٍ مجيدةٍ.

تلك الصيحة كانت قد انبثقت من أحداث بيرمينغهام، وتخاذلِ السلطات حيالها، ومن عدوى إرادة الحرّيّة، والنصر الذي تحقّق عندما هبّ شعبٌ وسار بخطًى موحّدةٍ، متسلّحًا بالمحبّة في مواجهة الكراهية، وبالإيمان في مواجهة الخوف. وفي بيرمينغهام أشاع هذا الإيمان عدواه في البلاد جمعاء. وهكذا أُضرِمت شرارة غضب صيفٍ، وعدًا بخريفِ مَجدٍ، وعدلٍ اجتماعيٍّ.

انتصار السود في بيرمينغهام بيّن أنّ ثورتهم قد نضجت وأمست مُعدِيةً، وأنّ معركتهم قادرةٌ على إحراز النصر إذا هي انتقلت إلى الشوارع وأرصفتها، وأمام الفنادق والسجون.

لقد كانت حركة السود اللاعنيفة في بيرمينغهام ثورةً حقيقيّةً لأنّها أدّت إلى تغيير النفوس، والأذهان والمؤسّسات.

لقد دوّى الانفجار الذي حدث في بيرمينغهام حتّى العاصمة واشنطن فسارعت حكومة الرئيس كينيدي إلى إعادة تنظيم أولويّاتها، ووضعت في رأس أولويّاتها إصدار قوانين حازمةٍ تتعلّق بالحقوق المدنيّة، بعد أن كانت أرجأت البحث في هذه القوانين إلى ما بعد عام ١٩٦٣.

ومن العوامل التي أسهمت في إطلاق أحداث بيرمينغهام تفتُّق عبقريّة عميد قادة السود "آ. فيليب رندولف" (A. Philip Randolf)، الذي تميّز بنضالٍ خلاّقٍ، مدى عقودٍ. وهو الذي أطلق مشروع مسيرةٍ نحو واشنطن تجمع في تظاهرةٍ متألّقة الوضوح، القوى المشتّتة والمبعثرة على جبهةٍ واسعة التشعُّب.

تلك المسيرة كانت تستلزم وحدةً صلبةً، وجرأةً لا تخشى المخاطرة، والمطالبة بتعويضٍ عن أذًى تمادى قرونًا. كان السود قد برهنوا عن قدرتهم على الاتّحاد في بقعةٍ معيّنةٍ. ولكن لم يحدث، قطّ، أن قام لهم تجمُّعٌ جسيمٌ على مستوى الوطن. وحذّر أنبياء الشؤم من أيّ انفلات عنفٍ طارئٍ كفيلٍ بتبديد كلّ أملٍ، وبحمل الكونغرس على العزوف عن إقرار الحقوق المدنيّة للجميع. وحذّر المتشائمون من تخاذل فئةٍ واسعةٍ من السود عن دعم المسيرة، وبالتالي إظهار وهنها.

ومع أنّ ما تحقّق في بيرمينغهام قد طرد من النفوس الريبة في القدرة على عملٍ مشتركٍ حازمٍ، غير أنّ حركةً على مستوى البلاد جمعاء قد شطرت السود إلى فئتيْن: فئةٍ متينةِ الإيمان بقدرة السود على الانتظام والصمود والتكاتف، وفئةٍ تلجمها مشاعر التردّد والريبة، فضلاً عن فئةٍ ضئيلةٍ لم تؤمن بقدرة السود على تنظيم أيّ عملٍ جماعيٍّ، ذي شأنٍ.

غير أنّ الدعوة إلى التظاهر الكبير كان قد دوّى في جميع أرجاء أميركا، وتردّد صداه بقوّةٍ في عاصمة الولايات المتّحدة. ويوم ١٩٦٣/٨/٢٨، اجتمع فيها مئتان

وخمسون ألف نسمةٍ، ضمّت سودًا وبيضًا، من جميع الأديان والطوائف، ومن كلّ الطبقات الاجتماعيّة. احتشدوا أمام تمثال أبراهام لينكولن، متحدّين تحذيرات أعداء العدالة الاجتماعيّة ومعارضي الحقوق المدنيّة، الذين حذّروا من فِتَنٍ قد يشنّها عنصريّو الجنوب.

وانتابت خشيةُ الفتنة حتّى الرئيس كينيدي ومعاونيه، وأعضاء الكونغرس. ومع ذلك كان يسود إجماعٌ على جدوى تلك المسيرة، وعلى تأثيرها الإيجابيّ في مجال تغيير أوضاع البلاد، ودفع نداءُ الواجب الجميعَ قدُمًا إلى نبذ كلّ تردّدٍ. وأبدى الرئيس كينيدي رغبةً في نجاح المسيرة ليقينه بمدى تأثيرها على قرارات الكونغرس.

اعتادت واشنطن أن تشهد كلّ أربع سنواتٍ اجتماعاتٍ ومهرجاناتٍ حاشدةً تضمّ رؤساء جمهوريّاتٍ، ورؤساء وزاراتٍ، ووزراء، ومسؤولين، وقاماتٍ دينيّةً، ومشاهير في شتّى الميادين، للاحتفال بتنصيب رئيسٍ جديدٍ للولايات المتّحدة. غير أنّ الحشد الذي شهدته عاصمة الولايات المتّحدة يوم ١٩٦٣/٨/٢٨، فاق كلّ ما سبقه روعةً، ومهابةً. فمع أنّ الحشد ضمّ رهطًا من الشخصيّات العالميّة البارزة، غير أنّ التأثير الأعمق أحدثه أناسٌ عاديّون بسطاء، وقفوا وقفة كرامةٍ مهيبةٍ، مؤكّدين إرادتهم العنيدة بالتمتّع بديمقراطيّةٍ حقّةٍ، أثناء حياتهم.

جاءوا من جميع الولايات الأميركيّة، وبمختلف وسائل النقل. بعضهُم ضحّوا بأجر أيّام عملٍ، وبنفقات سفرٍ بهظت ميزانيّتهم، وفرضت على كثيرين منهم تضحياتٍ قاسيةً. ومع ذلك، كانوا يضجّون فرحًا. وظلّوا منتظمين، يقظين. كانوا يصفّقون بحماسٍ لقادتهم، ولكنّ القادة صفّقوا بمزيدٍ من الحماس والتقدير لذلك الجمهور الرائع، الذي، مع كثافته، كان قلبًا واحدًا يخفق بأسمى مراقي النبل. كان جيشًا بلا سلاحٍ، ولكنّه ينعم بقوّة المحبّة الهائلة.

لم يُرغَم أحدٌ من عناصر ذلك الجيش على الانخراط فيه. كانوا سودًا وبيضًا من جميع الأعمار. اختلفت مذاهبهم وتوجّهاتهم، ولكن وحّدهم الهدف.

وللمرّة الأولى اشتركت كنائس البيض في هذه المسيرة، وكانت مشاركتها كلّيّةً، مباشرةً، حماسيّةً.

وكان الشعور بالكرامة يفعم قلوب القادة السود، لأنّهم كافحوا من أجل قضيّةٍ إنسانيّةٍ عادلةٍ، بمنأًى عن كلّ حقدٍ أو كراهيةٍ، بل كان هوى الحرّيّة، وحده، هو الذي يسكنهم ويحرّكهم. وكانوا يقفون أمام نصب أبراهام لينكولن، وأمام نفوسهم، وأمام مصيرهم، وأمام الله.

وبهذه المناسبة ألقى مارتن كينغ خطابًا بليغًا، ذكّر فيه أنّ رجلاً عظيمًا، كان لمئة سنةٍ خلت، قد وقّع قرار تحرير السود، ولكن، بعد انصرام قرنٍ على هذا التوقيع، ما زال السود راسفين في قيود الفصل العرقيّ والنبذ والحرمان، ويعيشون على جزيرة الفقر، وسط محيطٍ من البحبوحة المادّيّة، ولكأنّهم منفيّون داخل وطنهم. وبيّن أنّ وعد الحرّيّة والعدالة لكلّ مواطنٍ ظلّ شيكًا بلا رصيدٍ في ما يتعلّق بالملوّنين من المواطنين... وها قد حان أوان تحقيق العدالة لجميع أبناء الله.

وحذّر مارتن كينغ الأميركيّين من فقدان الهدوء والاستقرار، ما لم ينَلِ السود حقوق مواطنيّتهم كاملاً، وأنّ الاضطرابات ستظلّ تهزّ أركان الدولة إلى أن ينبثق فجر العدالة. ومع ذلك، أكّد أنّ السود، في سعيهم الحازم نحو الظفر بحقوقهم، لن يلجأوا إلى دروب العنف، ولن يرووا عطشهم إلى المساواة والحرّيّة بشراب الضغينة والانتقام المرير، وسيشنّون كلّ معاولهم على هضاب الكرامة والنظام، مقاومين العنف المادّيّ بقوى الروح والإيمان.

لا ريب أنّ وجود العديد من البيض الأحرار إلى جانب السود في واشنطن، كان إيذانًا بإدراك المجتمع أنّ مصير كلّ فئةٍ وكلّ عرقٍ مرتبطٌ، ارتباطًا وثيقًا بمصير المجتمع بأكمله، وأنّ التكاتف في المسيرة هو شرطٌ لا مفرّ منه للتقدّم نحو مجتمعٍ أفضل.

وختم مارتن كينغ خطابه بقوله:

«مع أنّه ما زال علينا مقاساة مصاعب اليوم والغد، فأنا عندي حلمٌ مندمجٌ في صُلب الحلم الأميركيّ.

"أحلم بيومٍ نحيا فيه، كلّيًّا، تحقيق دستورنا القائل: "تسلّم بحقائق لا لَبْسَ فيها، ونقرّ بأنّ جميع البشر متساوون...

"... أحلم بأن يحيا أبنائي الأربعة، يومًا، في بلدٍ لا يُحكَم عليهم على أساس لون بشرتهم، بل على طباعهم.

"أحلم بيومٍ يمسك، فيه، صبيانٌ وفتياتٌ سودٌ صغارٌ، بأيدي صبيانٍ وفتياتٍ بيضٍ صغارٍ، ويسيرون معًا، حتّى في ولاية ألاباما، حيث العنصريّة تعيث فسادًا، وحيث فم الحاكم لا يتلفّظ إلاّ بـ "الفصل"، و"الإلغاء".

"أحلم بيومٍ ينخفض كلّ جبلٍ وتلٍّ، ويُقوَّم فيه كلّ متعرّجٍ، ويصير فيه كلّ طريقٍ وعرٍ سهلاً.

"هذا هو رجاؤنا، وهذا هو الإيمان الذي أعود به إلى الجنوب، آملاً أن نستطيع، بفضل هذا الإيمان، استشفاف بصيص رجاءٍ وسط جبال القنوط، واستبدال نشاز الاختلافات بسمفونيّة إخاءٍ، وبهذا الإيمان سنستطيع العمل معًا، والصلاة معًا، والكفاح معًا، والذهاب إلى السجن معًا، والانتفاضة معًا من أجل الحرّيّة، موقنين بأنّنا سنكون أحرارًا، يومَ سنُنشد، معًا، من أجل الحرّيّة».

من المؤكّد أنّ هذا الحدث التاريخيّ الجلَل قد نفذ إلى منزل كلّ أميركيٍّ من خلال شاشات التيليفزيون، وأذهل الكثيرين، وصحّح، في ذهنهم، صورة الأسود الشوهاء، وخيّب آمال العنصريّين المتشدّدين، وأنّ العالم أجمع شاهد قدرات البشر على التطوّر والاصطلاح.

نكتةٌ

فيما شرع سكّان بيرمينغهام ينفّذون مُكرَهين بنود الاتّفاق المعقود بين قادة البيض والسود، استعان متطرّفون بمجموعة "فرسان الليل"، التي كانت قد خلّفت بصماتها الدامية على مطلع القرن العشرين، في أميركا، ففجّرت تلك المجموعة الإرهابيّة كنيسةً معمدانيّةً في بيرمينغهام، قُتِلتْ من جرّائها أربع فتياتٍ. وزاد من وطأة تلك الفاجعة أن أردت الشرطة ولدًا في آخر الشارع، وأودى أولادٌ بيضٌ بحياة صبيٍّ أسود بريءٍ كان يقود درّاجته الهوائيّة.

وتفجّرت آهات الحزن، وصيحات الاستنكار، وعَبَرات القنوط، يومَ دفن المغدورين في غياب أيّ وجهٍ أبيض، ما خلا عددًا ضئيلاً من القسّيسين البيض. وبدفن أولئك الأبرياء دُفن الضمير الوطنيّ، والشرف، والحقّ. وتساءل كثيرون عن وجود الله وسط اغتيالات البراءة.

واستحوذت على مارتن كينغ أزمةٌ وجدانيّةٌ، وحيرةٌ خانقةٌ. فهو يدعو السود المضطهَدين إلى التزام اللاعنف، فيما عنف خصومهم يستشري، يومًا فيومًا، وشعبه يسأله: "ما جدوى اللاعنف، وحتّى متى نلتزم به؟".

وشكا أمره إلى الرئيس كينيدي، محذّرًا من حربٍ أهليّةٍ قد تنجرّ إليها جميع الولايات الأميركيّة، ولكنّ كينيدي نفسه لم يكن يملك القدرة على هدم جدران التمييز العنصريّ في الحال.

وساورت مارتن خشية أن يكون البيض قد استخلصوا من المسيرة السلميّة الصامتة إلى واشنطن، أنّها كانت إعلان انتهاء نضال السود. فحرص على التذكير

بأنّ نيران ثورتهم ما برحت متأجّجةً في صدورهم، ولن يطفئها إلاّ تحقيق كلّ مطالبهم تحقيقًا كاملاً، ولن يثنيهم الإرهاب، ولن تخيفهم القنابل والمجازر.

وحينئذٍ، صُدِمت الولايات المتّحدة باغتيال رئيسها الشابّ جون كينيدي، وصُدِم العالم أجمع باغتيال الآمال التي بشّرت بها ديناميّته، وعزيمته على التغيير.

ولا ريب أنّ السود اعتادوا رؤية اغتيال قادتهم ومناضليهم، وحتّى أطفالهم الأبرياء، بدافع البغض الأعمى. ومع ذلك، راعهم اغتيال الرئيس الخامس والثلاثين للولايات المتّحدة، الذي شذّ عن تخاذل أسلافه، ولم يخشَ التعاطف مع قضايا السود، ومساعدتهم ما استطاع إلى المساعدة سبيلاً.

انهيار تلك الأرزة الشامخة برصاصة غدرٍ جبانةٍ، وكأنّه سقوط حيوانٍ شاردٍ، صدم كلّ إنسانٍ صادقٍ يقدّر الاستقامة والبطولة. فقد كان جون كينيدي، بعد سنتين من الحكم اتّسمتا بالتردّد، من جرّاء هزال دعم الكونغرس له، قد شرع يخطّط لتدابير تجديديّةٍ خلاّقةٍ وجريئةٍ، مبنيّةٍ على إيمانٍ راسخٍ بواجب تحقيق العدالة، ورفع الضيم النازل بفئةٍ عريضةٍ من مواطني أميركا السود. وكان جون كينيدي في نظر كثيرين، من مختلف الاتّجاهات السياسيّة تجسيدًا لإرادة العدل، ولذلك اغتيل. اغتاله مناخ الفساد وأردته عواصف البغض والعنف والعنصريّة والظلم الاجتماعيّ، التي كان يعتزم لجمها، واغتاله التراخي المتمادي في معاقبة جرائم العنف، والتواطؤ مع دوافع الكراهية.

وما زال التحقيق في أمر اغتياله واغتيال شقيقه، من بعده، محاطًا بغموضٍ كثيفٍ مريبٍ، بعد مضيّ ستّة عقودٍ.

مدينة القدّيس أوغسطين

هذه المدينة، في ولاية فلوريدا، تُعَدّ من أقدم مُدن الولايات المتّحدة. وقد اتّخذتها منظّمة "كيو كلوكس كلان" الإرهابيّة مسرحًا لجرائمها. واختطفت فيها أربعة رجالٍ سودٍ، ونكّلت بهم حتّى الموت، ضربًا بالهراوات، ومقابض الفؤوس والمسدّسات.

وهرع القادة المسيحيّون في الجنوب الأمريكيّ إلى مسرح العنف، وطالبوا بـــ:

- تأليف لجنةٍ ثنائيّةٍ.
- إلغاء الفصل العرقي في الأماكن العامّة.
- توظيف شرطةٍ، ورجال إطفاءٍ، وموظّفين سودٍ في مراكز الخدمات البلديّة.
- التوقّف عن ملاحقة الذين تظاهروا بسلامٍ من أجل الحصول على حقوقهم الدستوريّة.

ومنذ وصولهم إلى المدينة تبيّن القادة المسيحيّون وجودَ دمّلٍ متقيّحٍ فيها، يسمّم أوساط الأعمال، والحياة السياسيّة في الولاية جمعاء، وينذر بنقل عدواه إلى البيت الأبيض. فقد كان ثلاثة آلافٍ وسبع مئة مواطنٍ أسود، في فلوريدا، يواجهون، ببطولةٍ، شراسة عنفٍ وحشيٍّ يمارسه عليهم رجال الشرطة أنفسهم، ويتصدّون لفوضى عدوانٍ لم يشهدوا لها مثيلاً من قبلُ.

وسلَكَ القادة دربَيْن متوازيَيْن: العمل المباشر، والمقاضاة القانونيّة، بالتعاون مع موظّفين فيديراليّين.

وأدركت السلطات المحلّيّة أنّ الفوضى تصيب السياحة بأضرارٍ فادحةٍ، فسعوا

إلى إنشاء لجانٍ مشتركةٍ بغيةَ إيجاد الحلّ الأمثل. وارتضى القادة السود إيقاف التظاهرات، أثناء مشاورات اللجان المشتركة، فاتحين، بذلك، دربًا نحو التفاهم.

وبعد مضيّ يومين على مغادرة القادة للمدينة، وقّع الرئيس جونسون قرار الحقوق المدنيّة الذي كان الرئيس كينيدي قد قدّمه للكونغرس. وكان لإعلان هذا القرار صدًى مدوٍّ، ورحّب به ملايين الأميركيّين، سودًا وبيضًا، ولكأنّه إيذانٌ بعهدٍ جديدٍ، قائمٍ على قاعدة المساواة الصلبة.

ذلك القرار كان ثمرة فيضٍ من الدم والعرق، والجهد، والدمع، وكان نتيجة تحطيم السود لقيود الخوف، وتأهّبهم لمواجهة السجن والموت بلا وجَلٍ، وإيثارهم الألم وحتّى الموت على المذلّة والهوان. لقد ملأوا شوارع مدن الجنوب بتظاهراتهم، متحدّين شراسة العنصريّين، إلى أن تبيّن المسؤولون ما يطال صورة أميركا من تشويهٍ في نظر العالم، فاضطرّوا إلى اتّخاذ تدابير إصلاحيّةٍ. ولئن ارتدت تلك الإصلاحات، ظاهريًّا، ثوبًا قضائيًّا وتشريعيًّا، غير أنّ بصمة الجهاد الشعبيّ مطبوعةٌ في صلْبها.

ومن أكثر محاسن تلك التحوّلات إيجابيّةً، أنّها حملت المسؤولين على محاربة الفقر والحرمان.

تحـــدّي ولاية ميسيسيبي

أحداث عام ١٩٦٤، أوضحت أنّ ثورة السود ستتواصل إلى أن تحلّ المساواة التامّة محلّ أساليب العبوديّة.

الحدث الأوّل تمثّل في انعقاد مؤتمر الحزب الجمهوريّ في سان فرانسيسكو، وترشيحه للرئاسة السيناتور "بارّي غولدووتر" (Barry Goldwater)، الذي كان يبزّ منظّمة "كيو كلوكس كلان" عنصريّةً، والذي دعا الأميركيّين إلى الانعزال عن العالم، وإلى شنّ حربٍ على كلّ من يعارض سيطرة أميركا، وإلى موقفٍ اقتصاديٍّ شديد التحفّظ، والانغلاق على كلّ إبداعٍ وتجديدٍ، وإلى النأي عن كلّ سعيٍ إلى مكافحة الفقر. وكان من أشدّ داعمي غلاة التطرّف العنصريّ ودُعاة العنصريّة.

ورأى مارتن كينغ من واجبه دعوة السود والبيض، على السواء، إلى مقاومة انتخابه.

جوّ العنصريّة الرعناء المتجدّدة هذا، كاد يبدّد حلاوة إقرار الحقوق المدنيّة التي قدّمها كينيدي وأقرّها جونسون، وكاد يقلبها مرارةً. وانتاب الجزَع قلوبَ عشرين مليون أسود أميركيٍّ. غير أنّ عزيمتهم لم تنثنِ، وهذا ما أكّده شابٌّ أسود خاطب قائد شرطة ميسيسيبي قائلاً: "لن تجديكم مخاطبتنا بنبرةٍ عاليةٍ. فجميع الذين كانوا يخافون بطش البيض قد فرّوا إلى الشمال، وعليكم أن تتعلّموا التعامل معنا بلياقةٍ!".

أمسى السود يتحدّون خطر الموت والعقوبات الاقتصاديّة، ومناورات الترهيب المطّردة. وغدت آذانهم مصغيةً، بحزمٍ، إلى نداء الحرّيّة والمساواة. وانتهج مارتن

كينغ وصحبه أسلوب الخطاب المباشر "من إنسانٍ إلى إنسانٍ"، وطافوا ولاية ميسيسيبي، وتحدّثوا إلى آلاف الأشخاص في المزارع والمتاجر والشوارع والكنائس، واستمعوا إلى رواية قضاياهم ومشكلاتهم، وأدركوا مخاوفهم، ولمسوا تطلّعاتهم وآمالهم.

ومن الذكريات العذبة التي انحفرت في نفس مارتن لوثر كينغ، خلال تلك الجولات، أنّه كان قد أعلن عن حديثٍ سيلقيه مساءً، في كنيسةٍ معمدانيّةٍ، وفي بحر النهار زار مدرسةً كاثوليكيّةً، وأمامه سألت الراهبة المديرة التلاميذ: "إلى أين ستذهبون هذا المساء؟"، فأجابوا بصوتٍ واحدٍ: "إلى الكنيسة المعمدانيّة!". فقد كان هوى الحرّيّة والكرامة قد محا التباين بين كاثوليكيّين وبروتستانتيّين.

وكانت فئاتٌ واسعةٌ من السود ما برحت ضحيّة اضطهادٍ اقتصاديٍّ جائرٍ، فكانوا يعملون نصف أيّام السنة، ويبقون عاطلين عن العمل مدى النصف الآخر، فيتضاءل دخلهم، وتتضاءل قدرتهم الشرائيّة.

وما انفكّ العنف الجسديّ يهدّدهم باطّرادٍ. وكانت التعدّيات تنصبّ عليهم من رعاع البيض ومن رجال الشرطة، ومع ذلك، ظلّوا عازمين على نفض كلّ حَيْفٍ. وكان ألوفٌ منهم، بمساعدة قادةٍ شجعانٍ، قد سجّلوا أسماءهم على لوائح الانتخابات، إيمانًا منهم بأنّ تغيير البنية السياسيّة هي المدخل إلى تغيير المجتمع والقوانين.

وكانوا، لهذه الغاية، قد ألّفوا حزبًا سمّوه: "حزب الحرّيّة الوطنيّ"، أعضاؤه شديدو المراس، ألِفوا حياة المعتقلات، وزهدوا بالمال والسلاح، ولا تدعمهم سوى قبضةٍ من الناخبين الملتزمين والمقتنعين. ومع ذلك، كانوا القوّة الأكثر قدرةً بفضل تنظيمهم المُحكَم. وقد آلى مناضلوهم على نفوسهم الكفاح على جميع الجبهات من أجل الانعتاق وإعتاق الوطن أجمع من العنصريّة المجرمة.

قُبيْلَ زيارته لولاية ميسيسيبي تلقّى كينغ تحذيرًا من أنّ جماعةً إرهابيّةً كانت تُعدّ خطّةً لاغتياله، ونُصح بالعزوف عن تلك الزيارة، ولكنّه لم يعزف عنها لأنّ واجبه كان يقتضيها. ولو كان كلّ تحذيرٍ يجعله ينكفئ على ذاته، لما فعل شيئًا في حياته. وعندما تتواصل التحذيرات يألف الإنسان تحدّي الموت.

واتّخذ السود خطوةً سياسيّةً جريئةً، وألّفوا لجنةً من ثمانيةٍ وستّين عضوًا من أعضاءً "حزب الحرّيّة الوطنيّ"، بالاشتراك مع "مؤتمر الحزب الديمقراطيّ"، في ميسيسيبي، حيث كان على الرئيس جونسون الإعلان عن اسم نائبه. وبرهنت تلك اللجنة عن طاقةٍ روحيّةٍ أدهشت الرئيس جونسون نفسه، فقد خالفت التقاليد السياسيّة الرائجة، وخاطبت قلبَ أميركا وروحَها. ومن خلال هذا الموقف أدرك أميركيّون كثُرٌ معنى اللاعنف وقدراته، وتيقّنوا أنّ العمل السياسيّ السليم هو الذي يضمن تثقيف أبنائهم، وتأمين السكن اللائق والعمل المجزي للجميع، والقدرة على تغيير أوضاع الولاية. وكان الأكثر حاجةً إلى فهم ذلك الدرس المحرومون بسبب لون بشرتهم.

وأدّت حماقة الجمهوريّين بترشيحهم السيناتور "غولدووتر" العنصريّ المتطرّف للرئاسة، إلى إنزال هزيمةٍ ساحقةٍ بحزبهم. وأثبتت أنّ تحالف النقابات، والذائدين عن الحقوق المدنيّة، والمفكّرين البارزين، والقادة الدينيّين، هو السبيل إلى النصر، وتأكّدت ضرورة ترسيخ وتدعيم هذا الائتلاف.

غير أنّ الكونغرس كان ما زال يضمّ أعضاءً يُعمي التطرُّف بصائرهم، ويصبغ آراءهم بالصلَف وازدراء الحقوق الإنسانيّة، وكان على النضال أن يستمرّ بلا هوادةٍ.

جائزة نوبل للسلام

في صيف عام ١٩٦٤، كان تواصل الجهد والسهر والسفر قد أنهك صحّة مارتن لوثر كينغ. فأكرهته أُسرته، وأجبره معاونوه وأصدقاؤه على الظفر بفترة نقاهةٍ، وعلى الخضوع لفحصٍ طبّيٍّ شاملٍ، وأُدخل، لهذه الغاية، إلى مشفًى في أتلانتا. وذات صباحٍ باكرٍ أيقظته زوجته وزفّت له نبأً كانت قد تلقّته للتوّ من وكالة صحافةٍ كبرى في نيويورك، يؤكّد أنّ لجنة جائزة نوبل في أوسلو قد اختارته لنيل جائزة نوبل للسلام عن عام ١٩٦٤.

كان يعلم أنّ اسمه كان مطروحًا لنيل هذه الجائزة، ولكنّ غوصه في حركة تحرير شعبه الذي كان يلتهم كلّ ثانيةٍ من وقته، ويشغل كلّ وترٍ في نفسه، كان قد أقصى عن ذهنه هذه القضيّة، وطمسها طمسًا كاملاً. وكان النعاس ما زال مسيطرًا عليه، في ذلك الصباح الباكر، فقال لزوجته إنّه سيتحقّق من الأمر. ثمّ تناول إفطاره، واستغرق ثانيةً في نومٍ عميقٍ.

وعندما استيقظ كان نبأ اختياره للجائزة قد احتلّ عناوين وسائل الإعلام، وضجّت به أتلانتا. وكان أوّل القادمين لتهنئته رئيس أساقفة أتلانتا الكاثوليكيّ الذي استأذن بمنحه البركة. ولم يعُدْ هاتف غرفته يعهد راحةً ولا هدنةً. فأعلن عقد مؤتمرٍ صحافيٍّ في المستشفى عند الساعة الحادية عشرة. وتلخّصت أجوبته على سيل الأسئلة التي انصبّت عليه، في أمريْن رئيسَيْن:

– ليست الجائزة تكريمًا لشخصه، بل هي تتويجٌ لكفاح مئات ألوف السود الذين قاسَوا أعتى الإهانات ببسالةٍ وصبرٍ، وقاوموا القوّة البهيميّة باللاعنف البطوليّ. وهي مكافأةٌ على تضحيات الذين آثروا إنهاك أقدامهم بالسير

الطويل الشاقّ على امتطاء حافلاتٍ تمارس الفصل العرقيّ، وتوسعهم إهانةً وإذلالاً. وهي اعترافٌ بفضل الذين ضحَّوا بذواتهم ذودًا عن كرامتهم، وحقوقهم الإنسانيّة، والمطالبة بمساواتهم مع سائر المواطنين.

– تأكيده بأنّه لن يُنفق سنتيمًا واحدًا من الجائزة النقديّة، البالغة أربعةً وخمسين ألف دولارٍ، على نفسه، وتعهّده بتوزيعها على المؤسّسات المشاركة في تحرير السود، أي: مؤتمر القادة المسيحيّين في الجنوب المكافح في سبيل الدمج واللاعنف – مؤتمر المساواة العرقيّة الذي يضمّ في صفوفه العديد من الأعضاء البيض – لجنة الطلاّب اللاعنيفين التنسيقيّة – الاتّحاد الوطنيّ لتقدّم الملوّنين – المؤتمر الوطنيّ للنساء السوداوات – المؤسّسة الأميركيّة من أجل اللاعنف العاملة على تعميم مبادئ اللاعنف.

أمّا رحلة الحصول على تلك الجائزة، فقد بدأت بحملة جمع مالٍ في الكنائس، من أجل تأمين نفقات سفر مارتن وزوجته، ووالدَيْه، ومساعده القسّ رالف أبيرناثي، ونفقات إقامتهم حيث يحلّون. أمّا الأصدقاء والأقرباء الكُثُر الذين رغبوا في مواكبة بطلهم إلى أوسلو، فقد أخذ كلٌّ منهم نفقاته على عاتقه.

وحرص مارتن لوثر كينغ الأب على تنظيم الرحلة بحكمةٍ وحيطةٍ، وقرّر استخدام طائرتَيْن، ساهرًا على ألاّ يستقلّ طائرةً واحدةً رجلٌ وزوجته لهما أطفالٌ صغارٌ، تحسُّبًا لأيّ حادثٍ، قد يُفقد الأطفال والدَيْهم كليهما، ويُيتّمهما يُتمًا كاملاً.

وأقلع مارتن لوثر كينغ الابن في الطائرة الأولى، ورافقه فيها معظم الرجال المشاركين في الرحلة. ولحقت بهم النساء ومارتن لوثر كينغ الأب في الطائرة الثانية.

وكانت لهم استراحةٌ أولى في لندن حيث كان صحافيّون وسياسيّون قد دعوا الحاصل على الجائزة إلى التحدّث إليهم. وكان ألمع خطاباته في لندن العظة التي

ألقاها في كنيسة القدّيس بولس الأنكليكانيّة التي، على سعتها، لم تستطع استيعاب أفواج الذين تدافعوا لسماعه.

وعندما زار الوفدُ معالمَ لندن وصروحها الرائعة، عكّر إعجابَ مارتن لوثر كينغ بروائع الفنّ العمرانيّ، تذكّره أنّ تحقيق كلّ ذلك البذخ كان ثمرة استغلال جهود شعوبٍ أفريقيّة وآسيويّةٍ، واستلاب مواردها.

وعصْرَ يوم الثامن من شهر كانون الأوّل حطّت طائرتا الوفد في مطار أوسلو، وكانت الشمس تغيب، ففي مثل هذه الفترة من السنة لا تظهر الشمس أكثر من أربع ساعاتٍ في النهار، في تلك البلاد.

وقابل الطقسَ الجليديَّ القارس لقاءٌ مستعرُ الحرارة. فإلى جانب كبار المسؤولين الذين رحّبوا بمارتن لوثر كينغ وصحبه، كان حشدٌ غفيرٌ من المواطنين، يضمّ نسبةً مرتفعةً من الشباب.

نَعِم الوفدُ بليلةٍ هادئةٍ هانئةٍ، بعيدًا عمّا كان يعكّر لياليهم، يوميًّا، في أميركا، من تعدّياتٍ وتهديداتٍ ومشاكل. ودوّى الفندق الذي أقاموا فيه بتراتيل الفرح والشكر والرجاء.

وإثر الاحتفال الرسميّ بتقليده الجائزة، وبعد أن نعم بلحظات خلوةٍ وصمتٍ، أخذ يروز ثقل مسؤوليّة تلك الجائزة، ومنذ الوهلة الأولى أدرك أنّها دعوةٌ إلى إنجاز ما لم ينجزه بعدُ.

واستخلص، أيضًا، أنّ منحه تلك الجائزة كان تعبيرًا عن تأييد الرأي العامّ العالميّ لنضال السود الأميركيّين، ودعمه، وإضفاء بُعدٍ عالميٍّ عليه، وتمهيدًا لتحالفٍ دوليٍّ في سبيل الحقّ والسلام والإخاء، ونشر الأضواء على مآسي فئاتٍ واسعةٍ من مواطنين مهمَّشين يئنّون حرمانًا وظلمًا، بسبب لون بشرتهم الداكنة، في بلادٍ تفيض

بالخيرات مثل الولايات المتّحدة الأميركيّة، وبلدانٍ مُهمَلةٍ يسودها الفقر والجوع كالهند والمكسيك والكونغو، والعديد من البلدان الأفريقيّة والآسيويّة.

ورأى في تلك الجائزة درسًا تقدّمه النروج ومثيلاتها من الدول المتحضّرة، في طريقة توزيع مواردها وثرواتها توزيعًا يضمن لكلّ مواطنٍ نصيبه العادل من العيش الكريم والصحّة، والتعليم، والعمل، على نقيض بلدانٍ كبيرةٍ، مثل الولايات المتّحدة الأميركيّة التي تفيض بثرواتٍ هائلةٍ، غير أنّ معظمها تحتكره قبضةٌ من الأثرياء المتخمين، في حين معظم السود وأعدادٌ غفيرةٌ من البيض المهمَّشين، يرزحون تحت عبء الحرمان، ويتضوّرون جوعًا.

وتيقّن، أيضًا، أنّ تلك الجائزة كانت دعمًا لأسلوب الكفاح الملتزم باللاعنف، سبيلاً إلى قهر الشراسة والبغضاء والكراهية.

ومن خلال تلك الجائزة تلقّى دعوةً متجدّدةً إلى معالجة الآفات الكبرى التي تنذر البشريّة بالنكبات والكوارث، وأخطرها الفقر والحروب. فالفقر كان آخذًا بالانتشار في كلّ مكانٍ. حتّى في بلدانٍ كبرى تفيض بالثروات مثل الولايات المتّحدة الأميركيّة، ومع ذلك، يفتقر فيها ملايين المواطنين إلى أدنى مقوّمات العيش، فضلاً عن بلدانٍ تُعَدّ متخلّفةً في آسيا وأفريقيا، حيث الفقر والجوع هما الطابع السائد.

لا بدّ إذن من مكافحة الفقر بحزمٍ وعنادٍ، وبلا هوادةٍ، في كلّ مدينةٍ وكلّ قريةٍ، وفي العالم أجمع. فما الفقر سوى إعلان إفلاس إرادة الخير، ومحاولة تحويل الأنظار عن وجوده، والسعي إلى إخفائه، نفورًا من مشاهدته، وخوفًا من التضحية في سبيل إنقاذ ضحاياه.

والآفة الأخرى التي لا معدى عن مكافحتها، مكافحةً شعواء، هي آفة الحرب التي ما انفكّت نُذُرها المريعةُ، تتصاعد من هنا وهناك، مُهدِّدةً بالفناء الشامل، وما

انفكّ تجّار الأسلحة، ومدمنو السيطرة، يُسعِّرون نيرانها، طمعًا في تكديس أموال الحرام. وبما أنّ المساعي الدبلوماسيّة قد أخفقت في قطع دابر الحروب، دعا مارتن لوثر كينغ إلى تعميم ممارسة اللاعنف، والعمل بتعاليم عظة يسوع على الجبل، فهما، وحدهما، كفيلان بخلق مناخ سلامٍ يصلح لبناء السلام العالميّ.

وتألّق حلم كينغ بيومٍ تزول فيه مظالم اللاعدل واللامساواة القائمة على العنصريّة، والكراهية، والفقر والحروب، ويسود تعايشٌ متناغمٌ بين البشر، ويتحقّق التقدّم العلميّ والأخلاقيّ. وكان قد ختم خطابه بعد استلامه الجائزة بقوله: "إنّي أتقبّل، اليومَ، هذه الجائزة، تحدوني جرأة الإيمان بالإنسانيّة. وإنّي أرفض الاعتقاد بأنّ الإنسان ليس سوى حطامٍ تعبث به أمواج نهرٍ، وبأنّه محكومٌ، مأساويًّا، بليل العنصريّة والحروب، ليلٍ خالٍ من النجوم. وأرفض الاعتقاد باستحالة انبثاق يوم سلامٍ وإخاءٍ واقعيَّيْن".

وبعد أن انتشى، ساعاتٍ، بتسنُّم قمّةٍ شاهقةٍ، طاف منها على أجنحة النجاح والمجد العالميّ، بعثت إليه وديان ألاباما وميسيسيبي بنداءات استغاثةٍ، فانحدر إليها كي يقف إلى جانب ملايين أبناء رعيّته وجلدته الذين كانوا يقاسون أدهى ضروب المعاناة إيجاعًا.

حشدٌ غفيرٌ من أعضاء حركة تحرير السود كانوا ينتظرونه في مطار أتلانتا، ومعه انطلقوا مباشرةً إلى الكنيسة التي يرعاها والده، حيث أحاط به رفاق صباه، ورفاق دراسته وجامعته، وشاركوه فرحه بحصوله على الجائزة العالميّة الكبرى. ولوحظ أنّ العديد من البيض في أتلانتا كانوا فخورين بحصول ابن مدينتهم على تلك الجائزة، في حين ما برح بيضٌ آخرون ينظرون إليه نظرة ريبةٍ، ومقتٍ، وازدراءٍ.

وكانت لعودته المظفّرة أصداءٌ مدوّيةٌ، إذ تقاطر إلى الترحيب بعودته المسؤولون الرسميّون، وتنافس على استضافته كبار المجتمع مثل أُسرة نيلسون روكفيلير.

غير أنّ سود "هارلم"، كانوا الأشدّ اعتزازًا بارتقاء أخٍ وزعيمٍ محبوبٍ لهم أرفع القمم العالميّة. وهو أكّد لهم انحداره من أعلى قمّةٍ إلى واديهم كي يواصل كفاحه من أجل إنقاذهم من نيران الظلم والبؤس والبطالة، والحرمان والإقصاء.

قضيّة تصويت السود

إثر عودته من النروج كان مارتن لوثر كينغ قد عرّج على البيت الأبيض، وطالب الرئيس جونسون بحمل الكونغرس على إصدار قرارٍ يتيح لجميع السود المشاركة في التصويت بالانتخابات العامّة انتخابًا وترشّحًا. ووافقه الرئيس، مبدئيًّا، على ضرورة هذا القرار، ولكنّه أوضح له أنّ لديه قراراتٍ أُخرى يرغب في إصدارها، ويخشى تعذّر إصدارها إذا هو أولى الأفضليّة لتصويت السود، لأنّ إصداره هذا القرار سيفقده أصوات الجنوب الأميركيّ العنصريّ المتطرّف. ومع ذلك، أصرّ كينغ على أنّ لقرار تصويت السود الأولويّة على كلّ قرارٍ آخر، وإن كان الرئيس يفضّل إرجاء طرحه، فهو سيسعى إلى انتزاعه.

وبفضل موقف مارتن لوثر كينغ هذا، ظهر على شاشات التيليفزيون الرئيس جونسون نفسه، الذي كان قد شكا عدم قدرته على تمرير القرار في الكونغرس معلنًا: "سنتخطّى العقبات"، ومناشدًا الكونغرس تبنّي مشروع منح جميع السود حقّ التصويت. وفي الواقع صدر هذا القرار بعد شهرين.

وكانت مدينة "سيلما" (Selma) الجنوبيّة بولاية ألاباما، هي الرائدة في هذا المضمار. فقد قام السود فيها بتظاهراتٍ حاشدةٍ وحازمةٍ، مطالبين بحقّهم في التصويت. وعلى غرارهم تظاهر سود مدينة "فيلادلفيا" بولاية ميسيسيبي. غير أنّ السلطات المحلّيّة في المدينتَيْن واجهت المتظاهرين بالبنادق والحراب والهراوات، مواصلةً نهج العبوديّة الذي ساد لثلاثة قرونٍ خلت، مخترقةً بنود الدستور، وجاهدةً في ترسيخ خوف السود من أسيادهم البيض.

ولم تُغفِل السلطات المحلّيّة الغاشمة أيّة حيلةٍ ماكرةٍ لجعل تسجيل السود على لوائح التصويت متعذّرًا، فكانت تطرد من المدينة كلّ متظاهرٍ مطالبٍ بهذا الحقّ، وتشطب اسمه من سجلّ مواطنيها، وتُفرغ مكاتب التسجيل من موظّفيها، وتحدّد ساعات التسجيل إلى أضيق حدٍّ، بحيث لم يتسنّ التسجيل، في مدينة "سيلما" إلاّ لثلاث مئةٍ وخمسين فردًا من أصل خمسة عشر ألفًا كان يحقّ لهم التصويت.

هذه المحاولات الخبيثة دفعت بالقسّ الأسود "جيمس بيڤيل" (J. Bevel)، إلى شنّ حملةٍ حازمةٍ بقصد تسجيل أكبر قدرٍ من أصوات السود، واستعان بالقسّ كينغ ورفاقه الذين كانوا قد اكتسبوا خبرةً في هذا المضمار، وقرّروا تنظيم مواكب غفيرةٍ إلى مراكز التسجيل. وبما أنّ السلطات كانت قد حظرت التجمّعات، فبحجّة هذه المواكب الكثيفة، سجنت ثلاثة آلاف متظاهرٍ دفعةً واحدةً. وسُجِن مارتن لوثر كينغ بالتهمة عينها.

وهالَ ملكَ النورويج أن يُسجَن من منحه جائزة نوبل للسلام، في وطنه، بحجّة مخالفة قوانين الفصل العرقيّ التي يدينها العالم، وتدينها الحضارة وتبيّن أنّ قرار الحقوق المدنيّة الذي كان قد صدر في الولايات المتّحدة، عام ١٩٦٤، وأوهم سودًا كُثُرًا بأنّ كفاحهم قد آتى ثماره، لم يكن سوى وهمٍ وخدعةٍ. وما زال مفوّضو الشرطة في مدن الجنوب يدعون كلّ أسود بـــ: "يا أنتَ" أو "يا أنتِ"، مستكثرين عليهم لفظة "سيّد" أو "سيّدة"، وعندما يتكلّمون عنهم يشيرون إليهم بـــ "هذا" أو "هذه"، وكأنّهم أشياء لا حياة لها ولا قيمة.

وكان كينغ ورهطٌ من رفاقه قد سُجِنوا لأنّهم رفضوا هذه المعاملة اللاإنسانيّة، ولأنّهم طالبوا بأن ينعم السود بكامل حقوقهم، وبحقّ التصويت، ولأنّ العنصريّين كانوا يأبون منحهم هذا الحقّ، الذي قد يجعل متعذّرًا وجود مفوّضي شرطةٍ يدوسون القوانين بأقدامهم، وينكّلون بالسود كما يحلو لهم، بلا خوفٍ من عقابٍ.

ويوم أُطلِق سراحه من السجن، في ١٩٦٥/٢/٥، طار مارتن كينغ برفقة معاونيه إلى واشنطن، وقابلوا نائب الرئيس "همفري" (Humphrey) ووزير العدل، وشرحوا لهما، بإسهابٍ، ما يعترض تسجيل السود على لوائح الانتخابات، في مدن الجنوب، من مقاومةٍ ومماطلةٍ، وإذلالٍ، وتنكيلٍ، تؤدّي إلى عزوفهم عن التسجيل. وبيّنوا لهما أنّ عدد الذين سُجِنوا، في مدينة "سيلما" بسبب مطالبتهم بتسجيل أسمائهم على قوائم الانتخابات، فاق بكثيرٍ عدد الذين أُتيح لهم هذا التسجيل، نتيجة مخطّطٍ شيطانيٍّ يُبقي العنصريّين المجرمين في أماكنهم، ويُبقي الوضع الاجتماعيّ الشاذّ، حيًّا، فاعلاً.

وطالب كينغ نائب الرئيس ووزير العدل بوقف الملاحقات القانونيّة بحقّ أكثر من ثلاثة آلاف مواطنٍ أسود في مدينة "سيلما"، وباتّخاذ التدابير الكفيلة بسدّ الفجوات في القوانين التي تتذرّع بها المحاكم المحلّيّة كي تمنع السود من التنعّم بحقوقهم. ثمّ نقل كينغ هذه المطالب عينها إلى الرئيس جونسون، وألحف في التأكيد على واجب إصدار قرارٍ صريحٍ يمنع استخدام أيّة وسيلةٍ أو ذريعةٍ، بهدف حرمان المواطن الأسود من حقوقه الدستوريّة.

تواصُلُ كينغ مع الرئاسة أزعج العنصريّين البيض، فروّجوا شائعةً تدّعي أنّه أجرى اتّفاقًا سرّيًّا بين حكومة ألاباما والسلطات الفيديراليّة تقضي بإلغاء مسيرة "سيلما"، التي كان مخطّطًا لها أن تجري يوم التاسع من آذار، بغيةَ تلطيف وطأة استنكار سلطاتٍ دينيّةٍ بيضاء وسوداء لمسيراتٍ لا تتوقّف، وتخلق الفوضى. ونجمت عن تلك الشائعة، وما سبّبته من سوء تفاهمٍ، صداماتٌ مؤسفةٌ.

وفي الواقع كان للمسيرات التي يدعو إليها كينغ هدفٌ واضحٌ:
– تغشى الشوارعَ مظاهراتٌ سلميّةٌ، مطالبةٌ بممارسة السود حقوقهم الدستوريّة

فيقاومها العنصريّون بعنفٍ، وحينئذٍ، يطالب أميركيّون حسنو النوايا السلطات الفيديراليّة بالتدخّل، وبإصدار قوانين تمكّن السود من حقوقهم.

غير أنّ هذا المخطّط شرع يفشل في إصابة هدفه، عندما دأبت السلطات المحلّيّة على مجابهة التظاهرات السلميّة بالشراسة والإرهاب، وعندما نزعت السلطات الفيديراليّة إلى مطالبة المتظاهرين السلميّين بإيقاف تظاهراتهم، والعزوف عن مطالبهم، عوضًا عن إدانة المعتدين عليهم ومعاقبتهم.

واتّفق أنّ مظاهرةً في مونتغومري كان قد خُطِّط لانطلاقها يوم أحدٍ، وكان القسّ كينغ قد غاب طويلاً عن كنيسته ورعيّته في أتلانتا، فقدم صباحًا باكرًا إلى مونتغومري، وأعطى توجيهاته، وتناقش بضع ساعاتٍ مع معاونيه في تلك المدينة، على أن يعود إلى أتلانتا كي يحتفل بالقدّاس في رعيّته مساءً.

كان مارتن لوثر كينغ ممزَّقًا بين قرارَيْن: معالجة وضعٍ متفجّرٍ يتعلّق بحقوق السود الأساسيّة، وعدم التمرّد على أوامر فيديراليّةٍ. وكان قد بُلِّغ أنّ الحاكم المحلّيّ قد نشر قوى ردعه بكثافةٍ، وجهّزها بالوفير من أجهزة الفتك. ولكن لم تغب عن ذهن كينغ حشودُ السود المستميتة في المطالبة بحقوقها، وأفواج رجال الدين الذين تطوّعوا للشهادة لحقوق السود، وقدِموا كي يشتركوا في مسيرة مونتغومري. وحينئذٍ، حزم أمره على تنفيذ مخطّطه، وعلى مجابهة الظلم والتأكيد لمواطنيه، وللعالم أجمع تصميم السود على حقّهم في الاقتراع، وعلى نيل حرّيّتهم، واستعادة كرامتهم.

وفيما كان هو ومعاونوه يتأهّبون لتلك المجابهة، جاءهم ممثّلٌ فيديراليٌّ عن الحقوق المدنيّة، ونائبٌ لوزير العدل، وحاولا إقناعهم بالعدول عن المسيرة، وأبلغاهم أنّ صدامًا داميًا كفيلٌ بتشويه صورة أميركا. ولكنّ مارتن لوثر كينغ

أجاب ناصحيه: "أظنّ أنّه كان الأجدر بكم، عوضًا عن نصحنا بالعزوف عن التظاهر، أن تنصحوا قوى الدولة بالإحجام عن مواجهة المتظاهرين بشراسةٍ، لأنّ الواجب يفرض علينا التظاهر. وأكّد لهما ابتغاءه أن يشهد العالم أجمع الصدام بين القوّة الغاشمة والمظلومين المسالمين المطالبين بحقوقهم من أجل دعم حركة اللاعنف، وترسيخ فلسفته، وحماية الديمقراطيّة.

ولّما أدرك الممثّلان الرسميّان تصميم كينغ وأعوانه على التظاهر، غادرا واعدين بفعل كلّ وسعهما، لمنع السلطات المحلّيّة من استخدام العنف.

وحينئذٍ، وجّه مارتن لوثر كينغ إلى مناضليه النداء التالي:

«أؤكّد لكم أنّني كنتُ أوثر الموت فوق طرقات ألاباما، على اغتيال ضميري. وإنّي أرجوكم، أثناء مسيرتنا، ألاّ تستسلموا للجزَع، وأن تتذكّروا واجب وفائنا لمبدأ اللاعنف. وأرجو من كلّ عنصرٍ مشاركٍ في هذه المسيرة، إذا تعذّر عليه الالتزام باللاعنف أن يغادر صفوفنا. وكلّ من يعجز عن تلقّي الضربات مع الإحجام عن الردّ عليها بمثلها، فليناَ عن صفوفنا. ومن تلقّى الضربات، والتزم باللاعنف يكون قد قام بفعلةٍ رائعةٍ لوطنه ولخلاصه، وأدّى صنيعًا سيغيّر الأوضاع في ألاباما، ويجعل قوى الدولة تتضرّج بدماء وحشيّتها».

ومع أنّ المحيطين بمارتن لوثر كينغ طالما كانوا شديدي الحرص على حمايته من الاغتيال، ويَنهَونه عن المشاركة السافرة في تظاهراتٍ يعرّض فيها ذاته للاعتداء، غير أنّ رسالته الراعويّة كانت تفرض عليه، أحيانًا، ركوب المخاطر.

قاد، إذن، القسّ كينغ المسيرة إلى أن اصطدم موكب المظاهرة بجدارٍ بشريٍّ من جنودٍ مدجّجين بالسلاح، وأبلغوهم أنّ لديهم أوامر بإطلاق النار على كلّ من

يحاول اختراق هذا الحاجز، فتفرّقوا، وتقهقروا، بعد أن أكّدت السلطات عزمها على سفك الدماء، وأثبتت للعالم أجمع مقاومتها التظاهر السلميّ بالعنف البهيميّ.

وفي هذه الأثناء كان داء العنف الخبيث المنظَّم قد قضى على حياة قسٍّ أسود، وكانت الشرطة المؤتمرة بالعنصريّين قد أوسعت ضرباً ثلاثة قسّيسين آخرين، قدموا من مُدُنٍ جنوبيّةٍ أخرى، تضامنًا مع إخوتهم في "سيلما" المطالبين بحقّهم في الانتخابات العامّة.

كان الرئيس الأميركيّ قد أصدر، في مطلع شهر آذار ١٩٦٥، قرارًا معلنًا حقّ السود في الانتخاب والترشُّح. وتعيّن على السود تنفيذ هذا القرار، مُطيحين بجميع العراقيل التي يضعها العنصريّون للحؤول دون ممارستهم هذا الحقّ، وغير حافلين بوحشيّة رجال الشرطة.

نظّم سود سيلما، إذن، مسيرةً سلميّةً حاشدةً إلى مدينة مونتغومري، بهدف حثّ مواطنيها السود على استخدام حقّهم الانتخابيّ.

المسافة بين "سيلما" و"مونتغومري" تبلغ مئةً وعشرة كيلومتراتٍ، واتّخذ القادة السود التدابير الكفيلة بجعل المسيرة ممكنةً، على مشاقّها. فحدّدوا أماكن استراحةٍ، ونصبوا خيامًا، وحرصوا على أن تندرج المسيرة في انتظامٍ تامٍّ، وعلى مرورها بموازاة الطريق العامّ، فتؤثّر على الأذهان بانتظامها وكثافتها، ولا تعرقل سير الآخرين.

وبما أنّ تلك المسيرة أصبحت رمزًا للحرّيّة، فقد انبرى معظم الأميركيّين للإسهام بتلك الملحمة، ولإسباغ دفعٍ جبّارٍ عليها، حتّى بدت لكثيرين وكأنّها محاكاةٌ لمسيرة الملح التي نظّمها غاندي في الهند.

انطلق مارتن لوثر كينغ ورفاقه، يوم ٢١ آذار، من مدينة "سيلما"، واجتازوا وديانًا مقفرةً، وصعّدوا تصعيدًا مرهقًا عبر تلالٍ، وانتهجوا منعطفاتٍ كثيرةً، وحين نال منهم التعب أراحوا أجسادهم على الحصباء. أحرقت أشعّة الشمس الحادّة وجوه بعضٍ منهم، واضطرّ بعضهم إلى النوم في الوحل، وبلّلتهم الأمطار، وتقرّحت أقدام كثيرين.

وبالإجمال، غسل أولئك الحجّاج الأبطال بعرقهم، ودموعهم، ودمائهم أقذار المجازر التي ارتكبتها لمئة عامٍ مضت، أيدي الطغاة. وكانت دموعهم دموع فرحٍ ومحبّةٍ، قدّموها من أجل خلاص حتّى الذين كانوا يسخرون ويشمتون بهم، من العنصريّين الذين كانوا يراقبون مسيرتهم بحنقٍ وازدراءٍ.

وعلى امتداد تلك المسيرة البطوليّة الشاقّة، لم يُسمَع طلق نارٍ واحدٌ، ولم يُلقَ حجرٌ، ولم يُكسَر زجاج نافذةٍ، ولم يُهَن إنسانٌ. وكان دخول المسيرة المظفّر إلى مدينةٍ عُدَّت "مهد الاتّحاد"، تمهيدًا لإنهاء استبداد الأقلّيّة المحلّيّة العنصريّة.

يوم ٢٥ آذار دخلت المسيرة مدينة "مونتغومري"، يحدوها تفاؤلٌ غامرٌ. وكان جوّ المدينة يفوح بعبير النصر الذي أعلنته السلطات الفيديراليّة، بتأكيدها حقوق السود في التصويت والترشّح. وبلغ عدد المشاركين في تلك المسيرة خمسين ألف مناضلٍ من مختلف الولايات المتّحدة. وباسمهم جميعًا أعلن مارتن لوثر كينغ:

«إنّي واثقٌ أنّ الفرز العرقيّ يحتضر في ألاباما. والأمر الذي ما زال مُبْهمًا هو الثمن الذي سيقتضيه العنصريّون، من أجل دفنه... لن نعود القهقرى. نحن على الطريق، ولن تقوى أيّة موجةٍ عنصريّةٍ على وقف تقدّمنا...

"لن نتقهقر حتّى إذا أُحرِقت كنائسنا. ولن تنثني عزيمتنا على النضال حتّى إذا دمّرت القنابل مساكننا. وسنواصل مسيرتنا حتّى إذا ضُرب رعاتُنا وشبّاننا. ولن نتنازل عن حقوقنا حتّى إذا بُرِّئ قَتَلَتُنا المجرمون.

"وستستمرّ مسيرتنا المنتصرة، حتّى تحقيقنا الحلم الأميركيّ. فلنسرْ ضدّ الفصل العرقيّ في السكن حتّى زوال المحاجر المُخجِلة التي كان السودُ يُكرَهون على الانحشار فيها، من أجل إبقائهم راسفين في أغلال الانهيار الاقتصاديّ والاجتماعيّ، وإلى أن نعيش، جنبًا إلى جنبٍ، مع إخوتنا البيض في أبنيةٍ لائقةٍ، آمنةٍ، وصحّيةٍ.

"ولنواصل مسيرتنا ضدّ الفصل العنصريّ في المدارس، حتّى زوال كلّ طيف تعليمٍ منفصلٍ متدنّي المستوى، وإلى أن تضمّ صالة الدرس بيضًا وسودًا معًا، مسهمةً في شفاء كلّ الأمراض الاجتماعيّة.

"ولنتابع مسيرتنا ضدّ الفقر إلى أن لا يُضطرّ أيّ أبٍ أميركيٍّ إلى حرمان نفسه من وجبة طعامٍ، ولكي لا يجوع أحدٌ من أبنائه، ولكي لا يُضطرّ أيّ جائعٍ إلى استجداء عملٍ يساعده على إسكات عواء معدته.

ولنسِرْ ضدّ مراكز الانتخابات إلى أن ينأى العنصريّون الديماغوجيّون عن الساحة السياسيّة، ويفرّ عنها أمثال الحاكم "ولاس"، مرتعدين، ويلزموا الهدوء؛ وإلى أن نوصل إلى عضويّة مجالسنا البلديّة، ومجالس ولاياتنا التشريعيّة، وإلى كونغرس الولايات المتّحدة، مُنتخَبين لا يخشون إجراء العدالة، ويهوَون أعمال المحبّة، ويسيرون بتواضعٍ تحت أنظار الله، وإلى أن يستطيع أبناء الله، في كلّ أرجاء ولاية ألاباما، دَوْسَ أرض الوطن بكرامةٍ وشرفٍ.

"إنّ مصير كفاحنا هو، اليوم، بين أيدينا، وطريقنا ليست سهلةً، ولا هي معبّدةٌ ومُعَدّةٌ لوصولنا إلى حلولٍ سريعةٍ. ومع ذلك، فلنواصل مسيرتنا.

"ما زالت تنتظرنا زنزانات السجون، وأوقاتٌ عصيبةٌ قاتمةٌ، ومع ذلك، سنتابع مسيرتنا، مدعومين بقوّة اللاعنف على تحويل لياليا القاتمة إلى صباحاتٍ مشرقةٍ، وبقدرتنا على تحويل كلّ شيءٍ.

"ولا نقصدنّ، أبدًا، إلحاق هزيمةٍ أو إهانةٍ بإخوتنا البيض، بل فلنستهدف كسب صداقتهم وثقتهم، ولتكن غايتنا تأسيس مجتمع يسود السلامُ أعضاءه وضميرَه. وعندئذٍ، لن يكون انتصار البيض، ولا انتصار السود، بل انتصار الإنسان بصفته إنسانًا.

"قد تسألونني متى سيتحقّق ذلك، وأنا أقول لكم، مع صعوبة الأوقات الراهنة، وتفاقم أسباب الخيبة، لن يطول أوان الفرج، لأنّ الحقيقة، وإن هُزِمت، لن تتلكّأ في الانبعاث مجدّدًا. وما من كذبةٍ تدوم طويلاً، وذراع عالم الأخلاق الطويلة ممدودةٌ نحو العدالة.

لن يطول مجيء الفرج، لأنّ مَن يزرع يحصد. وقد رأيت مجد الربّ قادمًا كي يدوس الكرم التي تنضج فيها عناقيد الغضب، ولأنّ أبواقه التي لم تدعُ، قطّ، إلى التراجع قد صدحت. والربّ يرفع قلوبَ البشر إلى عرش عدله. فيا نفسي سارعي إلى تلبية ندائه، واستعجلا بالسير يا قدميّ».

لقد أسفرت تلك المسيرة عن روحٍ مسكونيٍّ رائعٍ وفريدٍ، وعن تضامن النقابات ومنظّمات حقوق الإنسان، ولكأنّها تكاتفت جميعها على تأكيد عدالة قضيّة السود ودعمها.

ولكم راق لمارتن لوثر كينغ أن يشهد، في المطارات المزدحمة، راهباتٍ وكهنةً يتحدّثون، بفرحٍ، مع قسّيسين، وخادمات منازل، وموظّفي متاجر. ولكم أسعدته صورة مجتمعٍ أخويٍّ منسجمٍ!

وأبرز الرئيس جونسون النتائج السياسيّة التي آتتها هذه المسيرة، وأشاد بجرأة السود التي أيقظت ضمير الأُمّة. وأكّد أنّ النصر الذي تحقّق بإعلان حقّ كلّ إنسانٍ أسود بممارسة كامل حقوقه لا يقلّ شأنًا عن أيّ انتصارٍ تحقّق في ساحات الوغى، وختم إعلانه بالقول: "اليوم حطّمنا آخر السلاسل الثقيلة، التي كانت تقيّد فئةً من مواطنينا، تقييدًا وحشيًّا".

ثورةٌ في الشمال

بعد أن أحرزت ثورة السود في الجنوب الأميركيّ، مبدئيًّا، انتصاراتٍ رائعةً، نشبت، في الشمال، صراعاتٌ أظهرت أنّ الفصل العرقيّ ليس، هو، عدوّ السود الوحيد.

فبين ١١ و١٥ آب ١٩٦٥، نشبت صراعاتٌ داميةٌ في مدينة لوس أنجيليس، واستدعت جماعاتٌ محلّيّةٌ مارتن لوثر كينغ إلى الحضور والسعي إلى إعادة السلام. غير أنّ كثيرين حذّروه من خطر الانزلاق إلى ساحةٍ ما برحت مضرّجةً بالدماء، وما زال بركان الغضب فيها ثائرًا. ومع ذلك، لم يستطع القسّ كينغ منع ذاته عن الإسراع إلى حيّ "واتّس" (Watts)، وهو حيّ الأعمال في لوس أنجيليس، الذي كان مسرح الصراع الدامي.

وبعد أيّامٍ من تحرّي الأحداث، وتقرّي الأمور، تبيّن أنّ ما حدث كان تعبيرًا عن انتفاضة فئةٍ عريضةٍ مُهمَلةٍ إهمالاً كلّيًّا، وعن فرز المجتمع إلى فئة الأثرياء المتخمين، وفئة المفتقرين إلى مقوّمات الحياة الأساسيّة. وسعّرت حدّة هذا الفرز فظاظةُ رجال الأمن الذين أشعروا جميع الذين قدموا من الجنوب ناشدين الكرامة، أنّهم غير مرحّبٍ بهم، وأشعروا السود المحشورين في محاجر (Ghettoes) بائسةٍ، أن لا حقّ لهم بهجرها إلى مساكن أكثر لياقةً بإنسانيّتهم، وأنّ مسؤولي المدينة لا يعترفون لهم بحقٍّ ولا بكرامةٍ. وكان كلّ لقاء شرطيٍّ بإنسانٍ داكن البشرة، في هذا المناخ المتأجّج، حافلاً بالاحتمالات الوبيلة. وكان كلّ سوء فهمٍ بين صاحب متجرٍ وزبونٍ محرّك أعمال شغبٍ سرعان ما تتحوّل كرة ثلجٍ، تجرف، في طريقها، إلى كوارث مريعةٍ حتّى من لا شأن لهم بأيّ خلافٍ.

كانت هناك، لا مراء، عصابةُ مجرمين مدمنين عل الشغَب والعنف، وعاجزين عن ضبط ردود فعلهم، ومصمّين آذانهم عن نداءات العقل والنظام. ولكنّهم لم يكونوا سوى أقلّيّةٍ، فيما كان معظم المشاركين في الشغب من المسحوقين المهمّشين، المنفلتين من قيد كلّ نظامٍ، والذين كانوا يعبّرون، بشغبهم، عن مرارة عيش الإملاق وسط ثراءٍ فاحشٍ متعجرفٍ، يقيم بجانبهم. ولم تكن أعمال السلب التي يقترفونها سوى اعتراضٍ على المظالم الحالّة بهم، وتنفيسٍ عن كربتهم، ولفتًا إلى وضعهم اللاإنسانيّ.

مطالبهم الأساسيّة كانت العمل، والكرامة. وكانت جماعة السود هي الأوجع تأثّرًا بهذه المظالم. وكان الغنى الوقح المحيط بهم يُبْرِز عمق الظلم الذي يقاسونه.

في ولايتَيْ ألاباما والميسيسيبي لم تكن الفوارق الاجتماعيّة والاقتصاديّة صارخةً مثلما كانت في لوس أنجيليس. بل كان البيض والسود يكادون يتساوون فقرًا. أمّا مدينة لوس أنجيليس فكانت معرضًا للبذخ الوقح، وكانت شاشات التيليفزيون تُغير صدور الفقراء بإسهابها في إبهار العيون بمظاهر بَطَر المشهورين الخرافيّ، في كلّ ميادين الحياة، سكنًا، ولباسًا، ومأكلاً، ومشربًا، ووسائل نقلٍ، مظاهر تفوق الحلم والخيال، وتُعمّق مرارة فقراء المدينة المحرومين من الأساسيّ.

ولئن كان في أحداث لوس أنجيليس عاملٌ إيجابيٌّ فهو شعور الذين دمّروا ممتلكات أثرياء أنّهم إنّما دمّروا سجنًا زُجّوا فيه ظلمًا، بلا ذنبٍ اقترفوه، وأفهموا الذين لم يُقيموا لوجودهم وزنًا، وازدروهم، أنّهم موجودون وأقوياء.

كانوا يعون أنّ الشغَبَ والنهب والتدمير ليست الوسيلة المُثلى، ولكنّها كانت الوسيلة الوحيدة المتوفّرة لهم كي يجعلوا ظالميهم يعترفون بوجودهم وبحقوقهم وبقدرتهم على صوْغ مصيرهم بأيديهم.

وتجلّى وجهٌ إيجابيٌّ آخر في موقف السود الذين، مع عمق مرارتهم وخيبتهم، لم يترعوا إلى العنف والقتل، مع أنّ الشرطة قتلت منهم العشرات.

وكان بعضهم غير راضين، مبدئيًّا، عن أسلوب اللاعنف، غير أنّهم عندما ذُكِرت على مسامعهم أسماء شهداء آثروا الموت على المقاومة العنيفة باتوا أقرب إلى إعادة النظر في مبادئهم.

غير أنّ عنجهيّة البيض في لوس أنجيليس، وتصلّبهم العنصريّ، حالا دون اعتناق جميع سود المدينة مبدأ اللاعنف.

حملة شيكاغو

ارتأى مارتن لوثر كينغ أنّ حلّ مشاكل شيكاغو، ثاني كبرى المدن الأميركيّة كفيلٌ بحلّ المشاكل في كلّ مكانٍ. وبناءً على طلب سود تلك المدينة أقام فيها منذ ١٩٦٥/٧/٢٤.

فبعد أن قاومت انتفاضة السود الفصل العرقيّ في وسائل النقل المشترك في بيرمينغهام وألاباما، وبعد أن نُسِفت الحواجز في وجه تسجيل السود على لوائح الانتخابات العامّة في "سيلما"، أكبّ مؤتمر قادة المسيحيّين السود على معالجة قضايا السود في شيكاغو، وأشرك في هذه الحملة قوًى كثيفةً ومتعدّدةً، دينيّةً، ومدنيّةً، وسياسيّةً، وجامعيّةً.

وسرعان ما اتّضح أنّ تنظيم حملةٍ ذات أهدافٍ واضحةٍ، يكاد يكون متعذّرًا، فمساحة المدينة شاسعةٌ، وقضاياها متشعّبةٌ، وفي كلّ لحظةٍ، وفي كلّ حيٍّ، تستجدّ مشكلةٌ غير مألوفةٍ. فمشاكل الفقر والقنوط تلبس ألف وجهٍ ووجهٍ، ومظاهر البؤس تتنافس قباحةً، وأنّات اليائسين تبعث كلّ لحنٍ حزينٍ. والفظائع تتلاحق تترى، فهنا طفلٌ التهمته الجرذان، وهناك رجلٌ راح يبحث عن عملٍ، فانقضّت عليه عصابةٌ عنصريّةٌ، وألقت جثّته في الطريق.

والأنكى أنّ مدينة شيكاغو كانت تفخر بدخلٍ فرديٍّ لا يتدنّى عن دخل أغنى المدن الأميركيّة، وأنّ البذخ الوقح كان يجاور، بلا خجلٍ، الحرمان الأقصى.

وكانت معظم أوصاب السود ناجمةً عن سكنهم الزريّ، وعن بطالتهم، أو عن الأجور المتدنّية التي ينالونها عن أعمالهم المرهقة. وكان أطفالهم، منذ الصباح يفرّون

إلى الشوارع كي يستشمّوا نسمة هواءٍ طبيعيٍّ يريحهم من تلوّث هواء بيوتهم الضنكة، ويقضون معظم نهاراتهم في الشوارع لأنّ آباءهم وأمّهاتهم يبحثون عن عملٍ، أو يعملون نهارًا وليلاً، وأحيانًا أعمالاً مختلفةً في أماكن مختلفةٍ كي يوفّروا الحدّ الأدنى من مقوّمات العيش لهم ولأبنائهم. وكانوا، غالبًا، يقطعون مسافاتٍ شاسعةً، سيرًا على الأقدام، إلى أماكن عملهم، ويعودون إلى مساكنهم منهَكين، عاجزين عن منح أبنائهم كلمة محبّةٍ، ولا يتسنّى لهم وقتٌ لتربيتهم.

لا ريب أنّ أمثال تلك "الغيتّوات" البائسة كانت منتشرةً في معظم المدن الأميركيّة، ولكنّها، في شيكاغو، كانت الأبلغ دلالةً على القباحة واللاإنسانيّة، وعلى حدّة العنصريّة وعلى استغلال العنصريّين.

لم يكن عسيرًا تبيّن الإهمال الصحّيّ الذي يفتك بالأطفال السود، فالرمد يحيط بعيونهم، وآنافهم دائمة السيلان، والقذارة تغشى أجسادهم وثيابهم، ومع ذلك، تشعّ عيونهم بشرارات ذكاءٍ.

ولم يخفَ على المثقّفين البيض أنّ استمرار هذا الوضع يعني إعداد قنبلةٍ للانفجار. ومع ذلك، لم يتحرّك أحدٌ منهم، تقاعسًا، أو بُغْضًا، أو أملاً دفينًا بأنّ يُفضي الفقر والجهل والإهمال إلى إفناء السود تدريجيًّا.

وتبيّن لمارتن لوثر كينغ أنّ واجبه الأوّل هو إيقاظ ضمير الأمّة على فضيحة "الغيتّوات"، والسعي إلى مساواة السود والبيض بالإقامة في مساكن صحّيّةٍ لائقةٍ، وإيجاد العمل المجدي لهم، وتحريرهم من المذلّة والجهل والأمراض، كي يتفرّغوا لتربية أبنائهم والاهتمام بتعليمهم، وبالإجمال فتح أبواب الحياة الكريمة لهم.

وهذا ما عبّر عنه في خطاب له بمدينة شيكاغو، قال فيه:

«لقد حان أوان إغلاق المساكن الزريّة، وحان أوان الصراع بين القوى الساعية إلى التغيير، والقوى الرافضة له. حان أوان انسياب نهر الاستقامة، وتدفُّق سيل العدالة الذي لا ينضب.

"لقد جئنا كي نؤكّد أنّنا لن نبقى، بعد اليوم، غير مبالين بالفقر الذي يدمّرنا. ولن ننتظر أن يجود علينا الآخرون بالحرّية، فمن الخطأ الفادح الظنّ بأنّ الحكومة الفيديراليّة ستقدّم لنا وجبة الحرّيّة النفيسة والشهيّة بطبقٍ من فضّةٍ، أو أن يجود بها علينا العنصريّ الأبيض، فالظالم القامع لن يجود بها يومًا، من تلقاء نفسه، وبطيبة خاطرٍ، بل على المقموع أن يطالب ويظفر بها.

"لقد نشبت اضطراباتٌ في شيكاغو طوال شهر تمّوز ١٩٦٦، لأنّ النخبة البيضاء انصرفت عن واجب معالجة قضيّة السكن غير الصحّي الذي يعانيه السود، وعن عواقبه الوبيلة على المجتمع، وأهمّها توتّراتٌ تنذر بالانفجار، مُغفلين أنّ السلام والاستقرار لا يتحقّقان إلاّ بإطفاء مواقد التوتّر، وأنّ الانتفاضات تنشأ عندما تشعر فئةٌ من المواطنين أن لا مكان لها في المجتمع، ولا حقوق لها، فلا تخشى تدمير كلّ شيءٍ، لأنّ ليس لها شيءٌ تخاف عليه، ولا تخشى العنف لأنّه الوسيلة الوحيدة التي تمكّنها من إظهار قوّتها».

هذا الوضع كان كفيلاً بإحباط مارتن لوثر كينغ، لو لم يكن قد درّب ألفَيْ شابٍّ أسود على ممارسة اللاعنف، وقد تمرّسوا به بحيث أمسوا مستعدّين لتقبّل أوجع الضربات، والإحجام عن الردّ عليها بالمثل. وقد كلّف أرتالاً من هؤلاء المطالبةَ بحقّهم في الإقامة في المساكن التي موّلت الدولة بناءها. ولكنّ السلطات المحلّيّة كانت تحظر على السود السكن إلى جانب البيض. ولم يكن بوسع السلطات تجاهل تلك التظاهرات المنظّمة، السلاميّة، والمحقّة، غير أنّ عصاباتِ بيضٍ مجرمين قاومت بشراسةٍ تلك التظاهرات، فتدخّلت قوى الحرَس الوطنيّ. وناشد مارتن

لوثر كينغ الحرَس قائلاً: "هلاّ شاركتم تظاهرتنا، الليلة، فلن يجرؤ أحدٌ على مقاومة حركتنا. وأنا من جهتي سأستمرّ ملتزمًا باللاعنف الذي طالما تسلّحتُ به، وشهدتُ إلى أين قادنا. ولن نتخلّى عنه".

وتنطّحت قوى الشرّ لإفشال تلك الحركة، فأطلقت اتّهاماتٍ كاذبةً، وتخرُّصاتٍ سخيفةً. مستخدمةً صحافةً مأجورةً، لم تتحرّج من ادّعاء تورّط الجيش، ما اضطرّ وزير العدل إلى إعلان تكذيب تلك الأقاويل المغرضة والزائفة. وحينئذٍ، حاولت الصحافة المأجورة إلقاء الاتّهامات الباطلة بحقّ "حركة شيكاغو من أجل الحرّيّة"، المتحالفة مع مارتن لوثر كينغ، والملتزمة ببنود اللاعنف، والتي لم تهدر وقتها وطاقاتها في الردّ على التخرّصات، بل واصلت حملة مطالباتها المحقّة، بأسلوبٍ مترّهٍ من كلّ شائبةٍ، يستهدف، في المقام الأوّل، جعل مدينة شيكاغو، مدينة عدلٍ وانفتاحٍ وتسامحٍ.

انطلقت، إذن، في شوارع شيكاغو، صيف عام ١٩٦٦، تظاهراتٌ جمعت بيضًا وسودًا معًا، جنبًا إلى جنبٍ مطالبةً بالتساوي العادل في حقّ السكن اللائق. وتصدّت لها عصاباتٌ عنصريّةٌ، تمادت بالعنف، وبإلقاء الحجارة والزجاجات الملأى على المتظاهرين، وأوسعتهم ضربًا وركلاً، وأحرقت سيّاراتهم، وأمطرتهم شتائم مقذعةً، وغالبًا، ما لوّحت لهم بأعلامٍ نازيّةٍ.

وانصبّت أبشع الشتائم وأقذرها على الكهنة الكاثوليكيّين والراهبات الذين شاركوا السود حملتهم. وأقرّ مارتن لوثر كينغ أنّه من كلّ ما شهده من أعمال عنفٍ في الجنوب، لم يشهد مثلما شاهده في شيكاغو من حقدٍ وكراهيةٍ.

وحذّر مارتن كينغ المسؤولين من الرضوخ لضغوط العنصريّين وإصدار قراراتٍ تمنع التظاهرات المطالبة بالمساواة بحقّ السكن في الأبنية المموّلة من الدولة، وتعريض

المتظاهرين للسجن، مؤكّدًا أنّ السجن لهم هو عنوان فخرٍ، لا محطّ عارٍ، وأنّه، هو، يفخر بارتياده زنزانات ألاباما وفلوريدا، وجورجيا، وميسيسيبي، وڤرجينيا، ولا يخاف التعرّف على زنزانات شيكاغو. وأعلم جميع سكّان شيكاغو أنّ شعاره، وشعار أتباعه هو: "لن ندع أحدًا يُكرهنا على العودة إلى الوراء".

وبفضل اللاعنف الملتزم تمّ التوصّل إلى اتّفاقٍ أسفر عنه نقاشٌ امتدّ على أربعٍ وعشرين ساعةً متواصلةً، وأكره جميع السلطات على تنازلاتٍ تسمح للسود بالسكن في الأبنية التي موّلت الدولة بناءها، جنبًا إلى جنبٍ مع البيض. ولو قُيِّض لهذا التوافق أن يُنفَّذ على الأرض بكلّ حذافيره لكان أروع دليلٍ على الانفتاح والإخاء.

منذ البدء كان واضحًا أنّ تنفيذ ذلك الاتّفاق الطموح لم يكن ممكنًا بين ليلةٍ وضحاها، وأنّه يقتضي وقتًا وصبرًا، وسهرًا يقظًا. وفي الآن عينه لم يكن ممكنًا إغفال معاناة ساكني "الغيتّوات". فعكف مارتن ومساعدوه، مع المؤسّسات المعنيّة على رسم الخطوط العريضة الكفيلة بالقضاء على العِلَل الاجتماعيّة الأساسيّة التي تسبّب التوتّرات، وأهمّها: المساكن غير الصحّيّة وغير اللائقة بالإنسان، المدارس متدنّية المستوى، البطالة والعمل بأجرٍ منخفضٍ، استمرار الفصل العرقيّ في المدارس والمرافق العامّة، والاستخدام الاعتباطيّ والظالم للمعونات الفيديراليّة. ففي كلّ تلك كان مارتن وأعوانه يرون مخطّطًا خبيثًا لإدامة تخلّف السود.

وبما أنّ لائحة الأوصاب الاجتماعيّة كانت شديدة السعة، كان لا بدّ من مواجهتها فرادى، والقضاء عليها بالتدريج، بدءًا بجعل المساكن الزريّة أفضل حالاً للعيش، وتوفير شروط الصحّة والأمان والنظافة لها. فتكوّنت لجانٌ مشتركةٌ ضمّت سكّانًا وملاّكين نظّمت بدلات الإيجار وعدالتها وثباتها، وحدّدت واجبات كلّ

فريقٍ في الحفاظ على البناء، وإصلاح الأعطال، والقضاء على المضارّ الصحّيّة. وأُلِّفت اثنتا عشرة لجنةً من هذا النسق، دأبت على عقد اجتماعاتٍ، وأكبّت على التشاور والإصلاح.

أمّا في ميدان العمل فربّما كان برنامج "سلّة الخبز" هو الأوفر نجاحًا. وهو قائمٌ على مبدأ "إن كنتَ تحترم دولاري فعليك أن تحترم شخصي". ذلك أنّ العديد من التجّار وأصحاب حوانيت البيع بالمفرّق، ومن مصنّعي الموادّ الغذائيّة، كانوا يُنهكون ساكني الأكواخ بأسعارهم المرتفعة، ولكنّهم لا ينفقون دولارًا واحدًا من أرباحهم الوفيرة، في توظيف أحدٍ من سكّان تلك الأكواخ. وفي سبيل عكس ذلك الوضع، اختارت كلّ لجنةٍ من اللجان المنضمّة إلى حملة "سلّة الخبز" قطاعًا تجاريًّا، فإذا تبيّن أنّ نسبة السود العاملين في ذلك القطاع متدنّيةٌ أو أنّ السود العاملين فيها لا يكلَّفون إلاّ بالمهمّات الدنيا ضئيلة الأجر، فحينئذٍ، كانت اللجنة تتفاوض مع المؤسّسة المعنيّة من أجل توظيفٍ أوسع للسود وأجرٍ أكثر عدالةً، وإلاّ فكانوا يلوّحون بتوجيه مشتريات السود إلى المؤسّسات الأوفر إنصافًا في توظيف السود.

لقد مارس مؤتمر القادة السود المسيحيّين هذه السياسة في اثنتي عشرة مدينةً، وآتت نتائج مرضيةً، وثمارًا يانعةً، خاصّةً مع ثلاث مجموعاتٍ صناعيّةٍ كبرى: صناعة الحليب ومشتقّاته، والمشروبات غير الكحوليّة، وسلاسل بقّاليّاتٍ كبرى. بعضٌ من تلك المؤسّسات وافقت على مطالب السود مُكرَهةً، بعد فترة مقاطعةٍ قصيرةٍ لمشترياتها، في حين بادرت مؤسّساتٌ أخرى إلى تلبية مطالب السود تلقائيًّا تجنّبًا لمقاطعتهم لها. وشكرت بعض المؤسّسات القادة الذين قاموا بتلك المبادرة، فهي فضلاً عن تحقيق العدالة، أدّت إلى ارتفاعٍ محسوسٍ في دخل السود وضاعفت قدرتهم الشرائيّة التي انعكست خيرًا على الجميع.

أمّا بشأن أوضاع السكن، فرغم الاتّفاق الذي عُقِد عقب نقاشٍ طويلٍ وشاقٍّ، فقد تبيّن، بعد مُضيّ سبعة أشهرٍ على توقيعه، أنّ السلطات البلديّة لم تقُمْ بأيّة مبادرةٍ لوضعه موضع التحقيق، واتّضح أنّه لم يكن سوى خدعةٍ، استُخدمت وسيلةً لإسكات المطالبات، وكادت في الواقع، تُشعل ثورةً.

وبما أنّ مارتن لوثر كينغ كان من صانعي السلام، فقد سارع إلى تلافي ثورةٍ مدمّرةٍ، واستثار خير مكنونات نفوس الأشخاص الصادقين الذين كانوا يؤلّفون "مجلس المواطنين المسؤولين"، من أجل إصلاح الخَلَل، وإعادة شيءٍ من الثقة التي ولّدها توقيع الاتّفاق، والتأكيد بأنّ تنفيذه، وإسكان السود في أبنيةٍ صحّيّةٍ هو الوسيلة الوحيدة لإنقاذ شيكاغو من الفوضى.

وكان قد تجنّب اندلاع الثورة، من خلال لجمه نقمة فتيانٍ سودٍ في شيكاغو، كان قد التقى العديدين منهم، ومعظمهم ترعرعوا على الأرصفة، لأنّهم لم يعهدوا، قطّ، بيتًا أو أُسرةً، بالمعنى الصحيح للبيت والأسرة. ولّما ارتادوا مدارس أحيائهم نفروا من قذارتها، وتدنّي مستواها، فآثروا التسكّع في الشوارع، ولم تؤهّلهم أُمّيّتهم من أيّ عملٍ مجزٍ، وعهد كثيرون منهم السجون والإصلاحيّات باكرًا.

وتلافيًا لأعمال عنفٍ كفيلةٍ بتدمير كلّ شيءٍ قد يقوم بها فتيانٌ ثائرون، استنبط مارتن لوثر كينغ "حركة الحرّيّة" التي نجحت في تحويل حالهم تحويلاً جذريًّا، وفي تعليمهم المحبّة.

وبفضل تلك الحركة أدركوا أنّ قوّة السلطة المسلّحة قادرةٌ على تحطيم عنفهم الجسديّ، مهما عظُم، وأنّ العنف الجسديّ لم يُفلح، قطّ، في حلّ قضايا اجتماعيّةٍ، وتيقّنوا أنّ أسلوب اللاعنف كفيلٌ، بحلٍّ كلّ مشاكلهم.

وفضلاً عن أعضاء هذه الحركة، كانت أفواجٌ غفيرةٌ من شبّان شيكاغو قد انبروا إلى دعم مسيرة الحرّيّة في ميسيسيبي، صيف ١٩٦٦، وتعرّضوا للقنابل المسيلة للدموع، ومع ذلك، لم يتوانوا عن حماية النساء والأولاد المشاركين في المسيرة، وضربوا أروع مثالٍ في اللاعنف.

شعار "القوّة السوداء"

قضيّة هذا الشعار شغلت حيّزًا رحبًا من كفاح كينغ وفلسفته. وقد بدأت تتفاعل عصر يوم الإثنين الواقع في ١٩٦٦/٦/٦، إذ كان مارتن لوثر كينغ يرأس اجتماع مؤتمر قادة مسيحيّي الجنوب في مدينة أتلانتا، وحينئذٍ، هبط نبأ مقتل الشابّ "جيمس ميريديث"، وهو الشابّ الأسود الأوّل الذي قُبِل في جامعة ميسيسيبي عام ١٩٦٢، برصاصةٍ اخترقت ظهره، في اليوم الثاني من مسيرة الحرّيّة، في الميسيسيبي.

وثارت في القاعة موجة غضبٍ حيال استرخاص حياة السود، واغتيالها بلا عقاب. ولكن سرعان ما تماسك الغاضبون وقرّروا ضرورة مواصلة المسيرة، لأنّ المغدور كان قد استهدف، من خلالها تظاهرةً ضدّ الخوف. وما وقفُ تلك المسيرة إلاّ تكريسٌ لخوف السود، وإعلانُ فشل حركة الذود عن الحقوق المدنيّة، وفَشلِ نظام اللاعنف. ولكن سرعان ما اتّضح أنّ الرصاصة التي اخترقت ظهر الشابّ ميريديث لم تقتله، وأنّه يسير على طريق التعافي، وتأكّدت الضرورة إلى مسيرةٍ، تتحدّى الخوف، وإلى النضال في سبيل الحقوق المدنيّة.

غير أنّ بوادر تمرّدٍ على مبدأ اللاعنف قد أخذت تتجلّى، وشرع بيضٌ وسودٌ يتكاتفون على إحقاق المساواة بالقوّة، والردّ على العنف بالعنف.

هذا التحوّل صدَمَ مارتن لوثر كينغ، للوهلة الأولى. ولكنّه، بعد إعمال الفكر، أدرك أنّ استمرار الوعود الكاذبة، والأحلام الرائعة التي لا تتحقّق، يومًا فيومًا، وأنّ الإجرام الذي لا يُعاقَب، وأنّ هذه الوقائع كلّها عندما تصبح هي نسيج الحياة

اليوميّة، لا بدّ أن يترجرج الإيمان باللاعنف، وأن تولِّد خيبات الرجاء المتلاحقة القنوطَ، والقنوطُ يولّد الحقد. ومع ذلك، لم يغرُب عن بال مارتن لوثر كينغ أنّ الحقد أعمى، ويمنع التمييز بين أفرادٍ مجرمين، وجماعةٍ خيِّرةٍ.

في مساء يوم المسيرة الأوّل جهد كينغ في تبديد سُحُب الحقد التي تراكمت في نفوس مناضليه، وفي إعادتهم إلى جادّة اللاعنف. ولكنّه فوجئ بمقاومةٍ شرسةٍ من قِبَل من دعوا أنفسهم خدّام الدفاع عن الذات، واشترطوا استعمال وسائل الدفاع عن النفس من أجل استمرارهم في المسيرة، وشاطرهم هذا الموقف أعضاء من لجنة الطلاّب اللاعنيفين (SNCC)، ومن مؤتمر المساواة العرقيّة (CORE). وجهد مارتن لوثر كينغ في إقناعهم بأنّه، فضلاً عن نفوره الفطريّ من العنف، يرى أنّ المقاومة العنيفة، ومحاولة الدفاع عن النفس، في الظروف الراهنة، وفي مدينة ميسيسيبي بالذات هي رعونةٌ قاتلةٌ، من جرّاء افتقار السود إلى وسائل الدفاع مقابل خصمٍ مدجّجٍ بالسلاح، تدعمه قوى الشرطة، وسلطة الحكّام العنصريّين. وبيّن لهم أنّ أخصامهم لا يتمنّون أكثر من صدامٍ مسلّحٍ، يتيح لهم القضاء على عشرات السود العزّل المنضوين إلى المسيرة، وحتّى من المحايدين، بلا عقابٍ.

وأظهر لهم أنّ استخدامهم السلاح، وهم يقومون بمسيرةٍ ترفع شعار اللاعنف ستبرّئ عنصريّي ميسيسيبي من كلّ جرمٍ قد يرتكبونه، ويُفضي إلى دفن تفوّق اللاعنف، أخلاقيًّا، وإنهاء نضال السود.

ودعا أشدّ المتطرّفين السود إلى إقصاء البيض المتحالفين معهم، عن المسيرة، وحصرها بالسود، وأيّد شطرٌ عريضٌ من الحاضرين هذه الدعوة. ولكنّ مارتن لوثر كينغ ذكّرهم بما كان قد برهن عنه انضمامُ أفرادٍ بيضٍ، نبيلي النفوس إلى كفاحهم من أجل حقوقهم، في مدن الجنوب، من أثرٍ إيجابيٍّ، ومن خيرٍ جمٍّ، ومن

جدوى توافق بيضٍ وسودٍ على إقامة العدل والمساواة. وذكّر، أيضًا، بأنّ أفرادًا من البيض قد تألّموا، وجُرحوا، وعانوا المرارة الوحشيّة، في دفاعهم عن المساواة في الحقوق بين جميع العروق، وأنّ العدوّ الأخطر الذي يواجهونه، آنذاك، يستلزم منهم مزيدًا من الوحدة.

وفي أثناء المسيرة رفع زعماء متشدّدون شعار "القوّة السوداء"، فتبنّته، بحماسٍ، فئةٌ من المتظاهرين، في حين آثرت فئةٌ أخرى رفع شعار "الحرّيّة في الحال".

وتحفّظ مارتن لوثر كينغ حول شعار "القوّة السوداء" خشية إحداثه شقاقًا بين السود والبيض المشاركين في المسيرة، ونفورًا من طابعه العنصريّ. وأعلن: "إذا كان هذا الشعار يعني أنّ على السود أن يمتلكوا قدراتٍ سياسيّةً واقتصاديّةً تمكّنهم من الظفر بحقوقهم المشروعة، فالسود والبيض موافقون عليه". ولكنّه سارع إلى الإيضاح: "نحن نمثّل عشرةً بالمئة من سكّان هذه البلاد، ومن الحماقة الادّعاء أنّنا سنظفر بحرّيّتنا بقوّتنا الذاتيّة، بل لا بدّ من تحالف الضمائر. ونحن لن نكون أحرارًا في أيّ مكانٍ من الولايات المتّحدة، إلى أن يتعاطف ويتكاتف معنا البيض، بعزيمةٍ صادقةٍ، عندما يتبنّون أنّ التمييز العرقيّ هو انحطاطٌ لهم ولنا". وبذلك أكّد أنّ محاولة التحرّر بالقوّة لن تؤدّي إلاّ إلى مجازر.

ودعا إلى حوارٍ مع مطلقي شعار "القوّة السوداء"، مناشدًا التخلّي عنه، وداحضًا حجّتهم القائلة بأنّ لكلٍّ من الأقلّيّات اليهوديّة، والإيرلنديّة والإيطاليّة قوّتها الخاصّة. فأوضح أنّ قوّة تلك الأقلّيات تكمن في وحدتها وتضامنها، وإنجازاتها الخلاّقة، لا في التباهي بقوّتها، وأكّد أنّ الشعارات لا تبني، أبدًا، قوّةً.

وحؤولاً دون لفت أنظار العالم إلى خلافات السود حول الشعارات، اقترح الامتناع عن الهتاف بأيّ من شعارَيْ "القوّة السوداء" و"الحرّيّة في الحال"، في أثناء

المسيرة. غير أنّ الصحافة أولت خلاف السود حول ذيْنك الشعارَيْن شأنًا أكبر من حجمه، وأغفلت جوهر الكفاح المتعلّق بالمظالم اللاحقة بالسود في ولاية ميسيسيبي، وركّزت على اختلاف نظرات السود حول أسلوب القضاء على تلك المظالم. وفي الواقع لم يكن ذلك الاختلاف سوى تعبيرٍ عن نفاد صبر السود من مغالاة العنصريّين البيض في عنجيّتهم، وازدرائهم للقوانين الفيديراليّة، وشراسة تنكيلهم بالسود واحتقارهم لهم، وتراخي السلطات المحلّيّة في معاقبة جرائمهم العلنيّة. هذا الوضع اللاإنسانيّ، والذي لا يُطاق، حمل فئةً واسعةً من السود على الكفر بمبدأ اللاعنف، الذي لم يحِدْ عنه معظمُهم، مهما حدث.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ حنَقَ السود كان يتصاعد ويتعمّق، وهم يشهدون تعاطف السلطات العليا مع مقتل مناضلٍ أبيض، ولامبالاتهم بمقتل مناضلٍ أسود، في سبيل الدفاع عن الحقوق ذاتها، ولكأنّ لا قيمة لحياة السود في نظرهم، فقد اتّفق أن اغتيل، في آنٍ واحدٍ، قسٌّ أبيض وقسٌّ أسود، وكلاهما كانا يناضلان في سبيل الحقوق المدنيّة. فأبرق الرئيس جونسون لأرملة القسّ الأبيض معزّيًا، وأرسل لذويه باقة وردٍ. في حين لم يُلقِ التفاتةً إلى أرملة القسّ الأسود وذويه.

وبالإجمال حرص مارتن لوثر كينغ على أن يعني شعار "القوّة السوداء" قدرة السود الذاتيّة على تقرير مصيرهم بأنفسهم، والانعتاق من وضع الخنوع الذي أخضعهم له البيض قرونًا طويلةً، منذ عهد الاستعباد حتّى عهد "الغيتّوات". وكانت مطالبتهم بإزالة تلك المساكن الزريّة والموبوءة، وبحقّ سكنهم في الأبنية التي موّلتها الدولة، تعبيرًا عن إرادة التحرّر، وعن ولادة قدرةٍ ذاتيّةٍ، لا تستجدي حقوقها، بل تظفر بها بالقانون، والنضال السلميّ، والتضحيات، وبمعزلٍ عن نزوات العنصريّين، وصلَفهم واستبدادهم. إنّ القوّة، وفقًا لهذا المفهوم، هي القدرة على تحقيق هدفٍ مشروعٍ، وعلى تغييرٍ اجتماعيٍّ واقتصاديٍّ، وهي، بالتالي ليست

مشروعةً فحسب، بل هي تندرج في مقتضيات المحبّة والعدالة. فالعدالة الخالية من المحبّة معرَّضةٌ للتعسُّف والجنوح، والمحبّة المفتقرة إلى العدالة هي عواطف عقيمةٌ مشلولةٌ. القوّة المثلى هي التي تلبّي مقتضيات العدل، والعدالة المثلى هي القدرة التي تستبعد كلّ ما يناقض المحبّة. وما الأزمة سوى تصادم قوّةٍ لاأخلاقيّةٍ، بأخلاقٍ لا قوّة لها.

ومن ثمّ طالب مارتن لوثر كينغ السود الراغبين في قوّةٍ ذاتيّةٍ أن يخلقوها عبر توحيد مواردهم الماليّة، وبذلك توفير أمانٍ ماليٍّ لمجتمعهم، وتحطيم قيود فقره. والقوّة بمفهومها الإيجابيّ هذا تتيح محو الوهم بأنّ لون بشرة السود الداكن هو دليل نقصٍ يقضي عليهم بالقبوع في أسفل الدركات، ودفن حلم رفع رؤوسهم، بل هو تذكيرٌ بانتمائهم إلى الأسرة البشريّة الواسعة الواحدة المتعدّدة، وهو محاولةٌ مباركةٌ لبلسمة الجراح التي حفرتها في نفوسهم عهود العبوديّة ومظالمها.

وبذلك، يسهم مفهوم القوّة السوداء الصحيح بإيقاظه، لدى الإنسان الأسود، وعيًا لقيمته الذاتيّة، ولكرامته التي لا يمكن لأحدٍ استلابها منه، ويقضي على خجله من لونه، الذي طالما اعتبرته المعاجم، افتئاتًا، مرادفًا للقذارة والقباحة والكآبة، والخيانة، في حين أظهرت البياض مرادفًا للطهر والنقاء والبراءة والجمال.

وذكّر بالتواطؤ المؤسف على تجاهل مساهمة السود في ما صنع عظمة أميركا، وبإغفال كتب التاريخ أنّ شهيد حرب الاستقلال الأميركيّ الأوّل كان رجلاً أسود، اسمه "كريسپاس أتّاكس" (Crispus Attucks)، وأنّ أوّل طبيبٍ أجرى عمليّة قلبٍ هو الجرّاح الأسود "دانييل هيل وليامس" (Daniel Hale Williams)، وأنّ أطبّاء سودًا لامعين كان لهم فضل إنقاذ آلاف المرضى، وأغنوا تاريخ أميركا.

ولكن، مع كلّ ما كان يحمله شعار "القوّة السوداء" من إيجابيّاتٍ، كان مارتن لوثر كينغ يرى أنّ سلبيّاته تحول دون توافقه مع مبدأ "اللاعنف"، فهو يعني، ضمنًا، انعدام أيّ رجاءٍ في تحوّلٍ اجتماعيٍّ، يُفضي إلى المساواة بين البيض والسود. ولا ريب أنّ ما أبداه المجتمع الأبيض، حتّذٍ، من افتقارٍ إلى إرادةٍ حازمةٍ في تحقيق المساواة، وأنّ استمراره في تجاهل حقوق السود الأساسيّة، كان يساهم في خلق مناخ تشاؤمٍ.

كان المهاتما غاندي قد ضرب مثالاً فريدًا في الثورة القائمة على السعي إلى الحرّيّة والعدل، بوسائل الرجاء والمحبّة، واللاعنف. وعلى غراره حاول مارتن لوثر كينغ تغيير مصير إخوته السود الأميركيّين، بمبادارتٍ مؤثّرةٍ متزّهةٍ من العنف، في مونتغومري، عام ١٩٥٩، وفي سيلما عام ١٩٦٥، بمنأًى عن العنف الذي اصطبغت به كلّ الثورات السابقة. ولم يتراجع عن مبدأ اللاعنف واللاحقد، حتّى عندما قابلته السلطات العنصريّة بمزيدٍ من العنف، والقمع، والصَلَف.

القنوط قد يولّد الثورة، ولكنّه لا يقوى على تغذية استمرارها. هذا هو الخطأ الذي وقع في شَرَكه شعار "القوّة السوداء"، لأنّ مطلقي هذا الشعار أغلقوا كلّ نافذة أملٍ في حدوث تغييرٍ أساسيٍّ، واقتصروا على أفكار الفِتَن والاثّئار العنيف. ولطالما أنفق مارتن لوثر كينغ ليالي نقاشٍ معهم، ولم يُفلح في زحزحتهم عن موقفهم، مع أنّ عقلاء سودًا كُثُرًا، أكّدوا أن لا رجاء للثورة العنيفة بالنجاح، إلاّ إذا تكافأت القوى المتصارعة، وإلاّ رجحت كفّة الأرباح على كفّة الخسائر.

ولم يكن مارتن لوثر كينغ ليرضى بزعامةٍ قائمةٍ على عدديّةٍ، غير ملتزمةٍ بمبادئ الخير والمحبّة، ونبذ العنف. ولطالما رفض نصائح من حثّوه على تلبية مطالب دعاة العنف، حفاظًا على زعامته. فالزعيم الحقّ، بنظره، هو من تلتفّ حوله أكثريّةٌ

تشاطره القِيَم الخيِّرة التي يؤمن بها، ويدافع عنها. ولم يكن يخشى أن يبقى وحيدًا لو انحاز جميع السود الأميريكيّين إلى الثورة العنيفة. وهذا ما عبّر عنه بقوله:

«لا يمكنني الاعتقاد بأنّ الله يريد أن أُبغض. لقد سئمتُ العنف، سئمتُ رؤيته، لقد شهدت الكثير منه على وجوه قادة شرطةٍ في الجنوب الأميركيّ. ولستُ مستعدًّا لأن أسمح للقامعين أن يُملوا عليّ سلوكي. لقد استخدموا العنف، والحقد، والبنادق، والمسدّسات. وأنا لستُ مستعدًّا للانحدار إلى مستواهم، بل إنّي عازمٌ على الارتقاء إلى مستوًى أسمى. فنحن نملك قدرةً لا توجد في خليط مولوتوف».

وأوضح مارتن لوثر كينغ أنّ التناقض الأقصى في موقف حاملي شعار "القوّة السوداء" هو تنديدهم الدائم بقِيَم المجتمع الأبيض، في حين أنّهم بدعوتهم إلى العنف، يتمثّلون بأسوأ قِيَم الحياة الأميركيّة، بأكثرها شراسةً، وأقلّها حضارةً.

فالسود الأميركيّون لم يمارسوا، قطّ، المجازر الجماعيّة؛ ولم يقتلوا أولادًا في مدارس الأحد، ولم يعلّقوا بيضًا على الأشجار، ولم يرتدوا أقنعةً سوداء من أجل اقتراف أعمال عنفٍ، ومن أجل التنكيل ببشرٍ أو من أجل إغراقهم، إرضاءً لترواتهم.

وتأكيدًا لعزمه هذا أعلن:

«بُغيتي هي أن يظفرَ الإنسان الأسود بوضع مواطنٍ، وكائنٍ بشريٍّ ينعم بكامل حقوقه، هنا، في الولايات المتّحدة. ولكنّي، في الآن عينه، حريصٌ على استقامتنا الأخلاقيّة، وعلى صحّة نفوسنا. وبالتالي، إنّي أعارض كلّ محاولةٍ للظفر بحرّيّتنا عبر أساليب الخُبث والحقد، والعنف، التي وصمت مواقف خصومنا.

"الكراهية تؤذي من يمارسها بقدر إيذائها لضحيّتها. البغض يحاكي سرطانًا يتعذّر السيطرة عليه، وهو يُتلف الشخصيّة، ويلتهم وحدتها الحيويّة. ولذلك يقول علماء النفس: "الحبّ أو الفناء". إنّ البغض عبءٌ باهظٌ».

وخلص مارتن لوثر كينغ إلى قول إنّ إنهاء ماضي العنف والظلم، يستلزم إنسانًا جديدًا. وربّما كان هذا الإنسان الجديد هو الإنسان الملتزم باللاعنف، إنسانٌ يؤمن بمحبّةٍ كفيلةٍ بتحويل قتام الأمس إلى إشراق الغد، ويحوّل عالم خطيئةٍ معتمًا، يائسًا، تائهًا، عليلاً، إلى عالمٍ يمارس سلطة المحبّة.

معارضته للحرب في ڤييتنام

من سخريات القدر أنّ الجنديّ الأميركيّ الأسود أُرسِل كي يقاتل في سايغون دفاعًا عن ديمقراطيّة بلدٍ آسيويٍّ، وهو محرومٌ من أدنى مقوّمات الديمقراطيّة في وطنه.

وبصفة مارتن لوثر كينغ داعيةً إلى اللاعنف، ورجلَ دينٍ، وحائزًا على جائزة نوبل للسلام، وقائد حركة ذودٍ عن الحقوق المدنيّة، وبصفته أسود، وأبًا، وأميركيًّا، فرض عليه ضميرُه أن يقاوم الحرب. فقاومها بعنادٍ وإلحاحٍ، ودأب على دعوة الرئيس جونسون إلى طاولة المفاوضات، بلا تلكّؤٍ.

فقد انتابه شعورٌ مؤرّقٌ بأنّ المرحلة الوجوديّة التي كان يجتازها تجبره على إعلان إدانته قتل شبّانٍ أميركيّين، والقضاء على حياة كهولٍ وأطفال ڤييتناميّين أبرياء، مجّانًا. كانت السلطات الأميركيّة تدّعي إرادة السلام في حين كانت تسعى إلى إحراز انتصاراتٍ عسكريّةٍ، رافضةً كلّ دعوةٍ إلى الهدنة. وحينئذٍ، كان يستحوذ عليه شعورٌ مرهقٌ بأنّه هو القاتل، المجرم، وهو عدوّ السلام. تلك الفترة كانت شديدة الوطأة عليه، نفسيًّا. وكان يعدّ سكوته عن تلك الجرائم يعادل مسؤوليّة اقتراف تلك الجرائم عينها.

فراح يدعو إلى وقف تلك المجازر من منبر الكنيسة، وفي الشوارع، ومن خلال منشوراتٍ يوزّعها، والاتّصال بجميع المسؤولين حتّى أرفعهم. وقد ضاعف رغبته في إنهاء تلك الحرب الرعناء، أنّها صرفت الأنظار عن حقوق السود المنتهكة. ولّما لام بعضُهم توغّله في معارضة حرب ڤييتنام، عوضًا عن حصر اهتمامه بحقوق السود، انتفض انتفاضة متّهمٍ بالخيانة، مثبتًا أنّه، في المقام الأوّل، قد لبّى دعوة الربّ إلى نشر بشرى إنجيله، إنجيل المحبّة والسلام، وعزم على الجهر بالحقيقة بلا تحفّظٍ ولا جزَعٍ، وبلهجةٍ ناريّةٍ أعلن:

«ثمّـة علاقـةٌ واضـحةٌ وبدهيّـةٌ بـين حـرب الڤييتنـام والمعركـة التـي قـدتُها مـع آخرين، لبضع سنواتٍ خلت، والتي أورت شعلة رجاءٍ للفقراء، سودٍ وبيضٍ، من خلال برنامجنا لمحاربة الفقر. ولكنّ الاندفاع المجنون إلى توسيع رقعة حرب الڤييتنام قد وأد تلك الآمال، وقوّض برامجنا وجوّفها، وأفقد الأمّة رشدها. فستظلّ الحكومة الأميركيّة عازفةً عن توظيف المال والطاقات، من أجل إنقاذ فقرائها من عَوَزهم، طالما بقيت مغامراتٌ مثل مغامرة ڤييتنام تلتهم البشر والقدرات والأموال مثل مكنسةٍ كهربائيّةٍ تبتلع كلّ شيءٍ وتدمّره.

"لقد ازددتُ يقينًا بأنّ الحرب هي عدوّة الفقراء. فتعيّن عليّ محاربتها.

"وتجلّت لـي فظاعـة الحـرب عنـدما تبيّنـتُ أنّهـا لا تقتصـر علـى تـدمير آمـال فقرائنـا وأحلامهـم، بـل هـي تـزجّ فـي أتّـون الحـرب مـن أبنـاء السـود وإخـوتهم وأزواجهم، نسبةً أعلى، بلا قياسٍ من نسبة الآخرين. فتيانٌ سودٌ فقراء يُرسَلون إلى ما يبعد ثلاثة عشر ألف كيلومترٍ عن موطنهم، لكـي يحـافظوا، فـي جنـوب شرقيّ بلادٍ آسيويّةٍ على حرّيّاتٍ لم يحظوا بها في جنوب شرقيّ ولاية جيورجيا الأميركيّة، ولا في شرقيّ هارلم.

"وقد فُرِضت علينا قسوةُ مشاهدتنا على شاشات التيليفزيون، مقتلَ فتيانٍ سودٍ وبيضٍ معًا، مع أنّ وطنهم لم يستطع إجلاسهم جنبًا إلى جنبٍ على مقاعد المدارس. ورأينا تضامنهم الوحشيّ على إحراق أكواخ القرويّين الڤييتناميّين، وهم يعلمون أنّه لن يُسمَح لهم العيش معًا في أحد أحياء شيكاغو.

"لم أستطع الصمت وأنا أشهد هذا التلاعب المخزي بالفقراء، وانتهيتُ إلى الاعتقاد بأنّه إذا تسمّمت روح أميركا، وأدّى التسمّم إلى وفاتها، فسيكون سبب الوفاة "ڤييتنام"».

كانت جائزة نوبل للسلام التي نالها عام ١٩٦٤، قد فرضت عليه العمل من أجل تآخٍ أوثق بين الشعوب. وتقاطعَ هذا الواجب مع رسالته بصفته خادمًا ليسوع الذي مات حبًّا بالذين صلبوه.

وتذكّر قول الرئيس جون كينيدي: "إنّ الذين يُفشِلون الثورات السلميّة، يحتّمون حدوث ثوراتٍ عنيفةٍ". والواقع هو أنّ أميركا لا تطيق أيّة ثورةٍ سلميّةٍ قد تمسّ بمصالح أغنيائها.

واستنكر توظيف الرأسماليّين الأميركيّين الأنانيّين، مبالغ طائلةً في آسيا وأفريقيا بغاية جني أرباحٍ طائلةٍ، وعلى غير اهتمامٍ باحتياجات تلك البلاد الأساسيّة والملحّة، وبتطويرها اقتصاديًّا واجتماعيًّا. وأدان، في الآن عينه عنجهيّة الغرب الذي يدّعي القدرة على تلقين الآخرين كلّ شيءٍ، ذاهلاً عن حاجته إلى تعلّم أيّ شيءٍ منهم.

وبالإجمال، أكّد أن لا سبيل إلى إرساء العدل، وترسيخ الديمقراطيّة، في الداخل والخارج، إلاّ باستعادة الزخم الثوريّ، وبشنّ حملةٍ حازمةٍ، ودائمةٍ على الحرب، والعنصريّة، والعسكرة. وينبغي أن يكون هذا التحوّل مسكونيًّا، فتشعر كلّ دولةٍ بارتباطٍ وثيقٍ بجميع دول العالم، وبواجب منحها خير ما لديها. وقال:

«وإن لم نفعل ذلك فسنتسكّع في زواريب التاريخ، وسنكتفي بامتلاك القدرة بلا محبّةٍ، والسلطة بلا أخلاقٍ، والقوّة بلا فطنةٍ.

"فلنطلق إلى العالم رسالة رجاءٍ، وتضامنٍ، وتعاطفٍ ومشاركةٍ!»

هذا الموقف الشجاع، في غمرة الحرب التي كانت الولايات المتّحدة تقودها، جلب لمارتن لوثر كينغ استنكار معظم الصحف الأميركيّة، ونَفَرٍ من البيض

والسود معًا. وسأله صحافيٌّ: "هل ستغيّر موقفَك بعد أن أجمعت الصحافة على انتقادك، وبعد أن خسرتَ الاحترام العامّ، وعرّضتَ ميزانيّة "مؤتمر قادة مسيحيّي الجنوب" للإفلاس، التي أحجم كثيرون عن دعمها؟ وهل ستعود إلى تأييد الحكومة؟".

هذا السؤال الموجّه، شخصيًّا، إلى مارتن لوثر كينغ، والمنذر بما قد يُلحق من إضرارٍ بسمعته ومركزه، أغفل واقع الحقّ والعدالة والإنسانيّة وواجباتها. ولكأنّ الجبْن كان يسأل: "هل ما تفعله يتحلّى بالحذَر؟". ولكأنّ الوصوليّة كانت تسأله: "هل ما تفعله بارعٌ ويخدم مصلحتك؟"، وكأن العُجب بالذات كان يسأله: "هل ما تفعله يُرضي سواد الناس؟"، وكأنّ الضمير كان يسأله: "هل هذا هو الصحيح؟". وهو كان عازمًا على الثبات في موقفٍ يفتقر إلى الحذَر، والمصلحة الذاتيّة، والبراعة، وإرضاء الناس، لكي يسمع قول ضميره: "إنّ ما تفعله هو الصحيح"!

كان راسخ اليقين أنّ المرء يثبت ذاته لا في مواقع الرفاه، بل في مواقع الخطر والأزمات الشديدة، والخلافات. لقد اتّخذ القرار الذي يتعيّن اتّخاذه على كلّ من يمثّله. ووطّن نفسه على ذلك الموقف لأنّه من منطلق رسالته، عندما قرّر أن يكون ليسوع خادمًا، ويحملَ صليبه، كان عالمًا بما يعني الصليب. فالصليب لا يُحمَل فحسب، بل هو التزامٌ قد يقود إلى الموت، وقد يقوّض كلّ شعبيّةٍ وشهرةٍ، وقد يدمّر الجسور المؤدّية إلى المراكز العليا، ويُفقر ماديًّا، ويقلّل المداخيل، ومع ذلك، ينبغي حمله، وليحدث ما يحدث.

غير أنّ خلافًا لما اتُّهم به لم يخلط دعوته إلى السلام العالميّ بكفاحه وكفاح مؤسّساته في سبيل الحقوق المدنيّة، والتي تابعت نضالها في الجنوب وفي شيكاغو.

وذكّر بعض المؤسّسات المتعاونة معه، والتي لم تستسغ موقفه من حرب الڤييتنام بأنّه، في الآن عينه، خادمٌ للإنجيل، ومدافعٌ عن الحقوق المدنيّة، وعليه تلبية الرسالتين كلتيهما، معًا. وهو عندما طالب بالعدالة طالب بها للجميع، للسود والبيض على السواء، لأنّ العدالة لا تتجزّأ. ولذلك لم يستطع الصمت واللامبالاة حيال حربٍ مدمّرةٍ، قاتلةٍ، لا مبرّر أخلاقيًّا لها.

وبيّن أنّه قاوم الحرب في الڤييتنام لأنّها مزّقت اتّفاقيّات جنيڤ، وأضعفت سلطة الأمم المتّحدة، وسعّرت الأحقاد بين الشعوب والقارّات، وعرقلت مساعي السود الأميركيّين من أجل الظفر بحرّيّتهم، واستعادة حقوقهم المهضومة، ولأنّها أظهرت لهم أنّ السلطات الأميركيّة تولي متطلّبات الحرب شأنًا أكبر من تلبية احتياجات مواطنيها الأساسيّة، ودعمت القوى الرجعيّة الأميركيّة، والتكتّلات العسكريّة والصناعيّة التي كان الرئيس إيزنهاور قد حذّر من أخطارها. وبالإجمال دمّرت تلك الحرب الڤييتنام، وجعلت آلاف الشبّان الأميركيّين مشوّهين ومعاقين، وكادت تعرّض العالم لحربٍ نوويّةٍ لا تُبقي ولا تذر.

وارتأى أنّ القنابل التي أُلقيت على الڤييتنام انفجرت في أميركا، ودمّرت آمالها في أن تكون بلدًا عظيمًا.

أوهام القوّة ألبست الحكّام الأميركيّين ثوب الصَلَف، وجعلتهم يحتقرون مبادئ العدالة والأخلاق.

ولم يخشَ مارتن لوثر كينغ من نُصح الشبّان الأميركيّين:

«إذا أيقنتم أنّ هذه الحرب هي ظالمةٌ، وغير مبرّرةٍ، فارفضوا الاشتراك بها، وانهجوا درب يسوع المسيح.

"وحينئذٍ، يصبح الله والإنسان المؤمن، أغلبيّةً».

حملةٌ على الفقر

لم يُطِق مارتن لوثر كينغ أن تفضي سياسة الولايات المتّحدة إلى خلق متسوّلين شحّاذين. وفي اجتماع مؤتمر قادة المسيحيّين في الجنوب الأميركيّ الذي ترأّسه، في تشرين الثاني ١٩٦٧، اتُّخذ قرارٌ بإرسال موجاتٍ متعاقبةٍ من المعدَمين المعوَزين إلى واشنطن في ربيع عام ١٩٦٨، للمطالبة بإيجاد عملٍ ودخلٍ لائقَيْن لكلّ مواطنٍ أميركيٍّ. فقد كانت التجربة قد أثبتت أنّ الحكومة الفيديراليّة لا تتحرّك إلاّ بضغطٍ مباشرٍ ومدوٍّ. وكان المطالبون عازمين على الصمود حتّى تُلبّى مطالبهم، رادّين باللاعنف على لامبالاة المسؤولين وازدرائهم وسخريّتهم، غير خائفين السجن، لأنّ السجن ليس أسوأ ممّا يقاسونه في حياتهم اليوميّة، وليس أقسى من التمييز والفصل العرقيَّين، اللذين يواجهونهما كيفما تحرّكوا. ومع ذلك، كانوا يأملون أن تتعاطف واشنطن، والبلاد جمعاء، مع بؤس الفقراء، وأن تتكاثر التظاهرات المندّدة بالفقر المفروض على شريحةٍ واسعةٍ من الشعب، إلى جانب البذخ الوقح لدى شريحةٍ أخرى. وكانوا يتوقّعون إصلاحاتٍ جادّةً وفعليّةً، ومصمّمين على الاستمرار في المطالبة، بأعمالٍ ضاغطةٍ، غير عنيفةٍ، حتّى تتحقّق مطالبهم.

كانوا يأملون في تنظيم عملٍ واسع النطاق، سحيق التأثير، في واشنطن، وسائر المدن الأميركيّة، عملٍ يستقطب الشبيبة التي خيّبتها النزَعات المادّيّة، والدعوات الاستهلاكيّة، ويستدعي مساهمة السود غير الأميركيّين: المكسيكيّين، والهنود، والپورتوريكيّين، وآخرين كثيرين. وكانوا يتطلّعون إلى مبادرةٍ تناشد سخاء الأميركيّين خيِّري النوايا. وبالإجمال استخدموا كلّ ما أمكنهم من وسائل ضغطٍ، متزّهةٍ من العنف، وكفيلةٍ بدفع الحكومة الأميركيّة إلى انتهاج دربٍ يؤدّي إلى إزالة الفقر الذي يُغرق أميركيّين كُثُرًا في لجج القنوط.

لقد أدركوا ضرورة التأثير على الكونغرس والأحزاب، وسمّوا حملتهم "حملة التوظيف والدخْل"، وطرحوها على حكومةٍ تُعَدُّ الأغنى في العالم. وقد وعدت شعبها بالرفاه والحرّيّة والسعادة. فإمّا أن تفي بوعدها، وإمّا أن تعترف بأنّ العنصريّة التي تكبّلها هي سبب فشلها وانهيارها. هذا التحدّي وضع أميركا أمام امتحانٍ حاسمٍ، ولا بدّ من مواجهته بلا تلكّؤٍ ولا إرجاءٍ، وأمام فرصةٍ فريدةٍ، تمكّنها، إذا هي شاءت، من تدوين فصلٍ مشرقٍ ومجيدٍ في تاريخها.

وبصفته قسًّا وراعيًا، أعلن مارتن لوثر كينغ:

«لدينا قدرةٌ على تغيير أميركا، وإضفاء حيويّةٍ جديدةٍ على دين يسوع المسيح. بوسعنا أن نتيح للشبّان والشابّات الذين فقدوا إيمانهم بيسوع وبالكنيسة أن يروا في المسيح إنسانًا جادًّا، لأنّه واجه نتانة الظلم البشريّ بسنى المحبّة الإلهيّة، ولأنّه اهتمّ بالقضايا الحقيقيّة، وبالخبز اليوميّ. هو الذي ابتدع "سلّة الخبز"، وأطلقها منذ زمنٍ بعيدٍ، وكان أكبر ثائرٍ عرفه التاريخ.

"مأساة المسيحيّة أنّها أغفلت امتلاك مبادرة الثورة، بلا حاجةٍ إلى كارل ماركس. وأنا استقيتُ ثورتي من إنسانٍ يُدعى يسوع، جليليٍّ قدّيسٍ كُرِّس لبلسمة القلوب المحطّمة، وحلّ قضايا الفقراء».

لقد ألقى مارتن لوثر كينغ، في أسبوعٍ واحدٍ من شهر آذار ١٩٦٨، خمسةً وثلاثين خطابًا، متنقّلاً من ديترويت (في ولاية ميشيغان) إلى لوس أنجيليس، ومن هناك طار إلى ممفيس حيث اغتيل.

عند وصوله إلى ممفيس التفت إلى معاونه رالف أبيرناثي، وقال له: "إنّهم يقومون هنا بعملٍ رائعٍ، حقًّا". وكان يشير إلى ألفٍ وثلاث مئة عامل تنظيفاتٍ، رفضت البلديّة دفع أجورهم العادلة، فأعلنوا الإضراب، وأظهروا قدرة السود على

التوحّد والتضامن. فما يؤلم أحدهم يؤلمهم جميعًا، وسقوط أحدهم يعني سقوط جميعهم، ومن يملك ما يفيض عنه يعطيه للمحتاج إليه، وعلى كلٍّ منهم أن يبحث عن كلّ منبوذٍ، ومتعبٍ، ومستغَلٍّ، وأن يغيثه. وقد أظهر المضربون أنّ لكلّ عاملٍ شأنه، ولكلّ عملٍ كرامته، وأنّ عامل التنظيفات لا يقلّ شأنًا عن الطبيب، فإحجامه عن إزالة الأقذار، يُشيع أمراضًا لا يسلم أحدٌ من أذاها.

وخاطب كينغ عمّال النظافة المضربين في ممفيس، وحضّهم على الصمود:

«لا تيأسوا، فما من فعلٍ ذي شأنٍ يتحقّق بلا تضحيةٍ. واجبكم الآن هو أن تظلّوا متضامنين ومتّحدين، وأن تُثبِتوا أنّكم ستصمدون حتّى غاية الشوط، وحتّى تحقيق كلّ مطلبٍ من مطالبكم، وحتّى يعلم الجميع أنّ مطلبكم لا يقتصر على أجورٍ عادلةٍ، وعلى امتيازاتٍ اجتماعيّةٍ تناضلون في سبيلها، بل هو ينطوي، أيضًا، على حقّكم في نقابةٍ معترفٍ بها.

"باستطاعتنا، ونحن متّحدون، الحصول على ما لا نستطيع الحصول عليه متفرّقين. باتّحادنا نملك قدرة الحصول على ما نريد، وعلى إجراء التغيير الذي نتطلّع إليه. فاصمدوا حتّى النهاية، وحتّى تُكرِهوا من يتمسّك بالرفض على القبول.

"ولا تنسوا، أبدًا، أنّ من يمارس القمع لن يمنح الحرّيّة، طوعًا. وإذا شئنا الحصول على أجورٍ عادلةٍ، يجب أن نكافح في سبيلها».

وبهذه المناسبة جاء مارتن لوثر كينغ على ذكر مثل الغنيّ ولعازر، وأشار إلى أنّ الغنيّ لم ينتهِ إلى جهنّم بسبب ثروته، بل بسبب قسوة قلبه، وبسبب عدم التفاته إلى حاجة لعازر الفقير المطّرح عند عتبة بيته. وخلص إلى القول: "أميركا، أيضًا، ستمضي إلى الجحيم إذا لم تُتِح لجميع أبناء الله تلبية احتياجاتهم الحيويّة. ولن تشفع

فيها كلّ اكتشافاتها التقنيّة المذهلة، عندما سيسمع مسؤولوها: "كنتُ جائعًا فلم تطعموني، وكنتُ مشرّدًا فلم تؤووني، وكنتُ عريانًا فلم تعطوني ثوبًا، وكنت أرتعد بردًا فلم تدفئوني...".

ولكأنّ حدْس آخرته كان يراوده، فأنهى خطابه بقوله:

«إنّ اضطراري للعيش كلّ يومٍ تحت تهديد القتل يثبّطني، أحيانًا، واضطراري، كلّ يومٍ، إلى تلقّي الشتائم والانتقادات حتّى من قبل شعبي يحبطني. ومن جرّاء اضطراري إلى الإغفاء على شعورٍ بالإحباط، عندما تتكاتف رياح العداء الجليديّة على جعلي أترنّح، يتولاّني، أحيانًا، شعورٌ ببطلان جهودي، وعقمها.

"ولكن، حينئذٍ، يعيد الروح القدس الحياة إلى نفسي».

وقد جاء في إحدى عظات مارتن لوثر كينغ:

«يجب ألاّ تكونوا، أبدًا، راضين عن آرائكم، وعن نهج حياتكم، وأنتم غافلون عن "إخوتكم الأصاغر". وأنا أجهد في إفهام ذلك لأبنائي، يومًا فيومًا، عندما يتسنّى لنا، صباحًا، الالتفاف حول المائدة من أجل الصلاة، وحينئذٍ، لا أستطيع الصلاة إلاّ بعد قولي: "يا إلهي ساعدنا، ونحن جالسون حول هذه المائدة، أن ندرك أنّ، ثمّة، من هم أقلّ يُسرًا منّا. فساعدنا على ألاّ ننساهم". وإنّي أقول، دائمًا، لأبنائي: "سأبذل كلّ جهودي، وسأعمل كلّ ما أقدر على عمله لكي تحصّلوا أفضل دراسةٍ. ولكنّي أريد ألاّ يغيب عن بالكم أنّ هناك ملايين من أبناء الله الذين لن يتمكّنوا من تحصيل دراسةٍ وافيةٍ. فلا تتوهّموا أنّكم أرفع منهم شأنًا. فلن تكونوا، أبدًا، ما ينبغي أن تكونوا، قبل أن يكونوا هم ما ينبغي أن يكونوا، حقًّا».

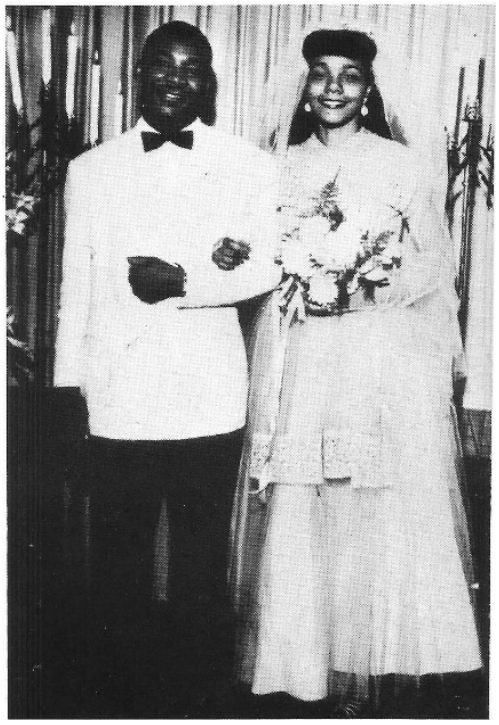

زواج مارتن كينغ وكوريتّا
سكوتّ، حزيران ١٩٥٣.

مع ابنتهما الأولى يولاندا

في مترلهما

أسرة كينغ الوالد في المقدّمة، ثم مارتن وابنته وابنه الأكبران، ثم زوجته حاملةً طفلتها الصغرى، ووالدته مع ابنه الثالث.

مارتن وزوجته يتقدّمان مظاهرة احتجاجٍ على مقتل شابٍّ أسود.

يطأطئ رأسه تفاديًا للحجارة الملقاة عليه.

مارتن كينغ والسيدة روزا باركس يتفقّدان سيّاراتٍ لنقل مقاطعي الحافلات.

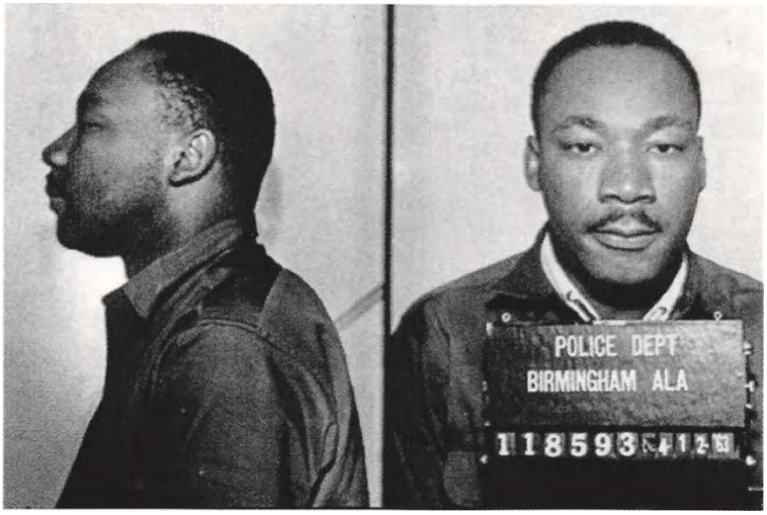

السجين السياسيّ الأشهر.

شرطة "بيرمنغهام" وكلابها الشرسة.

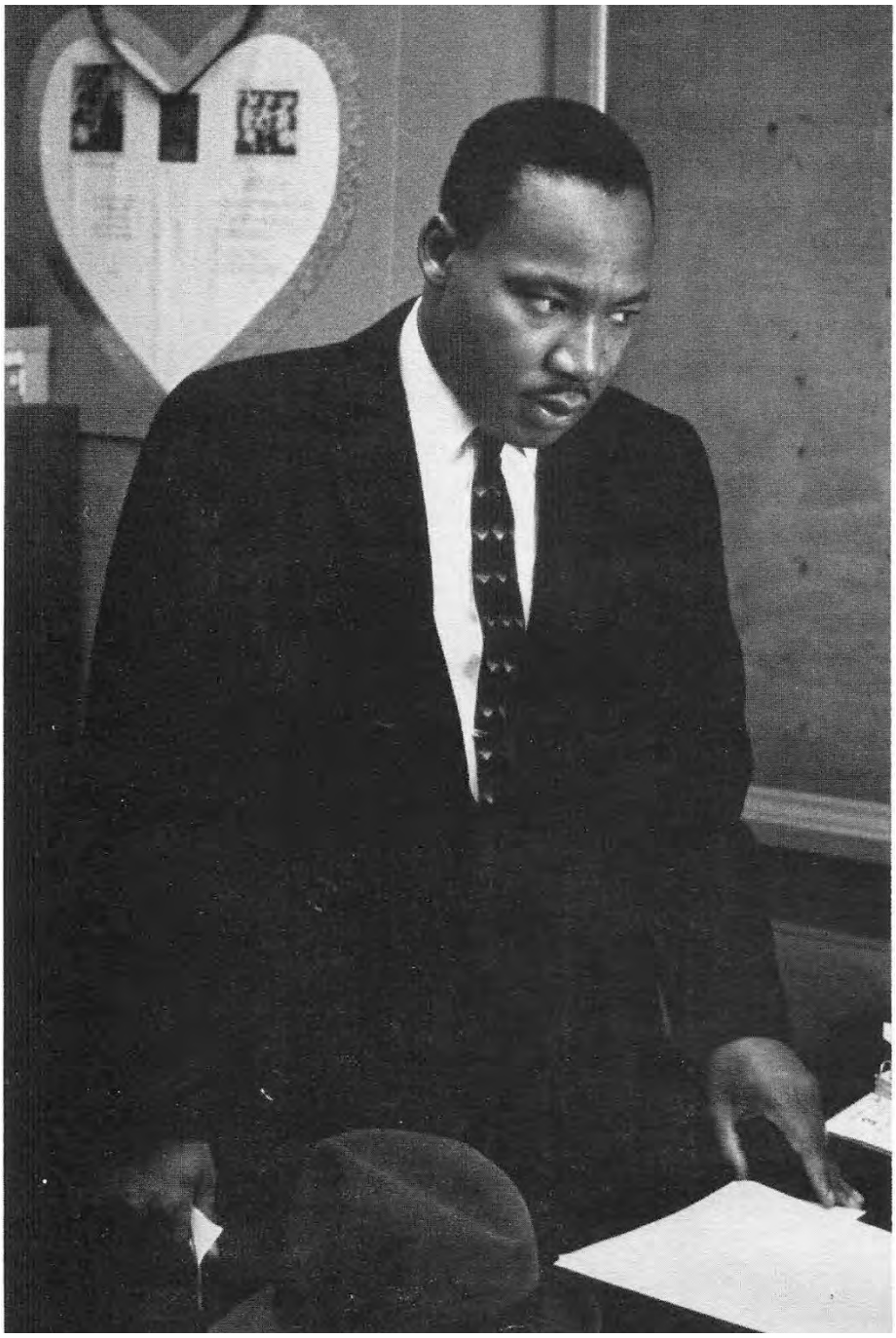

راعي كنيسة مونتغومري.

اعتقال في مونتغومري ١٩٥٦

السجين.

أيادٍ تتنافس على مصافحته.

يشير إلى رصاصةٍ اخترقت نافذةً في مترله.

يشجّع مناضلين صغارًا يطالبون بإلغاء الفصل العرقيّ.

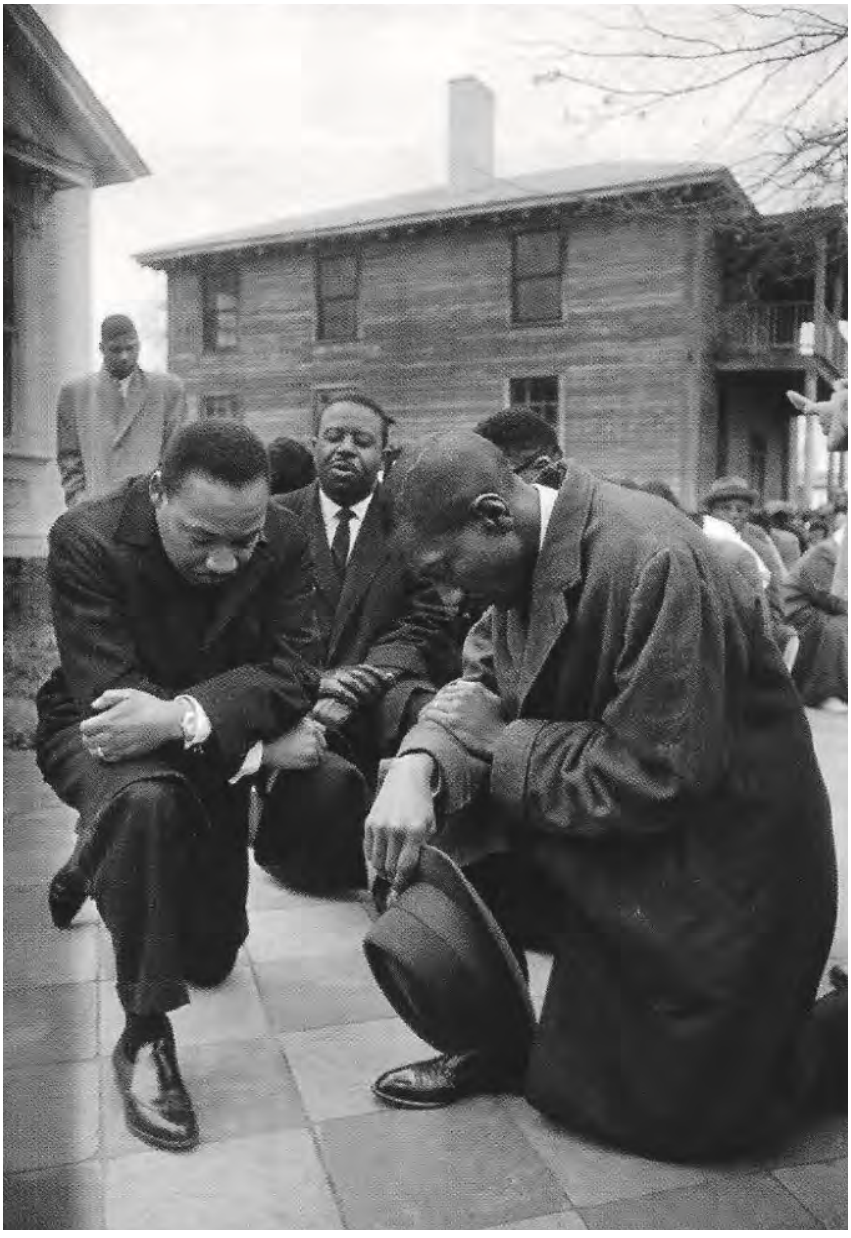

مارتن ورفاقه يركعون في الشارع ويصلّون قبل زجّهم في السجن.

مسنّة قاطعت الحافلات.

يجلس في المقعد الثاني من حافلة، بعد إنهاء المقاطعة إلى جانب قسٍّ أبيض، وأمامه القسّ رالف أبيرناتي، مساعده.

مع الرئيس الجزائري بن بيلاّ.

مع الرئيس جون كينيدي بمناسبة المسيرة الكبرى إلى واشنطن.

مع الرئيس جونسون أثناء توقيع قرار حقّ السود بالتصويت في جميع الولايات الأميركيّة.

مع سيمون سينيوريه وإيف مونتان في باريس.

المسيرة إلى واشنطن ١٩٦٣.

يخاطب جماهير السائرين إلى واشنطن.

أسرته عام ١٩٦٣.

السجينان القسَّان مارتن كينغ ورالف أبيرناتي – ١٩٦٤.

"عندي حلم" في واشنطن – ١٩٦٣.

في أوسلو لتسلّم جائزة نوبل للسلام.

تسلُّم جائزة نوبل للسلام من ملك النورڤيج.

المسيرة الكبرى من سيلما إلى مونتغمومري– ١٩٦٥.

إعلان الحملة ضدّ الفقر.

عيلته تودّعه.

رفاق كينغ يودعونه الوداع الأخير.

روبيرت كينيدي في جنازة مارتن كينغ.

روكفيلير في جنازة مارتن كينغ.

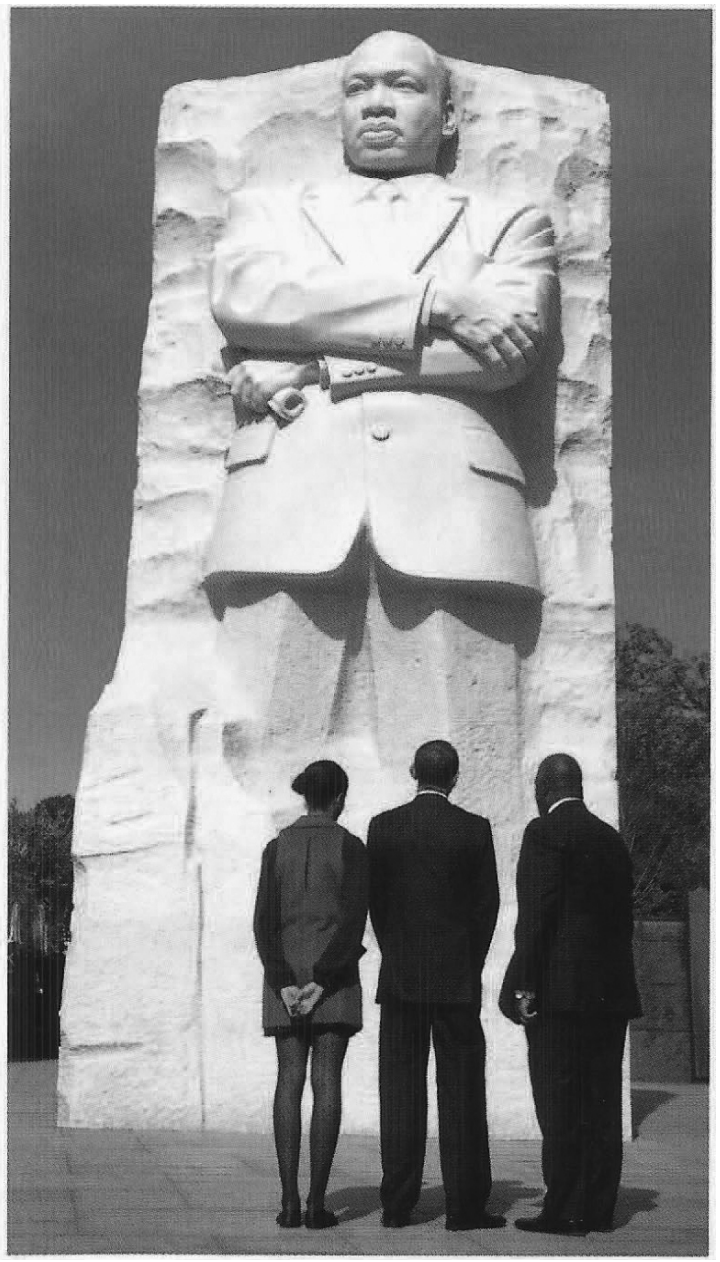

نُصْبٌ لمارتن لوثر كينغ، دُشِّن عام ٢٠١١.

مصرع مناضلٍ بطلٍ

في أواخر شهر آذار ١٩٦٨، أعلن عمّال النظافة السود في مدينة ممفيس الجنوبيّة الإضراب، لأنّ البلديّة رفضت أن تدفع لهم أُجورهم العادلة، وقاموا بمظاهراتٍ افتقرت إلى التنظيم، ورفع المتظاهرون لافتاتٍ متباينةً، ومتناقضةً، أحيانًا. ونشبت شجاراتٌ بين المتظاهرين أوقعت جرحى، فاستُدعي مارتن لوثر كينغ على عجلٍ من أجل تقويم الوضع.

قبل قدومه إلى ممفيس كان قد ألقى خطابًا قال فيه:

«سرّ نجاحنا، نحن السود أنّنا اتّحدنا، ومرَرْنا، متّحدين، أمام كلاب الحاكم "كونر" الشرسة، منشدين: "لن ندع أحدًا يُكرِهنا على التراجع". وأطلق علينا "كونر، الثور"، خراطيم مياه الحريق، ولكنّا لم نخشَ نسف مائه. ثمّ حشَرَنا "الثور" حشر السردين في علبٍ صغيرةٍ، وقال "خذوهم". فمضينا منشدين: "سننتصر". وفي السجن شاهدنا السجّانين يراقبوننا من النوافذ، ويتأثّرون بصلواتنا وأناشيدنا. وألفى فينا الحاكم "الثور" قوّةً لا قِبَل له على مواجهتها، فتحوّل بقرةً، وكسبنا معركة "بيرمينغهام". وفي ممفيس علينا أن نواصل معركتنا متّحدين، وألاّ نتوقّف في منتصف الطريق. فإن لم نتقدّم، وإن لم ندعم عمّال النظافة، سنهوي جميعنا.

طار، إذن، مارتن لوثر كينغ إلى ممفيس، في الصباح الباكر، ومنذ وصوله خاطب مستقبليه، ولكأنّه يتلو وصيّته الأخيرة، فقال:

«غادرتُ أتلانتا هذا الصباح، وعند إقلاع الطائرة أعلن قائدها: "يؤسفنا أنّنا تأخّرنا في الانطلاق. ولكن بما أنّ معنا القسّ مارتن لوثر كينغ على متن هذه

الطائرة، فقد تمّ التحقّق من فحص جميع الحقائب، ومن خلوّ كلّ ما قد يؤذي الطائرة، التي تحرّينا كلّ تفاصيلها طوال الليل". ومنذ وصولي إلى ممفيس شرع بعضهم في تحرّي الأخطار الممكنة، والشائعات السارية، ونوايا بعض إخوتنا البيض معتلّي النفوس.

"أنا أدرك ما سيحدث: أمامنا أيّامٌ عصيبةٌ. ولكنّي لست مهتمًّا بما قد يجري لي الآن، فقد بلغتُ قمّة الجبل، ولم أعد أبالي بخطرٍ. إنّي، مثل غيري، أرغب في طول العيش، ولطول العمر ثمنه، ولكنّي لا أبالي به الآن. وكلّ ما أرغب فيه هو أن تتحقّق مشيئة الله، الذي أتاح لي تسلّق قمّة الجبل ورؤية أرض الميعاد، التي قد لا يتسنّى لي وطء أديمها. ولكن ما أريد إعلانه هذا المساء، هو أنّ شعبنا سيدخلها. ولذلك، أنا سعيدٌ الآن، ولا شيء يقلقني، ولا إنسانٌ يخيفني. فقد شَهِدتْ عيناي مجيء الربّ.

"بين حينٍ وآخر يخطر ببالنا اليومُ الذي نقع فيه ضحيّة مصيرنا الحتميّ في هذه الدنيا، والذي نسمّيه الموت. جميعنا نفكّر فيه. وأنا بين وقتٍ وآخر، أفكّر بوفاتي وبجنازتي. وممّا أرغب أن يُقال عنّي آنذاك:

قد حاول مارتن كينغ أن يحبّ،

وحاول تبيان حقيقة الحروب،

وحاول إطعام جائعين،

وحاول، في حياته، إكساء عراةٍ، وزيارة سجناء.

وأريد أن يقال إنّني حاولتُ محبّة البشريّة وخدمتها.

وإذا أحببتم قولوا إنّي كنت قارع طبولٍ، وإنّي قرعت طبول العدالة والسلام.

أمّا ما هو سطحيٌّ فلا شأن له عندي.

لن أترك، بعدي، مالاً، ولا أيّ شيءٍ باذخٍ يُزيّن به العيش،
فأنا لا أريد أن أُخلّف ورائي سوى حياة التّفاني.
وإذا كنتُ قد ساعدتُ إنسانًا التقيتُه في طريقي،
وإذا كنتُ قد أفرحتُ إنسانًا بكلمةٍ أو بنشيدٍ،
وإذا كنتُ قد حذّرتُ إنسانًا من منزلقٍ خطيرٍ،
لما كانت حياتي باطلةً».

أجل، أيّها القسّ مارتن لوثر كينغ، لقد كانت حياتك رائعةً، مجيدةً، وكانت إنجيلاً حيًّا.

بسبب تأخّر إقلاع طائرته، كانت المظاهرة قد انطلقت قبل وصوله إلى ممفيس، فاقتادته إليها سيّارةٌ مسرعةٌ. ومع أنّه لاحظ لائحاتٍ ترفع شعار "القوّة السوداء"، ترأّس المظاهرة، التي ما كادت تتقدّم أمتارًا معدوداتٍ، حتّى سُمِعت أصوات زجاجٍ يتحطّم، وقناني ماءٍ، وأحجارٍ تتطاير. وكان الفاعلون مراهقين هربوا من مدارسهم واندسّوا في صفوف المتظاهرين، كي يرووا عطشهم إلى الشغب والتخريب.

واستغلّت السلطات هذه الأفعال الصبيانيّة الفوضويّة، كي تنتقم من المتظاهرين، وتوسعهم تنكيلاً وعنفًا. وخشي أصدقاء مارتن لوثر كينغ أن يصبح هدفًا لشراسة السلطات، فأجبروه على الانسحاب والمكوث في فندقٍ. فعاد مثبَطًا، إذ كانت تلك المظاهرة الأولى التي يشترك فيها، وتتخلّلها أعمال شغبٍ غير مسؤولةٍ، وتولاّه شعورٌ بأنّ الشغبَ كان مقصودًا من أجل إيذائه، واجتاحت نفسه موجةُ حزنٍ وإحباطٍ كاسحةٌ.

وفي اليوم التالي، عقد لقاءً صحافيًّا، فسّر فيه أخطاء الأمس، واعتذر عنها، وأكّد تمسّكه الصارم باللاعنف، وأدهش مستمعيه بسرعة انتفاضته على الحزن والإحباط، وبفصاحة خطابه، في ذلك اليوم، التي لم يسمعوا لها مثيلاً، قطّ. وسأله صحافيٌّ: "ما الذي جرى لك منذ الليلة الماضية؟ هل تحدّثت إلى أحدٍ غيّر نفسيّتك". فأجاب: "لم أتكلّم إلاّ إلى الله"!

وأكبّ على إلزام تظاهرة ممفيس الكبرى التي كان القادة السود قد حدّدوا موعدها يوم الثامن من شهر نيسان باللاعنف والتنظيم كي تؤتي نصرًا مدوّيًا.

وفي هذه الأثناء، دُعي إلى إلقاء عظةٍ في كاتدرائيّة واشنطن الأسقفيّة، حيث احتشد أكثر من ألف شخصٍ لأجل الاستماع إليه. وممّا قاله: "لن تحقّق حركة السود هدفها، إلاّ بعد اجتثاث آخر أثرٍ للظلم العرقيّ". وأكّد على واجب التزام متظاهري مقاومة الفقر باللاعنف كي لا يسيئوا إلى غايتهم.

ثمّ قضى مارتن لوثر كينغ يومين في أتلانتا مع أُسرته وأولاده، ولكأنّه كان يودّعهم. قبل أن يمضي بالطائرة إلى ممفيس صباح يوم الثلاثاء. مساء يوم الإثنين كان القسّ مارتن مرهقًا، وكانت أحوال الطقس سيّئةً، وخُيِّل إلى معاونيه أن يكون الجمهور الذي يحضر لقاء المساء ضئيلاً، فتطوّع مساعده القسّ رالف أبيرناتي للتحدّث إلى الحضور، ولكنّه فوجئ بوجود أكثر من ألفَيْ شخصٍ، كانوا قد تدافعوا لسماع قائدهم مارتن، وأُصيبوا بالخيبة عندما تبيّنوا غيابه. حينئذٍ، سارع مساعده رالف أبيرناتي إلى الهاتف وحثّه على المجيء، وإسماع أقواله إلى مَن كانوا متعطّشين إلى سماعها. وألقى كينغ خطابًا فجّر حماس الحضور، إذ أكّد لهم أنّه معهم بكلّ قلبه، وكلّ نفسه، وأنّه، حتّى إن لم ترفع السلطات الفيديراليّة الحظر على مظاهرة ممفيس، فسيتقدّم مسيرتها. وقوبلت أقواله بتصفيقٍ مدوٍّ.

أكبّ القادة السود، في ممفيس، قبل ظهر يوم الأربعاء، ١٩٦٨/٤/٤، على تنظيم مسيرة الثامن من نيسان، وتوحيد عناصرها وتزيهها من كلّ خلَلٍ، وإلزامها بالنظام، واللاعنف، والسموّ الروحيّ. ثمّ أمضى مارتن لوثر كينغ، بعد ظهر ذلك اليوم في فندقٍ مع شقيقه، وتمازحا، وعلى غير عادتهما تحدّثا هاتفيًّا مع والدتهما، وحاولا خداعها بتقليد كلٍّ منهما صوت الآخر. وعندما أزف موعد العشاء، ارتدى مارتن معطفه، وخرج إلى شرفة غرفته المطلّة على بيتٍ متهدّمٍ يبعد نحو خمسين مترًا، ونادى المرنّم المكلّف بإحياء السهرة، وطالبه بإنشاد: "أيّها الربّ العزيز، خذ بيدي". وأوصاه سائقه بارتداء ما يقيه من برد ذلك المساء.

وحينئذٍ، سُمِعت طلقة رصاصة الغدر القاضية.

قُتِل القسّ مارتن لوثر كينغ في أسبوع الصوم الذي يسبق أسبوع آلام الربّ. مات فداءً عن إخوته السود الأميركيّين، وإيقاظًا للضمائر الإنسانيّة الغافية، وتمهيدًا لقيامةٍ تقضي على الموت والشرّ والظلم، وتلد الحياة والفرح.

لطالما أعلن مارتن لوثر كينغ تأهّبه لبذل حياته في سبيل قضيّةٍ يؤمن بها، وإيمانَه بأنّ بذلاً كاملاً للذات هو فعلٌ فدائيٌّ، ومنبع إلهامٍ للآخرين.

مات، ولكنّه سيحيا في نفوس أبطالٍ آخرين سيقفون وجودَهم وجهودَهم على قضايا كبرى.

هذا ما أكّدته ابنته الكبرى "يولاندا" التي قالت لأمّها: "لن أبكي لأنّ أبي لم يمتْ موتًا حقيقيًّا. مات جسديًّا، ولكنّ روحه لن يموت أبدًا".

وهذا ما أكّدته، أيضًا، زوجته "كوريتّا" التي أعلنت:

«لطالما كرّر زوجي على مسامع أبنائنا أنّ إنسانًا ليس لديه ما يستأهل الموت لأجله، هو إنسانٌ لا يستحقّ الحياة. ولطالما أكّد لنا أنّ المهمّ ليس مدّة الحياة، بل جودتها.

"كان يعلم أنّ حياته الجسديّة قد تنتهي في كلّ لحظةٍ. ودعانا إلى توقّع هذا الأمر بجدٍّ وصدقٍ. كان ينظر إلى احتمال اغتياله بلا جزعٍ ولا حقدٍ.

كان يدرك أنّنا نعيش في مجتمعٍ مريضٍ، تفسده العنصريّة والعنف، مجتمعٍ يشكّك في الاستقامة، ويشوّه الدوافع والآراء، كي يبرّر قتله، ومع ذلك، جهد زوجي، بكلّ طاقاته، من أجل خلاص هذا العالم نفسه.

"لم يداخله، قطّ، شعورُ بغضٍ، ولم ييأس، أبدًا، من فعل الخير، وحرّضنا دائمًا على احتذاء حذوه، وبذلك أعدّنا لاحتمال مأساة اغتياله.

"نجاح تعليمه أدهشني وأسعدني. وهذا ما اتّضح من موقف أبنائنا.

"كنّا دائمًا، مؤمنين وملتزمين بديننا – وهذا ما خفّف وطأة مصيبتنا. وهمّنا الآن هو ألاّ يزول عمله. لقد بذل حياته من أجل فقراء هذا العالم: عمّال نظافة ممفيس، وقرويّي الڤييتنام، ولم يحزنه شيءٌ أكثر من ألاّ يجد مقموعون محرومون سوى العنف وسيلةً لحلّ مشاكلهم، فضحّى بحياته بحثًا عن وسيلةٍ مثلى، وأجدى، تبني ولا تدمّر.

"ونحن عازمون على مواصلة سعيه، ونأمل أن ينضمّ إلينا من أحبّوه وقدّروه، من أجل تحقيق حلمه.

"ويوم ستتحرّر، حقًّا، الشعوب المستعبَدة، السود وجميع الآخرين، ويزول الفقر، والحروب، في ذلك اليوم، سأوقن أنّ نفسَ زوجي قد ظفرت بالسلام الذي تستحقّه بجدارةٍ».

وبما أنّ القادة السود كانوا، قبل اغتيال مارتن لوثر كينغ، قد قرّروا إطلاق المظاهرة الكبرى في ممفيس يوم الثامن من نيسان، فعشيّة ذلك اليوم سأل أولئك القادة أرملة كينغ هل سترضى بقيادة تلك المظاهرة، فرحّبت بالدعوة. وتخطّت المظاهرة بكثافتها، وانتظامها، ومهابتها، كلّ توقّعٍ، فقد انضمّ إليها محبّو مارتن لوثر كينغ من شتّى المدن الأميركيّة، وربا عدد المتظاهرين عن خمسين ألفًا.

وفي ختامها ألقيت خطاباتٌ أشادت بعظمة الفقيد المقترنة بتواضعه، وبتطلّعه الحارق الدائم إلى سيادة العدالة الاجتماعيّة، وبإيمانه الراسخ بالألم الفادي، وبتأهّبه الدائم لبذل حياته في سبيل القضيّة التي آمن بها.

وأسفرت تلك المظاهرة عن المحبّة العارمة، والتقدير الرفيع للفقيد الفذّ، وبعثت بموجة عزاءٍ منعشةٍ إلى قلوب أرملته وأبنائه الذين تصدّروا منصّة الاحتفال.

وأشادت أرملته بمارتن القائد والزوج والأب، والرجل، واختتمت خطابها بتساؤلاتٍ كاويةٍ:

"كم من أناسٍ يجب أن يموتوا، قبل أن ننعم بمجتمعٍ حرٍّ، صادقٍ، وسلميٍّ، حقًّا؟ وكم من وقتٍ سيستلزم ذلك؟ إذا استوعبنا ما حدث، بعمقٍ، أظنّ أنّ بقدرتنا تحويل هذه الأمّة إلى مجتمع محبّةٍ، وعدلٍ، وسلامٍ وإخاءٍ شاملٍ».

إثر هذه الجنازة التي شارك فيها مسؤولون من كلّ طيفٍ، وبشرٌ من كلّ لونٍ، وآلافٌ ممّن لم يجدوا لهم مكانًا داخل كنيسة "إيبينيز" (Ebenez) الغالية على قلب الفقيد وأُسرته، نُقِل نعشه إلى المدفن على متن عربةٍ ريفيّةٍ (طنبر) يجرّها بغلان، دليلاً على محبّة الفقيد للفقراء، وتمثّله بهم.

وكان قد رثاه أحد أساتذته الجامعيّين، فأوجز، أبرعَ إيجاز، عمله البطوليّ:

«في بلادٍ تسودها عنصريّةٌ عنيدةٌ، أيقظ رجلٌ أسود الضمائر الغافية. وفي بلاد مبتلاةٍ بداء العنف، دعا رجلٌ أسود إلى اللاعنف، وفي وطنٍ تُفسده الأثَرة والأنانيّة، دعا رجلٌ أسود إلى المحبّة، وفي بلدٍ منخرطٍ في ثلاث حروبٍ بشّر أسودُ بالسلام.

"الرصاصة التي قضت على حياة مارتن لوثر كينغ، لم تُصِب هدفَها. فالذين أصغوا إلى رسالته على مدى الأيّام الأربعة الأخيرة، تجاوز عددهم عدد الذين استمعوا إلى عظاته طوال اثنتي عشرة سنةً. صوته صمت، ولكنّ رسالته دوّت دويّ الصنوج في جميع أرجاء المعمورة.

"لقد رُجم، وطُعِن بخنجرٍ، وشُتِم، ورُشق بالبصاق، أثناء حياته، ولكنّ موته أبرز صورةً مذهلةً لعبور إنسانٍ بيننا، دأب على عمل الخير، دأبًا فائقًا.

"مات مارتن لوثر كينغ، مثلما عاش، مناضلاً، حتّى النفس الأخير، من أجل العدل. وفي غضون اثنتي عشرة سنةً، فقط، من حياته العلنيّة، حقّق للسود ما لم يحققه قرنٌ سابقٌ كاملٌ.

"نحن الذين عرفناه عن كثبٍ لا نذكر أنّه أظهر، مرّةً واحدةً، حقدًا على إنسانٍ. بيد أنّ تصدّيه للفرز العرقيّ، وللتفرقة، وللفقر كان إعصارًا ملتهبًا، استهلّ عهدًا جديدًا من النضال في سبيل الحرّيّة.

"كان لدى مارتن لوثر كينغ حلمٌ. ولكنّه لم يكن حالمًا. فقد كانت لديه رؤيةٌ واضحةٌ لمجتمعٍ عادلٍ، قائمٍ على واقعٍ ماثلٍ. وبقيادته انعتق ملايين السود الأميركيّين من سجن الخوف واللامبالاة، واندفعوا إلى الشارع يعلنون حرّيّتهم. وفتح رعدُ أقدامهم التي قرعت الأرض دروبًا إلى الحلم. ولولا مبادراته التي أوحتها جرأته الشخصيّة، لظلّت الأقوال تطرّز أوهامًا. لقد أماط مارتن لوثر كينغ، المناضل السلميُّ القناعَ عمّا يمتلكه شعبه من قدراتٍ دفينةٍ. وأتاحت التظاهرات الحاشدة اللاعنيفة، والملتزمة بنظامٍ صارمٍ مواجهة قامعي شعبه شنّ

معركةٍ منتصرةٍ، بلا سفك قطرة دمٍ واحدةٍ. وفي ضوء الشارع المتألّق لقّن الأمّة درسًا، مبيِّنًا من كان القامع، ومن كان المقموع.

"لا جَرَم أنّه كان أحد أعظم القادة السود، تاريخيًّا، غير أنّه كان، في الآن عينه، قائدًا لملايين البيض الذين تعلّموا منه أنّهم، بإذلالهم السود، يتردّون بأنفسهم إلى الحقارة، وأنّهم بدعمهم تحرير السود يغتنون ويرتقون.

"قليلون يعلمون كم كان ذلك المارد متواضعًا، وكم كان إيمانه بالبشر لا ينضب، وكم من جموعٍ حضنته في صميم فؤادها، ولامس احترامهم له حدّ العبادة. وأكثر ندرةً منهم هم من أدركوا مدى قلقه، وألمه، وحيرته إزاء صحّة القرارات المثقلة بالمسؤوليّة التي كان عليه اتّخاذها.

"كان يلتمس، بلا هوادةٍ، نصائح أصدقائه المقرّبين، ويسائل ذاته، ويصلّي بكثافةٍ من أجل الاهتداء إلى السبيل السويّ. وكان دائم الخشية من الوقوع في الفساد، ويتفاداه، ولم يستطع أحدٌ من منتقديه الكثُر التشكيك بدوافعه، مثلَ تشكيكه الذاتيّ بنفسه.

"وربّما نسي الناس أنّه مَنَع مؤسّساته من طبع صوَره، التي انتشرت، مع ذلك، ملايين منها في الأكواخ، وفي بيوت الطبقات الوسطى، وفي الصروح الفاخرة. فهو كان يأبى التأليه، ولم يكن يطمح إلاّ في أن يُستَمَع إليه.

"وقد دوّن بنفسه نصّ نعْوَته، فطلب: "قولوا لهم: حاولتُ إطعام الجائعين، وإكساء العراة، ومدّ يدي للغوث".

"وهو، في الواقع لم يفعل سوى ذلك، ولذلك هو، في مقياس النبل البشريّ لا يُجارى، ولذلك هو، بعد أن أسكته الموت، سيظلّ حيًّا».

كثيرون من مساعديه حاولوا متابعة نضاله. ولكن لم يملك أحدٌ منهم قدرة الحلول محلّ بطلٍ ملهمٍ فذٍّ، بيد أنّ البذرة التي نثرها في تربة ساحة نضاله، نبتت ببطءٍ وثباتٍ، وآتت حصادًا وفيرًا مباركًا.

المراجع

١- كُتُبُ مارتن لوثر كينغ:

- Autobiographie
  Bayard, Paris, 2015
- La force d'aimer
  Casterman ,1969
- La seule révolution
  Caterman ,1969
- Je fais un rêve
  Bayard 2013
- Combats pour la liberté
  Payot,1968
- Rêver,
  Acropole ,2007

٢- كتّاب آخرون:

- Stephen B. Oates : Martin Luther King
  Le centurion, Paris, 1985
- Coretta Scott King : Ma vie avec Martin Luther King
  Stock,1970
- Sylvie Laurent : Martin Luther King
  Seuil, Paris, 2015
- Roger Martin : Le rêve brisé
  De Boré ,2018
- Bleri Leeshi : La puissance de l'espoir
  New future, Liège ,2019
- Alain Foix : Martin Luther King
  Gallimard, 2012
- Jean-Pierre Delarge : Prier avec Martin Luther King
  Éditions universitaires ,1981

الفهرس

إهــداء ٥
تقـديم – المتروپوليت جاورجيوس خوام.......................... ٧
من يسوع إلى غاندي... إلى مارتن لوثر كينـغ – الأب الياس زحلاوي ١١
تمهيد ١٥

الجزء الأوّل

البيئة والنشأة ١٧
العنصريّة في الولايات المتّحدة................................. ١٨
نشأةٌ أعدّته لحياة نضالٍ...................................... ٢٣
علاماتٌ لافتةٌ في صبا مارتن كينـغ الصغير ٢٧
مارتن والقضيّة العرقيّة ٢٨
ولادة وَلَعه بالخدمة.. ٣٤
في إكليريكيّة "كروزر"CROZER.................................. ٣٦
منارةٌ أضاءت طريقه: غاندي واللاعنف ٤٠
دراسته الجامعيّة رسّخت نزعته الغانديّة ٤٣

الجزء الثّاني

القسّ المناضـل ٤٩
راعي كنيسة "ديكستر" في مونتغومري................................ ٥٠
صدمةٌ، وتنظيمٌ، وإصلاحٌ ٥٦

توقيفٌ حاسمٌ ٦٣
اليوم الكبير: ١٩٥٥/١٢/٥..... ٦٨
الحركة تتّسع وتنتظم ٧٤
اختيار أسلوب اللاعنف ٧٧
مفاوضاتٌ متماديةٌ، ومناوراتٌ خبيثةٌ، وخداعٌ وانتقامٌ..... ٨٠
محاولات العنف القصوى ٨٧
إنهاء تدابير الفصل العرقيّ..... ٩٩
نتائج حركة مونتغومري..... ١١٥
إيجاز مارتن لوثر كينغ لمفهوم اللاعنف ١١٩
عوائق في وجه العدالة..... ١٢٢
تظاهرةٌ أمام نصب أبراهام لينكولن ١٢٦
طعنةٌ في هارلم ١٢٨
حجٌّ إلى منابع اللاعنف ١٢٩
انتقالٌ إلى أتلانتا..... ١٣٤
اعتقالٌ في أتلانتا وتدخُّلٌ رئاسيٌّ..... ١٣٩
حملة "بيرمينغهام"..... ١٤٨
رسالةٌ من سجن بيرمينغهام ١٥٦
الحرّيّة فورًا ١٥٨
مسيرةٌ نحو واشنطن..... ١٦٦
نكسةٌ..... ١٧٢
مدينة القدّيس أوغسطينُس ١٧٤
تحدّي ولاية ميسيسيبي..... ١٧٦
جائزة نوبِل للسلام..... ١٧٩
قضيّة تصويت السود..... ١٨٥
ثورةٌ في الشمال..... ١٩٤
حملة شيكاغو ١٩٧
شعار "القوّة السوداء" ٢٠٥

معارضته للحرب في فييتنام ٢١٣
حملةٌ على الفقر ٢١٨
مصرع مناضلٍ بطلٍ ٢٤٤
المراجع ٢٥٣
الفهرس.....٢٥٥
صدر للمؤلّف ٢٥٨
أوّلاً. منشورات المكتبة البولسيّة – جونية – لبنان ٢٥٨
ثانيًا. دور نشر أخرى..... ٢٦٠

صدر للمؤلّف

أوّلاً. منشورات المكتبة البولسيّة – جونية – لبنان

- سلسلة النوابغ

١. السياسيّ القدّيس: المهاتما غاندي – ١٩٩٢

٢. فرنسيس... أصلح كنيستي – ١٩٩٢ و ٢٠٠٨

٣. صوت من لا صوت لهم: الأب پـــيير – ١٩٩٧

٤. حتّى يوجع العطاء: الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة – ١٩٩٨ و٢٠٠٣

٥. أنا الأخت إيمانويل، أشهد – ١٩٩٩

٦. بولس، رسول يسوع وقلبه ولسانه – ٢٠٠٣

٧. جان ڤانييه وسفينته – ٢٠٠٣

٨. سيرة المسيح (مترجم عن جوڤانّي پاپّيني) – ٢٠٠٣

٩. البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني – ٢٠١٥

١٠. الكاهن القدّيس جان ماري ڤيانّي "خوري أرس" – ٢٠١٩

١١. عملاق المحبّة القدّيس ڤنسان دي پول (مار منصور) – ٢٠١٩

١٢. معجزة العناية الإلهيّة "البيت الصغير" (القدّيس جوزيف كُتّلينغو) – ٢٠٢١

١٣. راوول فولّيرو رسول البرص ومتشرّد المحبّة – ٢٠٢١

١٤. دون بوسكو...

ملاذ المشرّدين، ومربّي المهملين ومؤسّس الجمعيّة الساليزيّة – ٢٠٢٢

- مؤلّفات منفرّقة

١. قدّيسة من بلادنا: الطوباويّة الأخت مريم يسوع المصلوب – ١٩٩٠
٢. يسوع في إنجيله – ٢٠٠٦
٣. يسوع في حياته – الجزء الأوّل – ٢٠٠٦
٤. يسوع في حياته – الجزء الثاني – ٢٠٠٦
٥. أمّ الله أمّنا – ٢٠٠٩
٦. مختارات مريميّة – ٢٠٠٩
٧. أمّ الرحمة – ٢٠١١
٨. باقاتٌ من حدائق رابندرانات طاغور – ٢٠١٦
٩. الأخت "أنّا كاتارينا إيمّيريك" (١) السيرة – ٢٠١٩
١٠. الأخت "أنّا كاتارينا إيمّيريك" (٢) الرؤى * – ٢٠١٩
١١. الأخت "أنّا كاتارينا إيمّيريك" (٣) الرؤى ** – ٢٠١٩
١٢. مقتطفات من خواطر القدّيس ڤنسان دي پول (مار منصور) – ٢٠٢٠
١٣. قصائد وصلواتٌ وخواطر وأقوال (راوول فولّيرو) – ٢٠٢١

- سلسلة الظهورات

١. ظهورات لورد – ٢٠١١
٢. ظهورات فاطمة – ٢٠١١
٣. ظهورات الصوفانيّة – ٢٠١١
٤. ظهورات مديوغوريه – ٢٠١١
٥. ظهورات لاساليتّ وظهورات الإسكوريـــــال – ٢٠١٢
٦. ظهورات كيبيهو وظهورات غوادالوپّي – ٢٠١٢
٧. ظهورات العذراء لكاترين لابوريه (المدالية العجائبيّة) وألفونس راتسبون – ٢٠١٢
٨. ظهورات لوس وغيتشڤاود – ٢٠١٢

٩. لِمَ تبكي العذراء؟ – ٢٠١٢
١٠. الأمّ السماويّة تجوب العالم (١) – ٢٠١٢
١١. الأمّ السماويّة تجوب العالم (٢) – ٢٠١٣
١٢. ظهورات غَرَبَندَل وظاهرة سان داميانو – ٢٠١٣
١٣. ظهورات في فرنسا – ٢٠١٣

- سلسلة صفحات روحيّة

١. أبانا – ٢٠٠٥
٢. كتاب الحكمة والفضائل المستعادة (مترجم) – ٢٠٠٧
٣. العذراء في حياتنا (مترجم) – ٢٠٠٥ و ٢٠٠٧
٤. المسيحيّة في نظر رابندرانات طاغور وصلوات شاعر (مترجم) – ٢٠١٥
٥. على درب الحياة مع ألكسي كاريل،
الرحلة إلى لورد وخواطر مختارة (مترجم) – ٢٠١٦

- كتب مترجمة

١. يد الله – ١٩٨٨ (سلسلة الشهود)
٢. ثلاث عشرة قصة – ١٩٩٠ (سلسلة الوداع)
٣. أيدٍ ملطّخة بالدم – ١٩٩٥ (سلسلة الوداع)
٤. اذكروا الله: تأمّلات من وحي رسائل الصوفانيّة – ١٩٩٥
٥. حدّثني عن الحبّ (طبعة ثالثة) – ٢٠٠٥ (سلسلة الشباب مستقبل الغد)

ثانيًا. دور نشر أخرى

١. على درب الحياة مع ألكسي كاريل (مطبعة الأديب – دمشق) – ١٩٨٤
٢. حدّثني عن الحبّ (مطبعة اليازجيّ – دمشق) – ١٩٩٨ و٢٠٠٠